العلّامة السيد سليمان الندوي

العلاقات بين العرب والهند في أغوار التاريخ



تعريب وتحقيق

حسيب الرحمن مجيب الندوي

دار وحي القلم

العلامة السيد سليمان الندوي

العلاقات بين العرب والهند في أغوار التاريخ

تعريب وتحقيق

حسيب الرحمن مجيب الندوي

دار وحي القلم

العلاقات بين العرب والهند في أغوار التاريخ
تأليف: العلامة السيد سليمان الندوي

الطبعة الأولى ١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٣م

قياس القطع: ١٧×٢٤ سم
عدد الصفحات: ٢٩٢

الرقم المعياري الدولي: ٧-٣٢-١-٥٠١-٩٩٣٣-٩٧٨

دار وحي القلم

أسسها:
سليم محمد دولة
سنة ٢٠٠٢م

الكتب التي تصدر عن الدار تعبّر عن آراء واجتهادات أصحابها.

هدفنا...
تعميم القراءة المفيدة وتدعيم الكتابة.
وحي القلم تستقبل تأليف الكتّاب والمفكرين المبدعين وتشجع إمكانات التفكير وفرص النشر.

دمشق ـ هاتف: ‎+963 11 2218536‎
بيروت ـ تلفاكس: ‎+961 1 857444‎
جدة ـ تلفاكس: ‎+966 2 6608904‎
جوال: ‎+966 53 7065304‎
جوال: ‎+966 50 3637580‎
ص.ب: ٤٥٢٢ دمشق ـ سوريا
البريد الإلكتروني:
wahe_alkalam@yahoo.com
wahe_alkalam@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

دار وحي القلم

تستقبل تأليف الكتّاب والمفكرين المبدعين وتشجع إمكانات التفكير وفرص النشر.

تجمع بين الأصالة والحداثة، وتستوحي إصداراتها من وحي الواقع، من وحي التجربة والممارسة، ومن رصد ما يُدبر لهذه الأمة ويُراد بها.

يعنيها جديد الإبداع الذهني الذي يُشعُّ صورة الإسلام النقية في واقع يغصُّ بالأزمات والنكبات التي تستهدف الأمة في دينها وتراثها وأخلاقها.

تتقدم ـ بمعونة الله تعالى ـ نحو عالم كتابي من نوع آخر ـ وضمن خطة تعميم القراءة وتدعيم الكتابة والأخذ بيد القراء الأكارم ـ وقد أخذت الدار على نفسها استقبال الأسماء التي تحمل العناوين المضيئة الموضحة ضمن خطتها.

تدرك ـ أننا جميعاً في دار الممر، لذا علينا أن نعبر لنا السبيل إلى دار المقر بأمن وأمان ويسر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المدير العام

كلمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم كتاب تاريخي باحث، يتناول العلاقات بين العرب والهند وخاصة قبل الفتوحات الإسلامية وهي علاقات ساحقة في أغوار التاريخ، حيث ذكر المؤلف العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله بنفسه أنه أراد إزاحة الستار عن الخلفية التاريخية للصلات بين العرب والهند، وإزالة سوء الفهم بأن العلاقات العربية والهندية إنما نشأت بعد الفتح الإسلامي في هذه المنطقة كما شاع بين أهل الهند والعرب على السواء إلا من كان على علم بالتاريخ القديم للعالم. ومن هنا يحمل هذا الكتاب قيمة تاريخية علمية يجب أن يستفيد منها كل من أراد الخوض في هذا المجال، وكانت للأسف الشديد مقصورة على الناطقين باللغة الأردية التي ألف فيها، رغم الحاجة إلى نقلها إلى اللغة العربية حيث وجدت الإحالة إليها في بعض الكتب العربية في هذا الموضوع بأقلام الكتاب العرب الذين يعرفون الأردية وقليل ما هم.

نظرا لأهمية الكتاب العلمية والتاريخية رأيت أن أتحمل مسؤولية نقله إلى اللغة العربية إلا أنني ترددت كثيرا حتى بعد بدء التعريب، لقلة بضاعتي من العلم

والتحقيق، وشدة حاجة الكتاب إلى مراجعة الكتب التي اعتمدها المؤلف في إعداده حيث اقتبس المؤلف رحمه الله كثيرا من المعلومات المبثوثة في مجلدات ضخام من الكتب التاريخية والجغرافية القديمة، التي لم يكن الوصول إليها سهلا لفارق الزمن بين المؤلف والمعرب، وحدوث تغييرات واختلافات في أسماء الكتب ومواقع الاقتباس منها باختلاف الطبعات وما توفر منها.

لقد كانت عملية تعريب كتاب الصلات بين العرب والهند بدأت قبل أكثر من سنة ونصف، إلا أن أسبابا حالت دون إتمامها، منها انشغال المعرب بأعمال علمية أخرى مستعجلة، فتأخر العمل وكاد يطويه النسيان إلى أن تناهى الخبر إلى الأخ عبد الحي الندوي ـ حفظه الله ـ فحثني على استئناف العمل وإتمامه، وشجعني كثيرا وسهل من الصعاب التي كنت أواجهها، وكانت أكثرها نفسية ولم يزل بي حتى انتهيت من التعريب والتحقيق ونقل النصوص من مراجعها، فله الشكر الجزيل على هذه العناية الفائقة.

وأنا إذ أقدم هذا الكتاب العلمي الفريد، أرى لزاما علي أن أشكر لأستاذي الجليل فضيلة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي حفظه الله وأطال عمره، رئيس جامعة ندوة العلماء، والأمين العام لرابطة الأدب الإسلامي لشبه القارة الهندية، الذي أعرب عن سروره وتقديره لهذا العمل وتفضل علي بكتابة مقدمة ضافية على الكتاب، تعد في ذاتها مقالا علميا تاريخيا يلقي الضوء ولو باختصار على موضوع الكتاب، فأشكر له شكرا جزيلا على ما أكرمني به من تقدير لعملي وتقديم له رغم ما نعرف نحن من كثرة أشغاله وأعماله، كما أشكر للأستاذ نذر الحفيظ الندوي الأزهري أستاذ الأدب العربي بجامعة ندوة العلماء الذي تولى مراجعة الترجمة العربية بكل دقة وعناية، وأعطاني من التوجيهات

العلمية ما زاد الكتاب قيمة علمية بالإضافة إلى ما سجل لي من انطباعاته الشخصية التي هي عبارة عن حسن ظن الأستاذ بتلميذه العاجز القليل البضاعة، إلا أنني أتقبلها لعل الله سبحانه وتعالى يجعلني جديرا بما كتب، وكذلك أشكر للأستاذ الدكتور محمد أكرم الندوي، الباحث الإسلامي بمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن، الذي ظل يشجعني على العمل ومواصلة التحقيق والترجمة، وقد رفع قيمة هذا الكتاب بما دبجه يراعه من كلمات للتعريف بالكتاب وصاحبه فجزاه الله تعالى خير الجزاء.

وقبل أن أختم كلمتي هذه يجب أن أتوجه بأرفع معاني الشكر والتقدير إلى كل من الأستاذ الدكتور السيد سلمان الندوي نجل المؤلف رحمه الله، رئيس قسم الدرسات الإسلامية بجامعة دربن بجنوب إفريقيا سابقا، ومستشار رئيس الجامعة حاليا والأستاذ السيد سلمان الحسيني الندوي وكيل كلية الشريعة بندوة العلماء والذي عرضت عليه بعض أجزاء هذا الكتاب فشجعني على مواصلة العمل وأكرمني بما شاء الله من كلمات التشجيع والابتهاج، والأستاذ حشمت الله الندوي، والأستاذ محمد رحمة الله الندوي الذي تعلمت منه الكثير الكثير فيما يتعلق بالبحث والتحقيق، والأستاذ عمير الصديق الندوي مدير دار المصنفين بأعظم جراه، الهند ـ حفظهم الله جميعا ـ رحبوا بهذا المشروع كل ترحيب، وشجعوني على العمل كل تشجيع، وساعدوني في هذا الإنجاز ما أمكنهم من المساعدة فلهم الشكر والتقدير، كما لا يفوتني أن أشكر للأساتذة والمربين الذين لعبوا دورا أي دور في تعليمي وتثقيفي وأخص بالذكر منهم الأستاذ محمد أكرم الندوي الذي تعلمت على يديه كتابة أول جملة عربية وأنا طالب في الصف الإعدادي في ندوة العلماء، والأستاذ محمد واضح رشيد

الندوي الذي تعلمت على يديه آخر درس من دروس الإنشاء، وكذلك أحب أن أشكر للأستاذ حبيب الله خان محاضر بالجامعة الملية الإسلامية بنيو دلهي، الذي كان خير معين يتمنى لي الرقي والازدهار في الدين والدنيا، كما أشكر شكرا جزيلا للأستاذ سليم محمد دولة المحترم الذي اطلع على الكتاب ومحتوياته، فبادر إلى الموافقة على إخراجه إلى النور بثوب قشيب إن شاء الله تعالى.

و أشكر أخيرا ولا آخرا شقيقي الكبير حبيب الرحمن مجيب الذي لم يدخر وسعا في تعليمي وتربيتي بعد وفاة والدي رحمهما الله، وعائلتي الصغيرة التي ضحت بكثير من حقوقها خلال فترة العمل على هذا الكتاب، فللجميع شكري وتقديري، وجزاهم الله خير الجزاء.

وأرجو من القراء الكرام أن لا ينسوا في صالح دعائهم كاتب هذه السطور وأسرته، ولا سيما أبويه الكريمين اللذين فارقا الحياة قبل أن يريا ما كانا يتمنيان من ابنهما من خدمة للعلم والدين، رحمهما الله رحمة واسعة.

حسيب الرحمن مجيب الندوي

الدوحة ـ قطر ـ ٠٣/ ١٢/ ٢٠١٠م

تقديم وتعريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله النبي الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن تاريخ الهند الإسلامي العلمي والثقافي لا يزال عالمًا مجهولاً بالنسبة لعامة العلماء والباحثين العرب، والمسؤولية تقع في ذلك إلى حد كبير على الهنود أنفسهم إذ لم يقوموا بجهد كبير في نشر تراثهم العلمي والفكري والأدبي المتواجد باللغة العربية، فمعظمه لا يزال مخطوطًا في خزائن الهند العامة والخاصة، كما لم يعتنوا بنقل كنوزهم العلمية المؤلفة باللغة الفارسية أو الأردية أو اللغات المحلية إلى اللغة العربية، مع أن كثيرًا من أعلام علماء العرب لم يزالوا يستحثون علماء الهند على إعارة الاهتمام بهذا الجانب، وأخيراً استلفت انتباهي إلى ذلك شيخنا العلامة المحدث الحافظ الورع التقي الإمام محمد عوامة حفظه الله تعالى حيث يقول في تقديمه لكتاب (الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي: حياته وآثاره): "وأقترح على أخي الدكتور محمد أكرم وفقه الله وعلى غيره من السادة علماء تلك الديار ـ وما أكثرهم ـ أمرين: أن يتوجه بعضُهم أو أن يوجه بعضَ طلابه من طلاب الدراسات العليا إلى الكتابة عن هذا الإمام دراسة عامة، كهذه الدراسة، أو دراسة خاصة، لجوانب خاصة من حياته العلمية أو العملية، أو لآثاره. وأن يتوجه بعضهم لإحياء آثاره ـ، وأن يكون ذلك بالعربية، ولا شك ـ، وكلها مفيد نافع، والحمد لله".

ومن الاعتراف بالجميل أن أشيد بذكر أخينا العالم الشيخ عبد الحي الندوي حفظه الله تعالى، الذي قد أخذ هذا الهم على عاتقه، ويسعى جاهدًا أن يوجه الباحثين الأكفاء إلى تعريب أهم مؤلفات علماء الهند، ومن ثمار جهوده أخونا الفاضل حبيب الرحمن الندوي الذي نقل عدة أشياء بتوجيه من الأخ عبد الحي إلى اللغة العربية، منها كتاب (الصلات بين العرب والهند) للعلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى.

ألقى السيد الندوي محاضرات حول موضوع "الصلات بين الهند والعرب" سنة ١٩٢٩م على دعوة من الأكاديمية الهندية بمدينة إله آباد، قام فيها بتذكير المسلمين والهندوس بالعهود الذهبية التي كانت تربطهم فيها أواصر مختلفة وعلاقات متنوعة، تعتبر هذه المحاضرات فريدة في البحث والتحقيق، والعرض والاستدلال. قامت الأكاديمية الهندية بنشرها سنة ١٩٣٠م باسم "الصلات بين العرب والهند، ونقل الكتاب إلى اللغة الإنكليزية.

إن مؤلف هذا الكتاب هو العلامة الكبير، المفسر الشهير، الفقيه المحدث، المتكلم، المؤرخ، الكاتب القدير، والنابغة في الإنشاء والأدب الإمام الشريف سليمان الندوي بن أبي الحسن الحسيني العلوي الهاشمي القرشي.

ولد في قرية دِسنة من ولاية بِهار في الهند يوم الجمعة لسبع بقين من شهر صفر سنة اثنتين وثلاث مائة وألف المصادف للثاني والعشرين من شهر نوفمبر سنة أربع وثمانين وثمان مائة وألف، ونشأ في بيئة علمية وأدبية، وجو من الصلاح والتقوى، وتخرج في دار العلوم لندوة العلماء سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٧م، حيث اختص بالعلامة الجليل المؤرخ العظيم شبلي النعماني (ت ١٣٣٢هـ/

١٩١٤م) ولازمه ملازمة تامة، وتدرب عليه في كتابة البحوث العلمية والأدبية، والتأليف، وشاركه في عمل موسوعة السيرة النبوية العظيمة.

كان متمكنًا من اللغات العربية والفارسية والأردية، وعارفًا للغة الإنكليزية، ومضطلعًا من القرآن الكريم وعلومه، والحديث النبوي الشريف وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وتاريخه، والفلسفة، ونقد مسائلها، والتاريخ العام، وتاريخ الإسلام، وأشياء ضرورية من الثقافة الحديثة.

لما أسس شبلي قسمًا لتدوين سيرة النبي سنة ١٩١٠م عين السيد سليمان مساعدا فيه، استدعاه شيخه العلامة شبلي النعماني حين حضرته الوفاة، وفوض إليه إكمال سلسلة "سيرة النبي"، ونظارة مجمع دار المصنفين، فنهض بأعباء المجمع، وخلف شيخه شبليا، وذلك في سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة وألف الموافق لسنة أربع عشرة وتسع مائة وألف من المسيحية، وتولى رئاسة تحرير مجلة "المعارف" الشهرية، وعكف على التأليف والتحقيق مكبا على إكمال سيرة النبي.

كان السيد الندوي من كبار المؤلفين في هذا العصر، ومن المكثرين من الكتابة والتأليف مع سعة علم ودقة بحث وتنوع مقاصد، له تكملة "سيرة النبي" لأستاذه في خمسة مجلدات كبار، تعتبر دائرة المعارف في السيرة النبوية والعقيدة الإسلامية، و"خطبات مدراس" من خير ما كتب في السيرة النبوية، ونقل إلى الإنكليزية والعربية، و"أرض القرآن" في مجلدين في جغرافية القرآن، و"سيرة عائشة" و"سيرة مالك" و"خيام" و"نقوش سليماني" في البحوث اللغوية والأدبية، و"حياة شبلي" في سيرة أستاذه، و"الصلات بين العرب والهند" و"الملاحة عند العرب" وله غير ذلك من البحوث العلمية والمقالات الكثيرة التي تحويها مجلدات "المعارف الكثيرة".

وقد شرفه الله تعالى بالحج وزيارة الأراضي المقدسة ثلاث مرات: أولاها سنة ١٩٢٤م، والثانية سنة ١٩٢٦م، وقام بالرحلة الثالثة للحج سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، واختير أميرًا للحجيج، واستضافه الملك عبد العزيز بن سعود استضافة خاصة.

وافاه الأجل في غرة ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وثلاث مائة وألف الموافق للثاني والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٥٣م، وحضر جنازته كبار العلماء وأعيان البلاد، وسفراء الحكومات الإسلامية والعربية، ودفن في مدينة كراتشي من باكستان[1].

قسم المؤلف الكتاب إلى خمسة أبواب: تحدث في الباب الأول عن بداية الصلات بين العرب والهند، وإغراق العلاقات التجارية بين الشعبين في القدم، وأثبت أن أول أمة باشرت التجارة البحرية هم العرب الفينيقيون القاطنون في سواحل بلاد الشام، وكانت لهم تأثيرات علمية واضحة في الهند قبل مبدأ الإسلام، ثم ذكر هجمات المسلمين العرب الأولى وفتحهم لبلاد السند، ثم ذكر تاريخ الهند بواسطة كتابات الجغرافيين المسلمين من أمثال خرداذبه (ت ٢٥٠هـ)، وسليمان التاجر (ت ٢٣٧هـ)، وأبي زيد حسن السيرافي (ت ٢٦٤هـ)، وأبي دلف مسعر بن المهلهل (ت ٣٣١هـ)، وبزرك بن شهريار (ت ٣٠٠هـ)، والمسعودي (ت ٣٠٣هـ)، والإصطخري (ت ٣٤٠هـ)، وابن حوقل (ت ٣٣١هـ)، والبشاري المقدسي (ت ٣٧٥هـ)، وأبي ريحان البيروني (ت ٤٠٠هـ)، وابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) الذين قدموا الهند وقيدوا أجوالها في

(١) وقد عمل كاتب هذه السطور كتابًا وافيًا بحياة العلامة السيد سليمان الندوي ومآثره وأعماله، طبعته دار القلم في سلسلتها الشهيرة "أعلام المسلمين".

رحلاتهم، فكتاباتهم أكبر مصادر لتاريخ الهند القديمة.، ثم ذكر المؤرخين والجغرافيين العرب الذين لم يدخلوا الهند، ولكن كتبوا عنها.

وناقش في الباب الثاني العلاقات التجارية، وألقى الضوء على قدم هذه العلاقات، وأهمية التجار العرب في بلاد المشرق والمغرب، وتفاصيل طرقها التجارية، ومنازلها، وموانئها، وتجارة غير العرب من الشعوب في الهند، والإنتاجات والصناعات الهندية وغيرها من الأشياء التجارية، والاستيراد والتصدير التجاري، والتجار الهنود في بلاد العرب، وسعة بواخر بحر الهند، وتجارة الهند البحرية، كما ذكر البحار العربي ابن ماجد وأن العرب كانوا أعرف بطرق الهند البحرية قبل البرتغاليين.

وعالج في الباب الثالث موضوع العلاقات العلمية، وأظهر فيه أن الاتصال العلمي بين العرب والهند بدأ منذ عهد بني أمية، ثم تطور ذلك تطورًا واسعًا في عهود العباسيين، وذكر اهتمام خلفاء بني العباس بالعلوم والآداب ونقلها إلى اللغة العرب، والدور الرائع الذي لعبه البرامكة في تقدم العلوم، وحقق أن البرامكة لم يكونوا مجوسًا، وإنما كانوا بوذيين من أصل فارسي، ومن ثم كانت لهم علاقات طيبة بالهند، واستدعوا علماءها إلى عاصمة الخلافة، وذكر في هذا الباب كتب الطب، والنجوم، وعلم الهيئة، والحساب، والبيطرة، والموسيقى، والحرب، والسياسة، والمنطق، والكيمياء، والجفر، والرمل، والقصص، والأخلاق التي نقلت من السنسكريتية إلى العربية، كما ترجم لعلماء الهند الذين أقاموا ببغداد، وختم هذا الباب بترجمة البيروني الذي خدم علوم الهند وآدابها وتاريخها وحضارتها ما لم يقم به هندي، حتى أصبحت كتاباته أكبر مصدر لتاريخ علوم الهند وثقافتها القديمة.

وتحدث في الباب الرابع عن العلاقات الدينية، وأزال فيه الشكوك التي أثارتها الكتابات الإنكليزية لخلق الكراهية ضد الإسلام والمسلمين في قلوب الهندوس حيث اختلقوا أساطير قتل المسلمين للهندوس وهدم معابدهم، وإكراههم على الدخول في الإسلام. وذكر براءة الإسلام عن تصرفات بعض الحكام والملوك الترك والأفغان الذين لم يمثلوا الإسلام تمثيلاً صادقًا، وأكد أن العرب هم الذين مثلوا الإسلام التمثيل الصحيح، فلم يتجاوزوا حدود الإسلام في معاملاتهم لرعاياهم، ولم يتدخلوا في شؤونهم الدينية ولم يهدموا معابدهم، وسووا بينهم وبين أهل الكتاب في الحقوق غير أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم، حتى أحبهم سكان السند ودخلوا في دينهم عن طواعية النفوس، وأثبت أن فكرة التوحيد الخالص لم يكن لها وجود في الهند إلا بعد دخول المسلمين فيها، وأن أحد ملوك السند البوذيين هو أول من أمر بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة السندية.

وتحدث في الباب الخامس عن المجموعة السكانية للمسلمين قبل غزو الملوك الغزنويين للهند، وكشف فيه عن أن جنوبي الهند لم يدخل تحت سيطرة المسلمين إلا في الأخير، ولكن هذه المنطقة هي التي دخلها المسلمون أول ما دخلوا الهند، فلا تجد مدينة ساحلية أو تجارية في جنوبي الهند إلا والمسلمون فيها عامرون، وقد بلغ عددهم في بعض المدن إلى الألوف، وكانت لهم تأثيرات خلقية كبيرة على ملوكها الهندوس، وكان هؤلاء الملوك يبذلون للمسلمين كل تكريم واحترام، ويوفرون لهم التسهيلات من كل نوع، فكانت لهم مساجد، بل كان لهم نظامهم الديني في المناطق التي كثر فيها عددهم، وكان لهم فيها أئمة وقضاة، كما دخل بعض ملوك الهندوس في الإسلام بفضل هؤلاء المسلمين.

وتحدث في الأخير عن تاريخ الإسلام في بلاد السند وملتان، وأن مئات من المسلمين سكنوها قبل غزو محمد بن قاسم الثقفي لها، كما تحدث فيها عن أمرائها العرب، ثم ملوكها المسلمين من غير العرب.

هذا تعريف إجمالي بمحتويات الكتاب، وإلى القراء الآن الكتاب بكامله، وإني أشكر أخانا الفاضل الباحث الدؤوب الأستاذ حسيب الرحمن مجيب الندوي على نقل هذه الثروة التاريخية الغالية إلى اللغة العربية في أسلوب علمي راق مع إحالة المقتبسات على مصادرها والتعريف بالأعلام المذكورين في ثناياه، فالعمل الذي بين أيدينا الآن ليس ترجمة فحسب، بل فوق ذلك هو اعتناء بالكتاب بحثًا وتحقيقًا، ولا أبالغ إذا قلت إن الكتاب أصبح بعد هذا البحث والتحقيق أنفع من أصله الأردي، وأدعو الله تعالى أن ينفع به الباحثين في مجال التاريخ الإسلامي.

ومرة أخرى أشكر أخانا حسيب الرحمن مجيب الندوي راجيًا منه أن يواصل بإتحاف عالم الفكر والمعرفة بأمثال هذه التحفة النادرة القيمة، وجزاه الله تعالى خيرًا، ونفع به العباد والبلاد، وأسأل المولى عز وجل أن يوفقنا جميعًا لما فيه رضاه، آمين يا رب العالمين، والصلاة على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: محمد أكرم الندوي

أوكسفورد ـ ١٥ محرم ١٤٢٨هـ.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمدا طيبا مباركا فيه وأتم الصلاة والتسليم على سيدنا ونبينا محمد، وعلى أهله وصحبه أجمعين.

أما بعد! فإن علاقة أبناء الجزيرة العربية بالهند قد ابتدأت منذ القديم، ويشير إلى ذلك ما نجده من انتساب بضائع مختلفة إلى بلاد الهند، ومن ذلك السيف المهند والهندواني، وكذلك بعض التوابل والبخور التي مصدرها الهند، وتوجد بعض الكلمات يظهر أنها قبلتها اللغة العربية من اللغة السنسكريتية التي كانت هي لغة الهند القديمة، ويظهر من هذا ومن نماذج أخرى أن رجالا من العرب زاروا بلاد الهند، أو أن رجالا من الهند زاروا البلاد العربية. ولا غرابة في ذلك لأننا نجد أبناء اليمن القديم كانوا يبحرون شرقا وشمالا وجنوبا لنقل البضائع التجارية، وكذلك نجد أن الساحل الشرقي الجنوبي من جزيرة العرب كان معروفا بكونه مصدر حاجيات بشرية، مثل الأقمشة القطرية، ومثل الرماح الخطية، والصمهرية والردينية. والخط منطقة تقع على حد كبير في مواجهة الساحل الهندي الغربي الشمالي. فاتصال الساحلين بقوارب بحرية وسفن شراعية لم يكن صعبا أو مستحيلا، وبناء على كون هذه المنطقة مصدرا للرماح لا يكون غريبا أن يكون مصدر السيوف التي تنسب إلى الهند، لأن وصولها إلى هذه المنطقة أسهل من وصولها إلى اليمن.

على كل، فإننا نجد مبررات كثيرة لاتصال أبناء البلاد العربية بمناطق هندية، ونجد آثار ذلك في وجود كلمات عربية كثيرة في مناطق الساحل الغربي الهندي من جنوبه إلى شماله في لغة «كيرالا»، و«مالابار» و«السند». ومن منطقة السند كان الوصول إلى الهند سهلا جدا، لأنهما متصلان اتصالا يسهل السفر بينهما، ويظهر من كلام العرب عن الهند أنهم يقسمونها إلى الهند والسند، لأنهم لا بد إذا دخلوا الهند أن يمروا بـ«السند» والهند وكذلك بمناطق وسطى من بلاد الهند. وتتشابه بلاد الهند وبلاد العرب في كون كل واحد منهما شبه الجزيرة، لا جزيرة كاملة، وغير جزيرة. وغالبية أراضي الهند خصبة بغلاتها وكذلك طائفة من بقاعها غنية بمعادنها، وإن أهل الهند استفادوا منها وحصل لهم بذلك تقدم في الحياة المدنية. وبالعكس من ذلك كانت غالبية أراضي البلاد العربية وبخاصة منها الأراضي المتوسطة للجزيرة العربية كانت قاحلة جدبة، وكان أبناؤها في حاجة شديدة إلى ما يحصل من أماكن تملكه وتنتجه من متطلبات الحياة. ومن هذه الأماكن أراضي الهند التي تقع في الجانب الشرقي للجزيرة العربية، وبلاد الروم التي تقع على الجانب الشمالي الغربي من الجزيرة، ولذلك نجد أن قوافل اليمن التجارية كانت تدور بين الجانبين، فإذا كان مما لا غرابة فيه أنه كان يقع بين أبناء الجزيرة العربية وبين أبناء تلك البلدان توافد وتداور من رجال الهمة العالية أصحاب التجارة، وكان أبناء الجنوب العربي والشرقي العربي بناء على مواجهتهم لبلاد الهند، يزورونها لغرض التجارة. والتجارة تقتضي زيارة بقاع مختلفة للإستيراد والتصدير، وكان ذلك واقعا معلوما عن العرب القاطنين على السواحل.

بناء على ذلك كله نجد ذكر بلاد الهند في كلام العرب في نواح ومناسبات

مختلفة في موضوعات الكلام، فكان من الجدير برجال الدراسة والبحث أن يهتموا بهذا الموضوع، وكذلك يلتمسوا معرفة تلك المناسبات التي جاء فيها ذكر الهند، أو مايتعلق بالهند في كلام العرب، ويصلوا بذلك إلى نتائج تدل على ما يتعلق بهذه المناسبات ويعرفوا بذلك أصول الكلمات المذكورة بتلك المناسبات وأسبابها.

ويسرنا أنه اعتنى بذلك سماحة العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله من أصحاب العلم والدراسة والعلماء العظام قبل ظهور وسائل التسهيل لزيارة البلدان القاصية خاصة البلاد التي تقع وراء البحار، وألف كتابا قيما بحث فيه عن جميع ما يتصل بالهند، من المصطلحات والأسماء والإشارات في كلام العرب وكتبهم التاريخية، فأصبح بذلك له كتاب قيم يليق بكل تقدير واستفادة، وحصل طبعه ونشره في الهند باللغة الأردية، وأضاف إلى ذلك دراسة وبحثا عن رحلات العرب كان عنوانه «الملاحة عند العرب». وهذه العلاقة لا شك تصل إلى جوانب مختلفة من الجزيرة العربية وكان من المتقدمين فيها أبناء اليمن، لأن قوافلهم التجارية كانت تعتمد الملاحة، وكانت الحاجة ماسة إلى أن تنقل كتاباته إلى اللغة العربية ليعرف أبناء العرب من أجل دراستهم و بحثهم صلة الجزيرة الدينية بالهند في القديم الغابر.

جزى الله تعالى أحد أبناء ندوة العلماء أيضا وهو حسيب الرحمن مجيب الندوي أن يقوم بهذا العمل، وهو عند إتمام عمله هذا أراد مني أن أكتب كلمة تعريف بعمله، فاستجبت لطلبه، وإني أقدر عمله تقديرا، لأن كل عمل يزيد في المعارف الإنسانية والتعارف بين أبناء البلدين المختلفين أمر جدير بالتقدير والثناء.

أرجو أن هذا الكتاب يكون مصدرا من مصادر البحث والدراسة في موضوع التعارف بين الهند والعرب، أدعو الله تعالى للقبول، والحمد لله الأول والآخر.

محمد الرابع الحسني الندوي

(رئيس جامعة ندوة العلماء لكناؤ، الهند)

يوم الجمعة ٤/٤/١٥٢٦هـ

١٣/٥/٢٠٠٥م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن أخانا العزيز الفاضل حسيب الرحمن مجيب الندوي كان من تلاميذي النجباء أيام دراسته بندوة العلماء، لكناؤ الهند، بل كان ممن يعز وجود أمثالهم في هذا الزمن من الناحية العلمية والأدبية والثقافية، متفوقا في كل المجالات، سواء كانت تتعلق بالدراسة أو الأنشطة الثقافية والأدبية الأخرى. و مع ما كان أودعه الله سبحانه وتعالى فيه من الصلاحيات والمواهب العلمية والدقيقة، وما يتمتع به من العمق والإتقان في الفنون المختلفة كانت حياته خير نموذج للسلوك النبيل والأخلاق العالية ومصداقا كاملا لمعنى الكلمة لكلام الصادق المصدوق ﷺ "شاب نشأ في طاعة الله".

التحق الأخ حسيب الرحمن مجيب الندوي بعد تخرجه من دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ بالجامعات العصرية في الهند للاستزادة العلمية واجتاز اختبارات الدراسات العليا والإنجليزية هناك بدرجة الامتياز، ومما يجدر بالذكر أن أخانا العزيز قد وفقه الله سبحانه وتعالى منذ فترة دراسته للقيام بأعمال الترجمة للأعمال العلمية والأدبية والكتب والمقالات من وإلى اللغات العربية والإنجليزية والأردية بكل نجاح، وعلى مستوى عال حيث تلقت تلك الجهود العلمية القبول لدى الخاصة والعامة، واستفادت منها دنيا العلم والثقافة، فلله

الحمد والمنة. ولا أبالغ إذا قلت إن أخانا العزيز يتمتع بمقدرة كاملة وإتقان وبراعة في مجال الترجمة، بأسلوب علمي رصين جذاب لا تشم فيه رائحة الترجمة، وقد شهد له بذلك كبار الكتاب والمعنيين بأمور الترجمة والمهرة في هذا الفن في أشهر جامعات الهند، وأشادوا بأسلوبه الرصين، واختياره اللغة الفصيحة ذات الطابع العلمي والأدبي حسب ما تقتضيه الحاجة ويتطلب الجهد العلمي. وخير دليل على ذلك أن معهد الدرسات الموضوعية في دلهي (مؤسسة علمية وأدبية عالمية) قد استفاد من جهوده في مجال الترجمة.

وإنني بهذه المناسبة لأشعر بكل معاني البهجة والسرور بأن الأخ الفاضل قام بتعريب الكتاب «العلاقات بين العرب والهند» الشهير الذائع الصيت في الأوساط العلمية والأدبية لمؤلفه المحقق الباحث النقاد العلامة الشيخ السيد سليمان الندوي رحمه الله وذلك بأسلوب عربي جميل يجذب قلوب القراء ويستميل أفئدة المتعطشين للعلم والمعرفة والباحثين عن التحقيقات النادرة والتحف العلمية القيمة.

هذا وقد اطلعت على جميع محتويات الكتاب فوجدت أن الأخ قد بذل جهدا مشكورا في نقل المادة إلى اللغة العربية بكل أمانة علمية، مراعيا في ذلك كل المتطلبات العلمية اللازمة، كما أنه سلك مسلك التحقيق وقام بكتابة تعليقات علمية مفيدة مهمة بمراجعة المصادر الحديثة، حسب ما دعت إليه الحاجة، واقتضى الأمر، الأمر الذي زاد الكتاب روعة وبهاء، وقيمة علمية ومكانة ثقافية عالية، وهكذا جاء هذا الجهد العلمي المبارك في صورة رائقة وأسلوب جميل رشيق وقالب حديث. و لي وطيد الأمل في أنه سيتلقى قبولا في

الأوساط العلمية العربية ويكون بمثابة سفير بين العالم العربي وشبه القارة الهندية.

أدعو الله عز وجل أن يعمم نفع هذه الهدية العلمية المباركة ويجزي المؤلف والمترجم خير الجزاء ويجزل مثوبتهما في الدنيا والآخرة.

كتبه/ نذر الحفيظ الندوي الأزهري

وكيل كلية اللغة العربية وآدابها بندوة العلماء لكناؤ

مدير المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي

محتويات الكتاب ـ الصلات بين العرب والهند

الباب الأول
العلاقات بين العرب والهند

بداية العلاقات العربية الهندية والسياح العرب

إن كلا من بلاد الهند و شبه الجزيرة العربية يعتبر من الأمكنة المقدسة لشعبين عظيمين من شعوب العالم، وكل منهما يعتبر مقدسا ومحترما عند أهله. وقد دار الخلاف كثيرا حول من هم سكان الهند الأصليون؟ ففي الوقت الذي يدعي فيه الآريون بأحقيتهم على الهند، توجد فيه للعرب أيضا دعوى قديمة؟ يمكن أن يكون قد مضى عدة آلاف من السنين منذ أن دخل الآريون منطقة البنجاب من آسيا الوسطى وانتشروا بين نهري جمنا والكنغ، ولكن العرب يدعون أن علاقاتهم بالهند لا تمتد فقط لعدة آلاف من السنين الماضية بل هي قائمة منذ بدء العالم وأن الهند بيت أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام.

فقد وردت روايات عديدة فيما رواه المحدثون والمفسرون عن قصة آدم عليه السلام في تفسير بعض آيات القرآن الكريم تدل على أن أبانا آدم عليه السلام عندما نزل من الجنة السماوية فإنه نزل على هذه الجنة الأرضية التي سميت بالهند، وخطا خطواته الأولى على أرض سرانديب(سريلانكا الحالية) حيث لا يزال أثر قدمه عليه السلام موجودا ظاهرا على أحد جبالها. وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم [1] أن الأرض التي نزل عليها آدم عليه السلام تسمى "دحناء". وهل يمكن أن نقول إن دحناء هي تعريب دكهنا باللغة

(١) توجد هذه الرواية وما بعدها من الروايات الأخرى في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١/ ٥٥، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، و أوردها الحافظ ابن كثير في ١/ ٨١ من تفسيره، كما ينبغي الرجوع إلى الباب الأول من سبحة المرجان في آثار هندوستان.

الهندية وهو اسم مشهور لجزء جنوبي من بلاد الهند؟ وبما أن هذه المنطقة الجنوبية ذاتها كانت تصدر أنواعا متعددة من العطور والتوابل إلى البلدان العربية التي كانت توصلها بالتالي إلى جميع أنحاء العالم، فإنهم يرون أن هذه الأغراض هي من بقايا التحائف التي نزل بها أبونا آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة. ومن هذه التحف بالإضافة إلى التمر المجفف، الليمون والموز، اللذان لا يوجدان إلا في الهند، كما تشير رواية أخرى إلى أن الجوافة هي الأخرى كانت من ثمار الجنة وهي موجودة في الهند.

ووردت رواية رواها الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: فجرت أربعة أنهار من الجنة: الفرات والنيل وسيحان وجيحان[1]، أما النيل فهو نهر مصر الذي تقوم عليه الزراعة المصرية وكذلك نهر الفرات بالنسبة للعراق في خضرائها وزراعتها، وأما نهر جيحان فهو نهر تركستان وأهميته بالنسبة لتركستان تماثل أهمية نهر الفرات للعراق ونهر النيل لمصر. وأما بالنسبة لنهر سيحان فيقال إنه اسم نهر الهند. فهل يجوز أن نعتبر هذا النهر الرابع الجاري من الجنة هو نهر الكنغ؟ وقد ذهب بعض الناس إلى أنه نهر السند.

وقد خصص الأستاذ السيد غلام علي آزاد البلكرامي[2] عدة صفحات من

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم ٧٥٣٥ في ٢/ ٤٤٠، وأخرجه مسلم في صحيحه، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة برقم ٢٨٣٩ في ٤/ ٢١٨٣، بلفظ "سيحان وجيحان والفرات والنيل، كل من أنهار الجنة".

(٢) وهو السيد غلام علي آزاد بن السيد نوح الحسني نسبا، الواسطي حسبا، البلكرامي مولدا ومنشأ، والحنفي مذهبا، الجشتي طريقة، الملقب: بحسان الهند، ذكر لنفسه الشريفة ترجمة حافلة بالعربية والفارسية، في غالب كتبه. فقد ولد في الخامس والعشرين من صفر، يوم الأحد، سنة ١١١٦، بمحروسة بلكرام، وأتم تحصيل الكتب الدرسية ـ من البداية إلى النهاية ـ =

كتابه " سبحة المرجان في آثار هندوستان" لبيان هذه الفضائل وذهب فيها إلى حد القول بأنه لما أن آدم عليه الصلاة والسلام كان حل بأرض الهند أولا وبها

= على السيد: طفيل محمد؛ وأخذ اللغة، والسير، وسند الحديث المسلسل بالأولية، وحديث الأسودين، وإجازة أكثر كتب الحديث، والشعر العربي، والفارسي، عن جده: القريب من جهة الأم السيد: عبد الجليل البلكرامي؛ والعروض، والقوافي، عن خاله: السيد محمد؛ وبايع السيد: لطف الله البلكرامي، المتوفى سنة ١١٤٣، ورحل إلى البيت العتيق، وللذلك قصة عريضة طويلة، ذكرها في (سبحة المرجان)، و (تسلية الفؤاد)، وغيرهما، بعبارة أحلى من العسل المصفى، ومر في هذه الرحلة على بلدة بهوبال المحمية، وقرأ بالمدينة المنورة صحيح البخاري على الشيخ: محمد حياة السندي، وأخذ عنه إجازة الصحاح الستة، وسائر مقروءاته؛ وصحب الشيخ: عبد الوهاب الطنطاوي، المصري، المتوفى سنة ١١٥٧؛ وأخذ عنه فوائد جمة، وعرض عليه تخلصه آزاد، فقال: أنت من عتقاء الله تعالى، فاستبشر بهذه الكلمة، وأرّخ لحجه بلفظ: عمل (٣/ ٢٥١) أعظم. وله مصنفات: جليلة، ممتعة، مقبولة، منها: (ضوء الدراري، شرح صحيح البخاري) إلى آخر كتاب الزكاة، وقفت عليه، وذكرت أوله في كتابي: (الحطة، بذكر الصحاح الستة)، و (تسلية الفؤاد)، و (سبحة (٣/ ٢٥٢) المرجان)، و (شفاء العليل) في المؤاخذات على المتنبي في ديوانه، و (غزلان الهند)، و (سند السعادة)، و (سرو آزاد)، وخزانته عامرة، ويده بيضاء، و (روضة الأولياء)، و (مآثر الكرام)، و (تاريخ بلكرام)، ورسائل أخر، ودیوانات؛ وما ظهر في الهند قبله من يكون له ديوان عربي، ومن يكون له عشر عربي على هذه الحالة، وقرر نصاب القصيدة أحدا وعشرين بيتا، إلى أحد وثلاثين، وهي الدرجة الوسطى التي تريح الأسماع، ولا تمل الطباع؛ وجملة أشعاره في الدواوين: ثلاثة آلاف، وأرسلها إلى بعض الفضلاء بالمدينة المنورة، فعرضها على الروضة الخضراء، وأوصلها إلى داخل شباك القبة الغراء؛ والأمثلة المترشحة من قلمه في كتاب (سبحة المرجان) زائدة على ثلاثين ألف. وله الدواوين السبعة بالعربية، تغزل فيها، وأكثر من مدحه ـ ﷺ ـ. وله: (مظهر البركات) في البحر الفارسي، واللسان العربي، على وزن المثنوي، أجاد فيه كل الإجادة، وقد ذكرت ترجمته أيضا في كتاب: (إتحاف النبلاء)، وأوردت طرفا صالحا من أشعاره الغراء. وله: ثلاثة ديوان أخر، غالبها مدح النبي ـ ﷺ ـ، ولا يعرف لأحد من علماء الهند، من يكون له الشعر العربي بهذه الكثرة والمثابة، وأعطي لقب: حسان الهند، من جهة الأستاذ. وتوفي في سنة ١١٩٤، في بلدة أورنك آباد، ودفن بالموضع الذي يعرف: بالروضة.

نزل عليه الوحي فينبغي أن نعتبر هذه البلاد مهبط أول وحي إلهي، وبما أن النور المحمدي كان قد ألقي في صلب آدم عليه السلام فإنه يدل على ظهور محمد ﷺ على هذه الأرض نفسها أولا[1] كما ورد في بعض الروايات.

وبالرغم من أن جميع هذه الروايات ضعيفة في ميزان علم الحديث إلا أنها تدل دلالة واضحة على أن ما يفهم بشكل عام من أن علاقة المسلمين بالهند ما بدأت إلا بعد فتوحات السلطان محمود الغزنوي[2] فيها، وأنهم استوطنوها فيما بعد هو خطأ فادح، بل الواقع أن المسلمين لا يعتبرون الهند بلدهم المفتوح بل وطنهم الموروث الأبوي، وأن الذين لا يعتبرون كذا، يجب عليهم أن يعتبروها كذلك. هذا مما كان قبل التاريخ المسجل. وأما إذا نظرنا من الناحية التاريخية فيتبين لنا أن المسلمين كانوا قد دخلوا الهند قبل أن يدخل الغزنوي بمئات السنين، وكانت لهم مستوطنات في أمكنة مختلفة متعددة.

---

(١) سبحة المرجان في آثار هندوستان ص ١/٥٧.

(٢) وهو محمود الغزنوي " (٣٨٨-٤٢١ هـ ـ ٩٩٨-١٠٣٠ م) الذي بلغت الدولة الغزنوية في عهده ذروة ازدهارها، فألغى اسم السامانيين من الخطبة في مملكته، وخطب للخليفة العباسي القادر بالله، الذي أنعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة، وهو بمثابة تقليد وسمي من الخلافة، كما حصل أيضا على لقب "الغازي " وهو من أوائل الألقاب في الإسلام. هذا إلى جانب لقب سلطان الذي يعتبر "محمود الغزنوي " أول من تلقب به من الغزنويين بعد أن كانوا يتلقبون بلقب أمير.

ويؤثر عن "السلطان محمود الغزنوي " أنه غزا بلاد الهند أكثر من اثني عشرة مرة مدفوعا، في ذلك بعامل الجهاد الديني والرغبة في نشر الإسلام بين الهنود الوثنيين. واستطاع بذلك أن يبسط نفوذه إلى ما وراء كشمير والبنجاب ويحطم أصنامهم، وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية قاعدتها مدينة لاهور، ويحكمها ولاة مسلمون من قبل الغزنوية، وهكذا تعتبر الدولة الغزنوية أول دولة إسلامية في الهند.

إن أنبل المسلمين وأشرفهم نسبا بين العرب والعجم من ينتسب إلى آل بيت النبي ﷺ، ويسمى بالأشراف، ومن المعلوم أن معظمهم ينحدرون من ذرية الإمام زين العابدين[1] بن علي بن الحسين ﷺ، ولم تكن أم زين العابدين عربية.

يدعي الإيرانيون أنها كانت إيرانية ومن السلالة الملوكية، إلا أن بعض المؤرخين ذهبوا إلى أنها كانت من السند[2]. وإذا كان هذا القول الأخير صحيحا، فلا مانع من أن نسلم بأن الهند كان لها أيضا دور في إنجاب أسرة أكثر شرفا وقداسة عند المسلمين والعرب بعد مجيء الإسلام كما يكون من الصحيح القول بأن الأشراف من آل زين العابدين نصف الهنود (أشباه الهنود) منذ الأبد وإن لم يكن المسلمون الآخرون كذلك.

دخل المسلمون الأفغان والأتراك في شمالي الهند في بداية القرن الرابع الهجري، عندما فتح السلطان محمود الغزنوي مدينة لاهور عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، إلا أن مناطق المليبار والمعبر في جنوبي الهند إلى منطقة مملكة الكجرات لم تخضع لسيطرة المسلمين حتى بعد مئات السنين منذ ذلك الغزو،

---

(١) وهو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ أجمعين، المعروف بزين العابدين ويقال له علي الأصغر وليس للحسين ﷺ عقب إلا من ولد زين العابدين هذا، وهو أحد الأئمة الإثني عشر ومن سادات التابعين، قال الزهري عنه ما رأيت قرشيا أفضل منه» (ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢٦٦-٢٦٧/ ٣).

(٢) ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ٣/ ٢٦٩ بتحقيق الدكتور إحسان عبد القدوس، حكى ابن قتيبة في كتاب المعارف أن أم زين العابدين كانت سندية يقال لها سلافة ويقال غزالة والله أعلم بالصواب»، و ابن قتيبة في كتاب المعارف، ص ٩٥«أما زيد بن على بن الحسين فكان يكنى أبا الحسن وأمه سندية».

لأن السلطان علاء الدين الخلجي[1] فتح مملكة الكجرات وأخضعها لمملكة دهلي عام ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م. ولم تستطع جيوش السلطان علاء الدين الخلجي التوغل نحو مدراس حتى سواحل المليبار والمعبر في ذلك الوقت إلا مرة واحدة، ولم يبق ذلك الانتصار هو الآخر مدة طويلة، كما أن أسوار بيجابور قامت عقبة أمام تقدم الأفغان والمغول لقرون عديدة فيما بعد.

واصلت السلطنة البهمنية[2] حربها مع.............................

(١) أحد سلاطين الأسرة الخلجية و الخلجيون أصلهم من الترك الأفغانيين، وكانوا أسرة محاربة، ظهر أمرها من أيام الغزنويين، ويرى بعض المؤرخين أنهم ينتسبون إلى "قليج خان" أحد أصهار "جنكيز خان" نزل بجبال "الغور" بعد هزيمة "خوارزم شاه"، وحرف اسمه بعد ذلك إلى "خلج"، وعرف ورثته بـ "الخلجيون"، واندمجوا في الحياة في "أفغانستان"، واعتنقوا الإسلام في عهد سلاطين الدولة الغزنوية، وضم الجيش الغزنوي فرقًا منهم أسهمت في فتح الهند.

وظهر أمرهم منذ أيام الدولة الغورية، وازداد نفوذهم في عهد المماليك، وتولوا حكم إقليم "البنغال"، ونهضوا بالوظائف الكبرى في الدولة.

بعد وفاة "غياث الدين بلبن" تولى حفيده "كيقباد" الحكم، وكان شابًا لاهيًا منصرفًا عن إدارة الدولة، وهو ما أطمع الخلجيين في الإطاحة بنظام الحكم في "دلهي"، فجمعوا أمرهم تحت قيادة زعيمهم "فيروز"، ودخلوا "دلهي"، وأسقطوا حكم بيت "غياث الدين بلبن"، وأعلن فيروز نفسه سلطانًا، ولقب نفسه بـ "جلال الدين"، وذلك في الثاني من جمادى الآخرة ٦٨٩هـ = ١٣ من يونيو ١٢٩٠م.

(٢) البهمانيون، آل بهماني: سلالة أفغانية حكمت في الدكن (أو دكان، جنوبي الهند) مابين ١٣٤٧-١٥٢٦ م. المقر: كلبركا (كُلبَرگا) كان مؤسس هذه السلطنة البهمنية حسن جانغو بهماني (١٣٤٧-١٣٥٨ م) والذي تلقب بظفر. بدأ ظفر خان عهده بإحكام السيطرة على المناطق شمال الدكن (كلبركا، ورنجال وبيدار). من بين خلفاء المؤسس الأول برز محمد شاه الثاني (١٤٦٣-١٤٨٢ م) والذي استطاع أن يستحوذ على "أوريسة" عام ١٤٧١ م ومن ثمة التوسع إلى الجنوب. أصبحت حدود المملكة تمتد على كامل منطقة الدكن، من طرف الساحل الشرقي إلى الطرف الغربي.
=

مملكة بيجابور[1] طوال أيامها إلا أنها لم تستطع أن تتجاوز منطقة كرشنا بأي شكل من الأشكال. ولا شك أن الشرارات الخمس التي ارتفعت من رماد المملكة البهمنية استطاعت بعد جهد جهيد أن تقضي على مملكة بيجابور عام٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م، وحولتها أثرا بعد عين، ولكن بالرغم من ذلك بقيت هناك دويلات هندوسية صغيرة حتى عصر السلطان عالمكير[2]. دخل الغزاة المسلمون في مناطق أركات وميسور ومدراس، ولكن لم يستتب الأمر لأي واحد منهم فيها لمدة طويلة.

= مع نهاية القرن السادس عشر (ح ١٥٠٠ م) أصبحت المملكة مقسمة إلى مناطق على رأس كل منها حاكم خاص. بدأ نفوذ هؤلاء الحكام يتزايد بعدما فيما كان نفوذ أسرة البهمانيين يتقلص. انتهى الأمر إلى استقل كل حاكم بمنطقته. تأسست بعد ذلك ثمان إمارات مستقلة جديدة (أحمد نكار، بيرار، بيدار، بيجابور - بيجاپور، كلكنده...). أما دولة البهمانيين فقد انقطعت نهائيا مع حلول عام ١٥٢٦ م.

(١) كان سلاطين مملكة بيجابور سلالة (؟)من السلاطين، حكموا في الدكن (جنوبي الهند)، سنوات١٤٩٠-١٦٨٦م.وكان المقر: بيجابور (بيجاپور). ومع سقوط دولة البهمانيين (آل بهماني)، أعلن يوسف عادل شاه (١٤٩٠-١٥١٠ م)، والذي كان من قادة السلطان "بهماني محمد الثاني شاه". أعلن عادل شاه استقلاله سنة ١٤٩٠ م. تأسست بذلك إمارة مستقلة في منطقة الدكن، عرفت باسم "عادلشاهات". عرفت الدولة عهدا من الاستقرار السياسي، أثناء فترة حكم خلفاء عادل شاه. بلغت دولة العادلشاهات أوجها الثقافي أثناء عهد إبراهيم الثاني (١٥٨٠-١٦٢٧ م)، ثم محمد (١٦٢٧-١٦٥٦ م)، تم إنجاز العديد من البناءات المعمارية. سنة ١٦٨٦ م، قام السلطان المغولي أورنجزب بغزو الدكن، فقضى على دولة العادلشاهات، ثم ضم أراضيهم إلى مملكة المغول الهندية.

المصدر:

- الفنون والهندسة الإسلامية (Islam: Kunst und Architektur) لـ"ماركوس هاتشتاين" (Markus Hattstein)

(٢) ولد أورنجزيب عالمكير في بلدة "دوحد" في كجرات بالهند في (١٥ من ذي القعدة ١٠٢٨هـ=

وقصدي من وراء هذه المقارنة التي ترونها في الصفحات التالية هو أن أبين ما هي المناطق التي واجهت الهجمات الإسلامية المتتالية من جبال خيبر مباشرة وغير مباشرة، ومتى كان ذلك؟ وما هي الفترات التاريخية والمناطق الهندية التي أتحدث عنها في هذا المقال.

= = ٢٤ من أكتوبر ١٦١٩م)، ونشأ في بيت جاه وسلطان، وقد عني شاه جهان بتربية ابنه تربية إسلامية على يد كبار العلماء، حتى برع في كثير من العلوم الإسلامية وتبحر فيها، وأتقن الفارسية والعربية والتركية، وشب متمسكًا بالإسلام حريصًا على الالتزام به، غيورًا عليه، وصاحب تلك الروح الفتية خبرة إدارية وعسكرية اكتسبها من خوضه المعارك مع أبيه، وتوليه شئون بعض الولايات، فلما تولى الحكم كان قد نضجت خبراته واستوت ملكاته الإدارية، فظهر أثر ذلك على الفور، وقدم لدولته على طول عمره المديد ما يشهد على ذلك من قوة وإخلاص وعزيمة وصبر، وتطلع إلى المعالي والرقي.

وأظهر أورنجزيب تمسكه بالإسلام والتزامه بشرائعه، فأبطل الاحتفال بالأعياد الوثنية مثل عيد النيروز، ومنع عادة تقبيل الأرض بين يديه والانحناء له، كما منع دخول الخمر إلى بلاده، وصرف أهل الموسيقى والغناء عن بلاطه، وأمر بتعمير المساجد ومدها بالعلماء والوعاظ، وأجرى الرواتب عليهم وعلى طلابهم، وعني بإقامة نظام الحسبة ودعمه بما يكفل قيامه بوظيفته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت هذه السياسة ضرورية لإنقاذ الدولة مما أصابها من عوامل الضعف والتفكك، وإصلاح أحوال المسلمين بعد أن ساد بينهم منذ عهد السلطان "أكبر" تهاون شديد في أمور العقيدة.

وكان يحيا حياة زاهدة متقشفة، فقضى على الأبهة والفخامة التي كانت تحيط بالملك في قصره، وألغى المبالغات المخالفة للشرع في استقبال السلطان وتحيته، واكتفى بتحية الإسلام، وبلغ من تقواه أنه حين حضرته الوفاة أوصى بأن يُدفن في أقرب مقابر للمسلمين وألا يعدو ثمن كفنه خمس روبيات، وتوفي السلطان في (٢٨ من ذي القعدة ١١١٨ هـ = ٢٠ من فبراير ١٧٠٧م) بعد أن حكم ٥٢ سنة، تاركًا ذكرى عطرة لحاكم مسلم لم تشغله دنياه وحروبه المتوالية عن دينه وآخرته، فكان إمبراطورًا لم تشهد الهند مثله في اتساع ملكه وصلاح خلقه، وحسن سيرته وسريرته.

منطقة البنجاب	٤١٤هـ/ ١٠٢٣م
منطقة السند	٥٨٢هـ/ ١١٨٦م
مناطق دهلي وقنوج وأوده وبنارس	٥٨٩هـ/ ١١٩٣م
بيهار والبنغال	٥٩٥_٥٩٣/ ٩٩_١١٩م
دكن (ديوكير)	٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م
مملكة الكجرات	٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م
مهاراشترا ومدراس	٧١٢هـ/ ١٣١٢م

وذلك لأن نتكلم عن كل منطقة من هذه المناطق في شرح وتوضيح العلاقات بين العرب والهنود قبل خضوعها للشعوب الغازية من جبال خيبر.

إن الهند وجزيرة العرب من بلدان العالم اللتين يمكن اعتبارهما دولتين متجاورتين، حيث لا يحول بينهما إلا البحر الذي تطفح على سطحه شوارع عريضة وطويلة تربط إحداهما بالأخرى. وهذان البلدان يشكلان ساحلين متوازيين للبحر، فإذا كان الساحل الأول لهذا البحر المتماوج يمسك بطرف أرض حرم العرب، فإن الساحل الآخر يتمسح قدم آرياورت الهندوس.

إن الدول الساحلية بطبيعتها تشكل قاعدة تجارية، وهذه هي العلاقة الأولى التي ربطت بين الشعبين، حيث كان التجار العرب يردون على سواحل الهند منذ آلاف السنين، يحملون منتجاتها ومحاصيلها مرورا ببلاد الشام ومصر إلى أوربا ويرجعون بمنتجاتها إلى الهند والجزر الهندية والصين واليابان.

وكان العرب يمرون من خلال مدن مصر والشام برا على سواحل البحر الأحمر عبر الحجاز إلى اليمن ثم كان بعضهم يركبون السفن الشراعية إلى أفريقيا والحبشة بينما كان بعضهم الآخرون يمرون بسواحل البحر وهم يجتازون

حضرموت وعمان والبحرين والعراق مرورا بالسواحل الإيرانية من خليج فارس، فكانوا إما ينزلون على ميناء تيز الواقع في بلوجستان أو كانوا يجتازونه إلى ميناء السند (الديبل) الواقع في كراتشي، ومنها كانوا يتقدمون إلى ميناء كاتهياوار ومملكة الكجرات(كنبايه)الواقع في تهانه(بومبائي) ثم يواصلون سيرهم عن طريق البحر إلى قاليقوط وراس كوماري، أو كانوا ينزلون على سواحل مدراس أحيانا، أو كانوا يمرون بسرانديب وأندمان إلى موانئ مدراس المختلفة، ومنها إلى خليج البنغال ثم بعد التعامل في بعض الموانئ البنغالية يركبون عبر برهما وسيام إلى الصين ويعودون بنفس الطرق.

وخلاصة القول أن هذه الخريطة تدل دلالة واضحة على أن سفن العرب كانت تتردد على جميع مدن الهند البحرية وجزرها بصفة مستمرة، وكانت رحلاتهم قائمة باستمرار حتى قبل أن تسجلها ذاكرة التاريخ.

إن أول شعب في العالم اشتغل في التجارة البحرية يسمى "الفينقيين" (Phoenician). وهذه الكلمة يونانية في أصلها. وقد سمي ذلك الشعب بـ "كنعان" باللغة العبرية والأرامية أيضا، وسماهم العرب (إرم). وهذا هو الاسم الذي يوجد في القرآن الكريم حيث جاء (عاد إرم ذات العماد) ومنها انتقل إلى اللغة الأردية فيقال: (جنة إرم).

من كان هذا الشعب؟ يذهب المحققون إلى أنهم العرب الذين كانوا غادروا ساحل البحرين واستوطنوا على ساحل الشام، فكأن البحرين كانت ميناؤهم الشرقي في الشرق و(ثائر الشام)ميناؤهم الغربي على ساحل بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) في الشام، والذي كانوا يرحلون منه إلى مدن أوربا وسواحل شمال أفريقيا، وفي جانب آخر، كانوا يرحلون إلى إيران والهند والصين في الشرق.

وعلى يد هذا الشعب نشأت الحضارة والمدنية على أرض اليونان وتأسست كارتهج في شمال أفريقيا، إلا أن الآثار التي تركها هذا الشعب في بلدان الشرق لم تنل من التقدير والاهتمام ما تستحقها.

معلوم لدى الجميع أن جميع الكتابات الهندية بل جميع الكتابات الآرية تبدأ من اليسار ولكن من المستغرب أن الكتابات الهندية الأولية كانت تبدأ من اليمين مثل الكتابات السامية، وبالإضافة إلى ذلك، كانت طريقة كتابة الأعداد هي الأخرى ربما جاءت من قبل هذا الشعب التاجر نفسه، فلقد ذكر صاحب المقال عن اللغة السنسكريتية في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشرة) حول الكتابات الهندية الأولية كما يلي:

"إن بداية الحروف السنسكريتية يكتنفها الظنون والغموض، إن أقدم نماذج للكتابات الهندية هي تلك الآثار التي وجدت منقوشة على الصخر، وهي أحكام دينية باللغة البالية (اللغة التي كانت تستخدم للكتابات الدينية البوذية الجنوبية) قام بنقشها على الصخر الإمبراطور أشوك[1] من السلالة المورية عام ٢٠١-٢٥٣ قبل الميلاد، وهي مختلفة تماما عن الحروف الهجائية المستخدمة في الآثار التي تم اكتشافها في شمالي الهند، وعلى الحدود الشمالية الغربية، وفي

(١) ولد الإمبراطور الهندي العظيم المعروف بأشوك عام ٢٦٥ قبل الميلاد وكان حفيد جندراغوبت موريا وحكم إمبراطورية كانت تغطي ثلثي شبه القارة الهندية وكان أشهر ملوك السلالة المورية ومن أعظم سلاطين الهند. وكانت عاصمته في مدينة باتليترا وهي مدينة بتنا حاليا بولاية بهار الهندية، حيث عاش بوذا الذي نسبت إليه الديانة البوذية، وكان الإمبراطور رجلا مغوارا وسلطانا جيدا، وتم تتويجه بالولاية عام ٢٦٨ قبل الميلاد وإن كان أصغر سنا بين إخوانه لأنه كان محبوبا لدى والده ومحترما عند رعيته ووزرائه وحكم البلاد من ٢٣٢ قبل الميلاد إلى ٢٧٣ ق م.

ضواحي بيشاور، وعلى الساحل الشرقي في مملكة الكجرات الممتد إلى جرنار، وفي مديرية كتاك الممتدة إلى غاده ودهولي، وفي اللوحات التي وجدت على قرب من شهباز غدهي والمنصورة في أقصى الغرب، لأنها تقرأ من اليمين إلى اليسار، وهي تسمى (البالية الآرية) عادة، وقد استخدمت هذه الحروف في العملات اليونانية والإيرانية أيضا....وأما الحروف الأخرى التي تقرأ من اليسار إلى اليمين فهي تسمى (البالية الهندية). فالحروف السابقة الذكر التي تسمى الخروشتية أيضا والتي هي كما يظهر مأخوذة من لغة سامية أو آرامية لم تترك أي أثر في الكتابات الهندية اللاحقة. وفي جانب آخر، إن البالية الهندية التي أخذت منها الحروف الهندية الحالية تدور حول أصلها شبهات كثيرة. وبالرغم من أنها كانت قد تطورت تطورا كبيرا في عصر الإمبراطور أشوكا، وبدأ استخدامها بشكل منعش في الأعمال العلمية إلا أن تشابه بعض حروفها بالحروف الفينيقية (التي كانت مأخوذة من الخطوط الهيروغليفية المصرية) يشير إشارة إلى أنها هي الأخرى ربما كانت سامية الأصل.

وربما لا نقدر على الكشف عن أي سبب آخر في ذلك الوقت لانتشار هذه الخطوط إلا أن البروفيسور بولر تقدم بنظرية مفادها أن التجار العراقيين روجوا هذه الخطوط هنا خلال القرن الثامن قبل الميلاد. إن هذه الحروف قد استكملت عناصرها في اللوحات التي تعود إلى العصر الموري والآندهري وانتشرت بشكل كبير لا يترك لنا مجالا للتردد في التسليم بأن فن الكتابة كان له رواج كبير في الهند، وكان يستخدم لمختلف الأغراض والأهداف قبل الإمبراطور أشوكا بكثير. وأما أن الأدبيات المتواجدة في ذلك العصر لا تذكر فن الكتابة فلعل السبب يرجع إلى أن البراهمة لم يكونوا يستحسنون تقييد مؤلفاتهم المقدسة بفن الكتابة.

وأما قضية الأرقام في الهند فإن الطريقة التي كانت رائجة في اللوحات الخورشتية في السنوات الأولى من التقويم الميلادي هي أن الأعداد الثلاثة الأولى كانت تكتب بالخطوط، وكان العدد الرابع كالصليب المائل، وكان الأعداد من الخمسة إلى التسعة تكتب نحو ٤(+)١ و ٤(+)٤(+)١ وما إلى ذلك. وأما العشرة والعشرون والمئة فلها أرقام خاصة. وأما العقود الأخرى فكانت تكتب على نحو ٥٠ = ٢٠+٢٠+١٠. و لقد ثبت تاريخيا بالنسبة لهذه الطريقة أنها سامية وربما آرامية. ولقد استخدمت أرقام من النوع الآخر في اللوحات البرهمنية حتى القرن السادس للميلاد، حيث استخدمت خطوط مائلة للواحد إلى الثلاثة، ثم كان لكل من الأربعة إلى التسعة من الوحدات، والعشرة والتسعين والمائة والألف علامات خاصة، وهذه الطريقة يحتمل جدا أن تكون مستوردة من مصر وأن الكسور والأعشار التي اكتشفت في مملكة الكجرات أولا فربما تكون طريقتها من اختراعات المنجمين والرياضيين هنا"[١].

ولكن أغرب من ذلك أنه كان هناك أناس في الهند يعرفون اللغة العربية حتى في عصر المهابهارتا[٢]، بالرغم من أن هذا يستعصي على اليقين إلا أن عالما هندوسيا كبيرا يؤمن بهذا، فلا يمكن لنا أن ننكره. فقد كتب سوامي ديانند

(١) الموسوعة البريطانية مقال السنسكرتية.

(٢) إن قصة الملحمة المهابهارتا عبارة عن صراع سلالي للحصول على تاج عرش هستنابور مملكة قبيلة كورو، وكانت الممالك المجاورة لها مباشرة متمركزة في دوآب، وهي عوالي منطقة نهري الكنغ، والجمنا، شمالي مدينة دهلي الجديدة حاليا، وقد دار الصراع بين بني الأعمام على السلطة وكانوا يعرفون بالكورو وهم كبار الأسرة والباندو هم صغار الأسرة، و انتهى الصراع بينهم إلى الحرب الكبرى التي وقعت في منطقة كروكشترا وانتصر فيها الباندو؛

جي[١] (صاحب ساتهيارث براكاش وهو نور الحق) في الباب الحادي عشر، في الفصل ١٤٧ أنه "عندما قام "الكورو" ببناء مبنى من مادة لاكه و حاولوا إحراق الباندو فيه أخبر "ودرجي يدهشتر" باللغة العربية فجاوبه "يدهشتر" بنفس اللغة". فإذا كان هذا صحيحا فما أقدم العلاقة بين العرب والهنود!

كان هناك سبب آخر لنشأة العلاقة بين الهنود والعرب وهو أن الإمبراطور الفارسي كان مسيطرا على بلوجستان والسند في أغلب الأحيان، ولذا كان عدد من سرايا القبائل المحاربة في السند مجندة في الجيش الإيراني، ولقد ذكر الكتاب العرب قبيلتين من هذه القبائل وهما الزط[٢] والميد، وكانتا شعبين مشهورين من السند. ولقد ورد في حديث نبوي رواه ابن مسعود ﷺ أنه رأى

(١) كان سوامي ديانند منتقدا لجميع الديانات في العالم وخاصة تلك التي كانت يعتنقها المجتمع الهندوسي في أيامه، مثل الجينية والبودية والشيفاييت حيث كانت هذه المذاهب هدفا مباشرا لانتقاداته اللاذعة، وأدت انتقاداته الشديدة ضد المسلمين والسيخ والمسيحيين إلى الاضطراب العنيف في البلاد إلى أن أجبرت الحكومة البريطانية آنذاك في الهند الناشر على حذف بعض الملاحظات من الكتاب وخاصة مما كان يتعلق بالإسلام.

(٢) وتجمع المصادر العربية على أن الزط قوم من بلاد الهند وبالتحديد من حوض نهر السند، ويعتقد أن (زط) عرّبت عن أصلها (جت) وهي باللغة الهندية اسم هؤلاء القوم الذين كانوا يعرفون بـ(زنوج الهند) بسبب بشرتهم السمراء، وكانت لهم حلاقة وأزياء خاصة.
ويبدو أن العرب عرفوا الزط قبل الإسلام إذ اختلطت قبيلة تميم بهم وجاورتهم قبيلة عبدالقيس في جنوب العراق، وبعد مجيء الإسلام وانتشاره ومن ثم وفاة النبي ﷺ قام بعض العرب بما عرف بـ(حركة الردّة)، وقد ارتدّ في بني قيس بن ثعلبة الحطم بن ضبيعة ومن اتبعه من بكر بن وائل، واستمال إليه الزط والسيابجة في جنوب العراق، وأثناء وقعة الجمل برزت فرقة الزط والسيابجة كإحدى الفرق الموالية للإمام علي كرّم الله وجهه، وكانت بقيادة دنور بن علي، واستغلهم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان فدعم بهم ثغور الشام البحرية لما عرفوا به من جلد وتمرّس في القتال البحري.(منتديات أزاهير الثقافية).

مع النبي ﷺ أناسا بهيئة خاصة وأخبر أن وجوههم كانت تشابه وجوه الزط[١] مما يدل على أن العرب كانوا يعرفون الزط حتى في القرن السادس للميلاد، ولما انهزم الفرس انضم هؤلاء الزط الشجعان مسايرة للزمن إلى جيوش المسلمين بشروط، فاستقبلهم قائد المسلمين باحترام كبير وأدخلهم في قبائلهم، وهؤلاء الزط هم الذين ترك عندهم علي ﷺ خزائن البصرة يوم وقعة الجمل،[٢]" وقد كان معاوية نقل من الزط والسيابجة القدماء إلى سواحل الشام وأنطاكية بشرا، وقد كان الوليد بن عبد الملك نقل قوما من الزط إلى انطاكية وناحيتها"[٣] الساحلية لمواجهة الروم.

كلمة الهند

لم يكن لهذا البلد بمجموعه قبل أن يدخله المسلمون اسم معين موحد، بل كانت لكل مديرية من مديرياته أسماء مستقلة، وكانت المديرية تعرف في الخارج باسم عاصمتها. وعندما استولى الفرس على مديرية من مديريات هذا البلد سموا النهر الذي نسميه الآن نهر السند والذي سماه العرب (المهران) باسم (هندو). وقد كانت كل من السين والهاء تستبدل بالأخرى في اللغة الفارسية والسنسكريتية القديمتين، والأمثلة على ذلك متكاثرة، ولذلك سماه الفرس "هندو". ومن هنا عرف هذا البلد بالهند. وأما العرب الذين كانوا

(١) سنن الترمذي باب الأمثال برقم ٢٨٦١، في ج ٥/ ١٤٥ وقد وردت هذه الكلمة في حديث رواه البخاري برقم ٣٢٥٥ في ج٣/ ١٢٦٩ كما وردت في المستدرك على الصحيحين برقم ٧٥١٦ في ج٤/ ٢٤٤.

(٢) يراجع تاريخ الطبري في ج٣/ ٣٩.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ١/ ٥٩١ ذكر الأساورة.

يعرفون مدنا أخرى أيضا من هذا البلد بالإضافة إلى السند فاستمروا في تسمية السند بالسند ولكنهم دعوا المدن الأخرى من هذا البلد باسم الهند، ومن هنا انتشر هذا الاسم بأشكاله المختلفة في جميع أنحاء العالم، وتبدلت الهاء بالألف في اللغة الفرنسية فكانت "إند" و"إنديا". وأما الشعوب التي دخلت هذا البلد من طريق جبال خيبر فإنها سمته (هندوأستهان) الكلمة التي تتلفظ بالفارسية بهندوستان. ومما يبعث على الحيرة والاستغراب أن هذا الاسم (هند) أعجب العرب إعجابا كبيرا لدرجة أنهم سموا النساء عندهم بهذا الاسم، ومن هنا نرى هذا الاسم يروج في الشعر العربي رواج اسمي ليلى وشيرين في الشعر الفارسي.

هجمات العرب على الهند

وخلاصة القول أن هذه العلاقات المتعددة الأبعاد هي التي جعلت العرب بعد الإسلام يتوجهون إلى الهند، وظنوا من الواجب عليهم بعد فتح إيران أن يستولوا على مستعمرات الهند ومستوطناتها، ويجعلوها تحت أيديهم. وبالتالي تقدموا بعد مكران وبلوجستان نحو حدود السند. ومن جهة أخرى، فقد كان العرب بحاجة إلى ميناء ساحلي من الهند لحماية سفنهم التجارية.

وانطلاقا من منطق هذه الضرورة بدأت الأساطيل البحرية العربية في عهد عمر ﵁ تحوم حول السواحل الهندية للاستيلاء على ميناء مناسب لهم. وإن المكان الذي تقوم فيه اليوم مدينة بومبائي الزاهرة الزاهية كانت تقع على مقربة منه مدينة تهانه وهي لا تزال موجودة حتى اليوم وكانت ميناء صغيرا. وعلى هذا الميناء هجم العرب أول هجوم بأمر من حاكم البحرين عام ١٥ هـ/ ٦٣٦م، ثم هاجموا على البروص. وفي نفس الوقت هاجم قائد عربي آخر يسمى المغيرة

على الديبل التي كانت ميناء السند، والتي كانت على مقربة من مدينة كراتشي اليوم. وبعد عدة سنوات جاءت كتيبة بحرية في عصر سيدنا عثمان ﵁ إلى هذه المواني وعادت بعد تفقد أحوالها. ثم تم تعيين قائد عربي يشرف ويرعى هذه الأطراف بشكل منتظم على عهد علي ﵁ عام ٣٩هـ/ ٦٦٠م إلى أن قتل عام ٤٢هـ/ ٦٦٣م. ثم عين معاوية ﵁ قائدا عربيا يسمى المهلب محافظا على حدود السند، وبقي هذا المنصب في الحكومة العربية منذ ذلك الوقت.

وعندما جلس وليد بن عبد الملك على سدة الحكم في دمشق عام٨٦هـ/ ٧٠٥م، واستعمل الحجاج على العراق وإيران ومكران وبلوجستان وهي مناطق شرقية للحكومة العربية قام الحجاج بتوثيق روابطه وتعزيزها مع الهند وجزرها. كان التجار العرب غادين ورائحين إلى الهند إلا أن القراصنة كانوا يهاجمون في نفس الوقت على سفنهم التجارية من معظم سواحل الهند. وكانت سومنات وكتش حتى عصر البيروني أكبر ملاذ للقراصنة[1].

وعلى كل حال، فإن الواقع هو أنه كان هناك تجار عرب في سريلانكا يقومون بأعمال تجارية، وحينما توفوا أرسل ملك لنكا نساءهم وأطفالهم في سفينة من السفن إلى العراق، فهاجمها القراصنة في الطريق على مقربة من ميناء الديبل، وسبوا نسائهم، فاستغاثت هؤلاء النساء بالحجاج، ولما بلغ هذا الخبر الحجاج كتب إلى الملك داهر ملك السند أن يرسل هؤلاء النسوة إليه بكل سلام وأمان، إلا أن الملك اعتذر عن ذلك متذرعا بأنه من صنع القراصنة، وأنه لا يملك من أمرهم شيئا.

(١) تحقيق ما للهند للبيروني ١٤٨.

لم يقبل نائب الحاكم في العراق هذا العذر.. وفي أثناء ذلك حدثت حادثة أخرى وهي أن عددا من البغاة والمجرمين العرب فروا من مكران ولاذوا بالسند، وشكلوا هناك عصابة لهم تحت قيادة الملك داهر، مما أثار حفيظة الحجاج أيضا فأرسل جيشا مكونا من ستة آلاف جندي من شيراز بقيادة ابن أخيه محمد بن القاسم الشاب[1] إلى السند كما أرسل أفواجا إليها بإمدادات عن طريق البحر وأمدها بأفواج من إيران عن طريق البر.

وصل محمد بن القاسم إلى السند عام ٩٣ هـ/ ٧١١م، واستولى في مدة ثلاث سنوات فقط على جميع المناطق فيما بين ملتان وهي حدود كشمير الصغيرة (وكان العرب يسمون البنجاب كشمير الصغيرة) إلى كتش وإلى حدود مالوه من جهة أخرى. وحكم في جميع هذه المناطق بكل عدل وإحسان. إن الجنود الهنود الذين قاوموا المسلمين أكثر تحت قيادة الملك داهر سماهم البلاذري الذي ألف كتابه في عام ٢٥٥هـ/ ٨٥٥م بالتكاكرة، وهي جمع تاكر(وهي كلمة هندية) باللغة العربية.

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي. من كبار القادة ومن رجال الدهر في العصر المرواني. فاتح السند وواليها. هو صهر الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق. ولاه الحجاج على السند سنة ٨٩ هـ أيام الوليد بن عبد الملك فزحف إلى مكران فاستولى عليها وعلى عدة مدن وقاتله (داهر) ملك السند فقتل داهرا وانبسطت يده في البلاد فتحا وتنظيما إلى أن كان في (الملتان) فجاءته الأنباء بوفاة الحجاج ووفاة الوليد وولاية سليمان بن عبد الملك وكان سليمان شديد النقمة على الحجاج وعماله، فلما ولي الخلافة عمد إلى أقرباء الحجاج وكتابه وعماله فنكبهم وعزل محمد بن القاسم وولى مكانه يزيد بن أبي كبشة السكسكي، وأمره أن يحمل محمد بن القاسم إلى يزيد بن المهلب أمير العراق، فقبض عليه ابن أبي كبشة وأرسله إلى يزيد ابن المهلب مقيدا بالحديد، فعذبه يزيد حتى مات تحت العذاب وعمره ٤٣ سنة.
المراجع
الأعلام ٧/ ٢٢٥ ـ البلاذري ٤٢٤ ـ ٤٢٨ ـ الطبري ٥ / ٢٦٧ ـ ٦/ ٤٤٤ ، ٤٨٤ ، ٤٩٩.

توفي وليد بن عبد الملك عام ٩٦هـ/ ٧١٤م، وخلفه ابنه سليمان. وكانت بينه وبين الحجاج وأسرته وعماله عداوة شخصية شديدة، فأمر سليمان محمد بن القاسم كما أمر العاملين الآخرين الذين استعملهم الوليد بالرجوع من السند في نفس السنة، وقتله ثأرا لعداوته الشخصية. وأما قصة بنتي الملك داهر التي تذكر ضمن أسباب قتله فلا تجدر بالذكر لأنها مرفوضة ومزيفة غير أن ما يجدر بالذكر هنا هو أن محمد بن القاسم عندما قفل راجعا من السند بكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج[1]، إذ فقدوا حاكما عادلا وفاتحا كريما ونصبوا له تمثالا تخليدا لذكراه.

وعلى كل حال، تناوب على سدة الحكم عدد من الحكام فيما بعد إلى أن جاء جنيد عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م حاكما لهذه المنطقة، وكان ضابطا طموحا. فحمل من السند على كتش ثم دخل مرمد ومنها دخل ماندل ثم دهيخ وواصل مسيرته إلى أن بلغ ميناء البروص، وتقدم ضابط من ضباطه إلى مالوه ومنها إلى سميد وبهيل مال و بعد فتحها وصل إلى مملكة الكجرات ورجع منها إلى السند.

لكن هذه الفتوحات لم تكن إلا سحابة صيف، لأن بساط الحكومة العربية طوي عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠م، وحل محلهم (الأمويين) العباسيون الذين اتخذوا من بغداد مقرا لحكومتهم بدلا من الشام، فانتقلت الحكومة من دمشق إلى بغداد، وهذا التغير قرب الهند كثيرا إلى مركز الحكومة.

وفي عام ١٤٠هـ/ ٧٥٧م جاء هشام حاكما لمنطقة السند، فأرسل ضابطا يسمى عمر بن جبل مع أسطول من السفن البحرية إلى مملكة الكجرات، والذي

(١) فتوح البلدان للبلاذري ١/ ٦٩٣.

رجع خائبا بعد عدة أيام من النهب والقتل، فقام هشام بنفسه بقيادة أسطول بحري واستولى على قندهار على مقربة من البروص، وبنى فيها مسجدا تخليدا لذكرى انتصاره. فكان هذا أول موطئ للإسلام في مملكة الكجرات، وكان هذا أول مسجد في الهند بالإضافة إلى السند.

وبعد المنصور خلفه المهدي، وأمر عبد الملك فهاجم عبد الملك مرة أخرى على مملكة الكجرات، وفتح باربد التي تسمى بالهندية بهاربهوت وهي على مقربة من البروص عام ١١٠هـ/ ٧٧٨م، إلا أن الجيش العربي تفشت فيه الأوبئة بشكل مفاجئ مما سبب في هلاك ألف جندي من العرب فأقلقهم ذلك الحادث المفجع فرجعوا القهقرى.

بقيت حكومة بغداد قوية متماسكة حتى عصر المعتصم بالله، الذي وافاه الأجل عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، ثم تسرب إليها الضعف، وازدادت ضعفا على ضعف مع مرور الأيام إلى أن انقطعت صلتها عن السند والهند. وبقي العاملون والحكام العرب لمدة من الزمن يحكمون هذه المناطق مستقلين عن مركز الخلافة إلا أن الملوك الهندوس أعادوا استيلائهم عليها مرة أخرى في النهاية، ولم تبق فيها للعرب فيما بعد إلا دولتان مشهورتان إحداهما في الملتان، والأخرى في المدينة العربية المدعوة بالمنصورة من السند.

ويجدر بالذكر هنا أن الملوك الهندوس أيضا عاملوا رعاياهم المسلمين معاملة تتسم بالتسامح والعدل وأبقوا على مساجدهم كما كانت[١].

---

(١) هذه الأحداث موجودة في فتوح البلدان للبلاذري باب فتح السند ١/ ٦٩٧.

سر هزيمة أهل السند

وقبل أن نتقدم يجب أن نعرف كيف استطاع جيش عربي مكون من عدة آلاف من الجنود فقط، وقد أتعبتهم مشاق السفر الطويل أن يستولوا علي هذه البلاد في هجمة واحدة؟

أعتقد أن هزيمة أهل السند ترجع إلى نفس السبب الوحيد الذي استسلم به كل قوم لغيرهم في العالم. يتبين بكل وضوح من تصريحات العرب أن البوذية كانت منتشرة في السند في أواخر القرن الأول من الهجرة وبداية القرن الثامن للميلاد، وأن العرب كانوا يسمون البوذيين بـ"السمنية" [١] (وسوف نتحدث حول هذه الكلمة لاحقا).

وقد ذكر جميع الجغرافيين أنه كان هناك عمران يسمى بالبدهه[٢] التي جاء اسمها الصحيح وهو بدهبور في ججنامه[٣] كما ورد هنا اسم معبد يسمى بالنوويهار وهو معبد بوذي خاص، وكان القائمون عليه يسمون بالسمنية و كانوا خصوم البراهمة. ويتفق معنا السيد ايليت في دعوانا بأن ديانة السند في ذلك الوقت كانت البوذية، يقول:

"وبما أن البوذية كما اتفقت عليه كلمة المؤرخين كانت منتشرة في السند عندما واجه المسلمون القومية الهندوسية لأول مرة، فطبيعي أن يكون مصدر كلمة البد عبارة عن البدهه وليس كلمة بد الفارسية التي هي بنفسها شكل محرف للبدهه.

---

(١) البشاري المقدسي وابن حوقل ذكر السند.

(٢) كتاب صورة الأرض لابن حوقل ٢٧٦.

(٣) ايليت ج ١ ١٣٨، وقد ترجم الكتاب الفارسي إلى اللغة العربية باسم فتح السند.

توجد هناك دلائل وآثار تدل على أن البوذية حينذاك كانت منتشرة في وادي السند، ولا يتأيد ذلك بما كتبه الرحالة الصينيون وما صرح به ابن خردازبه بشكل خاص فقط بل توجد هناك إشارات ضمنية إلى ذلك الموضوع في مصنفات العرب إلا أنها لا تذكر البراهمة والبوذيين كخصوم، وذلك أن ما يمتاز به كل من الطائفتين(وخاصة في مجالات العبادات) من قصص دينية من الدقة واللطافة بحيث لا يكاد يلفت انتباه وعناية الأجانب، ولذلك فإن العباد وسدنة المعابد حيثما ذكروا إنما سموا بـ"السمنية".

كانت الفيلة في الدولة بيضاء اللون، الأمر الذي يحمل إشارات ومعاني، وكان ألف شخص من البراهمة (الاسم الذي ذكرتهم به الكتب العربية)، والذين كانوا يحرصون على المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم الدينية القديمة، كان أمرهم محمد بن القاسم بعد ما استأذن من الخليفة بأن يطوفوا في مناطقهم حاملين أسطالهم في كل صباح، ليحصلوا على رزقهم، وهي عادة دينية خاصة موجودة في البوذيين، ذلك بالإضافة إلى إقامة نصب تذكارية للفاتحين. كل هذه الأمور إن دلت على شيء فإنها تدل على الخصائص الطبعية للبوذيين، وليس البراهمة، وعلاوة على هذه الدلائل الإيجابية توجد هناك دلائل سلبية وهي أنه لا توجد أية إشارة إلى "الستي"(وهي عادة إحراق الزوجة نفسها في نار زوجها إظهارا لوفائها له) و"الجينيو" (وهو خيط يعلقه البراهمة في أعناقهم) و عبادة البقر، و"أشنان" (وهو الاغتسال للتطهر) و"الهوان" (وهي عبادة مخصوصة) وحيل العُباد وأعمالهم التقليدية، والرياضة الشاقة، وغيرها من العادات والتقاليد الهندوسية".

إن دراسة في أقدم تاريخ إسلامي للسند وهو "تاريخ الهند والسند"

و"منهاج المسالك" تدلنا دلالة واضحة على أنه كانت هناك مخاصمة ومعاداة بين البراهمة والبوذيين، ويبدو أن هاتين الديانتين كانتا متداخلتين في بعض الأسر بحيث كان أحد أفراد الأسرة الواحدة هندوسيا بينما كان الآخر بوذيا، ولذلك عندما قرأت أحوال ملوك السند ما كان لي إلا أن أستنتج أن الملك المسمى بـ"جج" كان هندوسيا برهمنيا[1]، وكان يحارب الملوك البوذيين الضعفاء، فقضى على بعضهم وأخضع بعضهم الآخرين، وكانت حكومة هذا الملك في أواخر القرن السادس الميلادي، ثم خلفه أخوه الملك جندر، وكان بوذيا متحمسا للبوذية، فأجبر من كانوا مرقوا من البوذية، على الرجوع إليها بالقوة والإكراه،[2]"، فثارت ثورة البراهمة الهندوس، وخرجوا عليه فاضطر للقتال معهم إلا أنه لم ينجح في المعارك وخلفه ابنه الملك "داهر" وكان برأيي هندوسيا برهمنيا.

يترشح من تاريخ القياسات أنه في الوقت الذي كان المسلمون على حدود السند كانت الحرب تستعر بين الهندوس والبوذيين في البلاد وكان البوذيون قد شعروا بضعفهم أمام البراهمة فمدوا يد الصداقة والصلح إلى المسلمين إذ نرى أنه عندما يدخل جيش محمد بن القاسم المظفر في مدينة نيرون يعرض أهلها السمنيين منهم وهم الرهبان البوذيون على المسلمين و "ظهر أنهم بعثوا سفراءهم المخصوصين إلى الحجاج في العراق وحصلوا على الأمان لأنفسهم" ... فاستقبل أهل نيرون محمد بن القاسم بكل حفاوة و احترام، "فأقاموا

(١) فتح السند ٤٠ (وهو ترجمة جچنامة الفارسي الذي كان بين يدي المؤلف ولم يترجم إلى اللغة العربية بعد ضياع أصله العربي إلا متأخرا، وقد استخدمت هذه الترجمة العربية للإحالات، المترجم).

(٢) فتح السند ٦٥.

لمحمد العلوفة وأدخلوه مدينتهم، ووفوا بالصلح"، وجعل محمد لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهرا دون مهران، فأتاه سمنية سربيدس، فصالحوه عمن خلفهم، [1] وكذلك يحدث في سيوستان حيث يترك السمنيون ملكهم المدعو/ بجي راي و يتعاونون مع المسلمين بكل رضا واختيار و يقبلونهم بديلا عن ملكهم.

وكان في السند رجل يسمى كاكه كوتك وكان معروفا برجاحة عقله وحصافة فكره وحنكته وبصيرته السياسية.

"جاءه الأعيان وأشراف المدينة ليتدبروا الأمر وليطلبوا منه بأن يسمح للجيش أن يلقن المهاجمين المسلمين درسا لن ينسوه، ويقلب نهارهم ليلا بسفك دمائهم، فقال كاكه: "أرجو أن يكون ذلك، بيد أن الرهبان (الجوكي) والمنجمين أخبرونا بأن هذه المنطقة وأطرافها سيتم فتحها على يد الجيش الإسلامي، وقد حباهم الله بالمكانة والمنزلة الرفيعة"[2].

فلم يسمعوا له، مما أدى إلى تكبدهم بالخسائر الفادحة، فقال لهم كاكا:

" أنتم تدرون عزمي وإرادتي، ألم أقل لكم إن المنجمين والرهبان قد قالوا إن مصير هذه البلاد سيقع في يد المسلمين وإن الهند بكاملها سيتم فتحها من قبل جيش الإسلام، وإنني سأقوم باستقبالهم، وهكذا قرر كاكه كوتك أن يتوجه على رأس وفد من كبار الأشراف والمعتمدين إلجيش المسلمين لمقابلة محمد بن القاسم، ولما تشرف كاكه كوتك بلقاء محمد بن القاسم، أكرم هذا الأخير وفادته و أجلسه إلى جانبه محترما معززا، ثم أخذ كاكه الجناني يتحدث عن تلك الليلة التي أضاع جيشه طريقه إلى جيش المسلمين، ثم رجوعه خائبا إلى الحصن، ثم

(1) فتوح البلدان ١/ ٦٨٨.

(2) فتح السند (جچنامة) ١٢٢.

قال: لقد استخرج المنجمون من دراساتهم بأن هذه المنطقة سيتم فتحها على يد جيش المسلمين، ولما تحققت هذه المعجزة تيقنت أنه القضاء والقدر الإلهي وأنه ليس هناك من يتمكن من الغدر بكم، ومقاومة جيش المسلمين، ......استمع محمد بن القاسم إلى كاكه كوتك وأعطاه الأمان مع عشيرته وأتباعه....فأخذت الوفود من القبائل والأشراف والأعيان الهنود يأتون زرافات لإعلان الولاء والطاعة لأمير البلاد ممثل دار الخلافة وجيش الإسلام"[1].

يبدو أن البوذيين في السند عندما قارنوا بين البراهمة وبين المسلمين وجدوا المسلمين أفضل من غيرهم، ويمكن أن يكون هناك سبب آخروهو أن معاملة المسلمين للبوذيين في تركستان وأفغانستان بالكرم والاحترام والتي دخلوا بسببها أفواجا في الإسلام بسرعة مدهشة ربما تكون قد لطفت قلوب البوذيين في هذه البلاد أيضا.

سياح الهند وجغرافيوها العرب

إن أول كتاب جغرافي موجود الآن باللغة العربية يتضمن شيئا من المعلومات عن الهند هو كتاب المسالك والممالك لصاحبه ابن خردازبه (عام ٢٥٠ /٨٦٤م).

ابن خردازبه

كان ابن خردازبه (عام ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤م) مسؤول قسم البريد والاستخبارات على عهد المعتمد أحد الخلفاء العباسيين في القرن التاسع الميلادي. ومن هنا كتب كتابا في بيان المسافات والطرق بين بغداد ومختلف البلدان، وضمن

(1) فتح السند (جچنامه) ص١٢٢ ـ ١٢٣.

الكتاب تفصيلات الطرق التجارية البرية والبحرية إلى الهند، كما ذكر فيه معلومات عن مختلف الطبقات في المجتمع الهندي. وإن كان ابن خردازبه لم يزر الهند بنفسه إلى أنه اعتمد في معلوماته العامة على جغرافية بطليموس، كما اعتمد في معلوماته الخاصة على التقارير الرسمية التي زوده بها قسم الاستخبارات التي كان يتولى مسئوليته. وكان بينه وبين التجار والمسافرين لقاءات مستمرة بسبب ما كان عليه من المنصب، مما يجعل معلوماته الشخصية هذه بمثابة "معلومات سائح" للهند.

قام دي خوئي(De Goeje) بنشر كتاب ابن خردازبه عام ١٨٨٩م من مطبعة بريل في ليدن.

إن المدن التي ذكرها ابن خردازبه ضمن مدن السند تدل على أن العرب كانوا يعتبرون كل ما بعد بلوجستان إلى مملكة الكجرات من المدن جزءا من السند، فقد عدد ابن خردازبه ضمن مدن السند قيتان، وبنه ومكران ومبد وقندهار وقصدار وبوقان، وقنداييل وقنزبور وأرمابيل والديبل وقنبلي وكنبايه وكهمبايت ومهيان وسدوسان وراسل وورور وساوندي وملتان ومندل وبيلمان وسرشت وكيرج ومرمد وقابي ودهبخ والبروص. ثم خص بالذكر المدن الهندية الشهيرة وهي سامل وهورين (أجين) وقالون وقندهار (كندهارا) وكشمير.

يقول ابن خردازبه: توجد في الهند سبعة أجناس وهم:

"الشاكثريّة وهم أشرافهم، فيهم الملك، تسجد الأجناس كلها لهم، ولا يسجدون لأحد. والبراهمة وهم لا يشربون الخمر والأنبذة، والكسترية يشربون ثلاثة أقداح فقط، لا تزوّجهم البراهمة ويتزوجون فيهم. والشودرية وهم أصحاب زراعة، والبَيْشية وهم أصحاب صناعات ومهن، والسّنداليّة وهم

أصحاب اللهو واللحون وفي نسائهم جمال، والذُّنبيّة وهم سمر أصحاب لهو ومعازف ولعب.

ومِلل أهل الهند اثنتان وأربعون ملّة، منهم من يثبت الخالق عزّ وجلّ والرسل ومنهم من ينفي الرسل، ومنهم النافي لكل ذلك. والهند تزعم أنها تدرك بالرقى ما أرادوا ويسقون به السمّ ويخرجونه ممن سُقي، ولهم الوهم والفكر ويحلون به ويعقدون ويضرّون وينفعون، ولهم إظهار التخاييل التي يتحير فيها الأريب ويدّعون حبس المطر والبرد"(١).

سليمان التاجر

سليمان التاجر(عام ٢٣٧م/ ٨٥١م) أول تاجر عربي وصلت إلينا رحلاته، وقد طبعت من باريس عام ١٨١١م تحت عنوان "سلسلة التواريخ"(٢). كان سليمان رجل أعمال كبيرا، كان يسافر من ميناء بغداد إلى الصين، ومن هنا كان يتردد على جميع سواحل الهند(٣).

(١) المسالك والممالك ص١٧.

(٢) أعيد نشر هذا الكتاب بعنوان رحلة أبي زيد السيرافي بتحقيق الأستاذ عبد الله الحبشي عام ١٩٩٩م من المجمع الثقافي في أبو ظبي بالإمارات العربية المتحدة، وهو عنوان يتفق مع موضوع الكتاب على عكس الاسم الأول الذي جاء ذكره في النص، وقد تضمن المجلد رحلة سليمان التاجر وما أضاف إليها أبو زيد السيرافي من معلوماته.

(٣) تاجر من أهل سيراف روى أخبارا عن الطريق البحري التي كانت تجتازه السفن من سيراف إلى (كانتون) والتي كانت تعرف باسم (خانفو)، وفي سنة ٢٣٧هـ ألف كتابا بعنوان (أخبار الصين والهند) ، وصف فيه الطريق البحرية التي كانت تسلكها السفن التجارية من بحر فارس إلى موانئ الهند والصين، وفيه ذكر للسواحل التي كانت تمر فيها السفن والموانئ التي كانت ترسو فيها، مع تقدير المسافات بالأيام وأحيانا بالفراسخ، وسجل عادات أهل الهند والصين ووصف=

قيد سليمان التاجر أحواله المختصرة عام٢٣٧هـ/ ٨٥١م، وقد مضى على ذلك ما يقارب أحد عشر قرنا من الزمن.

هذا أول مصدر نجد فيه اسم بحر الهند بحر "هركند" وبهذا الاسم يذكره العرب. إن هركند عبارة عن جزء من البحر يجري ملاصقا بسواحل جنوبي الهند.

يقول سليمان التاجر:

"والبحر الثالث بحر هركند، وبينه وبين بحر دلاروى جزائر كثيرة، يقال أنها ألف وتسعمائة جزيرة، وهي فرق ما بين هذين البلدين دلاروى وهركند.

وهذه الجزائر تملكها امرأة ويقع في هذه الجزائر عنبر عظيم القدر، فتقع القطعة مثل البيت ونحوه... وهي عامرة بنخل النارجيل. بعد ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان، وثلاثة وأربعة، وكلها عامر بالناس وبالنارجيل،... ويقال أن أهل الجزيرة لا يكون أصنع منهم، حتى أنهم يعملون القميص مفروغا منه نسجا بالكمين والدخريصين، والجيب،.....وآخر هذه الجزائر سرنديب في بحر هركند، وهي رأس هذه الجزائر كلها، وهم يدعونها الديبجات...... وفي أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم عليه السلام، وقدمه في صفا رأس

= حياتهم الاجتماعية وعقائدهم ودياناتهم ومعاملاتهم وإدارة حكوماتهم وما يعبدون من الأصنام والأوثان. ولم تصلنا أخبار رحلة سليمان بكتاب مستقل وإنما عرف عن طريق كتاب ألفه رجل يدعى أبو زيد السيرافي، عاش في القرن الرابع للهجرة، وفيه دون ما كان يسمعه من أخبار الرحالة من الأخبار التي ألموا بها وعلموا بها في رحلاتهم إلى الهندوالصين.

المراجع

الأدب الجغرافي ١/ ١٤١_١٤٢. العرب والملاحة في المحيط الهندي ص/ ٢٠٣ وما بعدها. الرحلات ص/ ٢٩_٣٣. تراث الإسلام لأرنولد ص / ١٣٦_١٤٩.

هذا الجبل منغمسة في الحجر..... ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال لهما أندامان، وأهلهما يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلوا الشعور، مناكير الوجوه والأعين، طوال الرجل،.... عراة ليست لهم قوارب... ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم"(١)، ويكتب عن بعض السواحل الجنوبية أن أهلها:

"هم قوم سمر، يلبس كل واحد منهم فوطتين"(٢).

ومن غرائب ما نقل لنا سليمان التاجر وهو مما يدل على دراسة أهل عصره النقدية عن جميع أنحاء العالم.

ذكر سليمان التاجر أربعة ملوك من سواحل الهند وعلى رأسهم الملك البلهرا، يقول:

"أهل الهند وأهل الصين مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة.

وأول من يعدون من الأربعة: ملك العرب، وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه أنه ملك أعظم الملوك وأكثرهم مالا و أبهاهم جمالا و أنه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شيء.

ثم يعد ملك الصين نفسه بعد (الملك بلهرا) ملك العرب.

ثم ملك الروم.

ثم بلهرا ملك المخرمي الآذان،

فأما بلهرا هذا فإنه أشرف الهند، وهم مقرون له بالشرف.

وكل ملك من ملوك الهند متفرد بملكه غير أنهم مقرون لهذا، فإذا وردت

(١) سلسلة التواريخ، وقد أعيد طبعه باسم رحلة السيرافي، ومنه اقتبسنا هذه العبارات ص ١٧ _ ٢٢.

(٢) رحلة السيرافي ص ٢٩.

رسله على سائر الملوك صلوا لرسله تعظيما له، وهو ملك يعطي العطاء كما تفعل العرب، وله الخيل والفيلة الكثيرة، والمال الكثير، وماله دارهم تدعى الطاطرية، وزن كل درهم درهم ونصف بسكة الملك، وتاريخه في سنة من مملكة من كان قبله، ليس كسنة العرب من عصر النبي عليه السلام، بل تاريخهم بالملوك، وملوكهم يعمرون ربما ملك أحدهم خمسين سنة، ويزعم أهل مملكة بلهرا: أنما يطول مدة ملكهم وأعمارهم في الملك لمحبتهم للعرب، وليس في الملوك أشد حبا للعرب منه، وكذلك أهل مملكته.

وملك بلهرا وأرضه أولها ساحل البحر وهي بلاد تدعى الكمكم، متصلة على الأرض إلى الصين، وحوله ملوك كثيرة يقاتلونه غير أنه يظهر عليهم"(١).

أما كلمة بلهرا فقد اختلف المحققون في أصلها في بداية الأمر، إلا أنه قد ثبت الآن بما لا مجال للشك فيه أن كلمة بلهرا هي شكل محرف للاسم "ولبه ـ راي"، وأن كمكم صورة مشوهة لكلمة كوكن. حكمت سلالة البلهرا هنا مدة طويلة من الزمن.

بعد ذكر البلهرا نجد ذكر ملك الجزر، والجزر في أصلها كلمة "گوجر" الهندية وكان "الملوك الگوجر" هم ملوك مملكة الكجرات، يقول:

"فمنهم ملك يدعى ملك الجزر، وهو كثير الجيش، ليس لأحد من الهند مثل خيله، وهو عدو للعرب غير أنه مقر أن ملك العرب أعظم الملوك وليس أحد من الهند أعدى للإسلام منه، وهو لسان من الأرض، وأموالهم كثير، وإبلهم ومواشيهم كثيرة،...وليس في بلاد الهند آمن من السرقة منها".

(١) رحلة السيرافي ٣٣ ـ ٣٤.

"وإلى جانبه ملك "الطافن"(١) وهو قليل المملكة، ونساؤهم بيض أجمل نساء الهند، وهو ملك موادع لمن حوله لقلة جيشه ويحب العرب كحب بلهرا"(٢).

اختلف الباحثون الأوربيون في أصل كلمة الطافن، وقد وردت هذه الكلمة "طاقن" بدلا من طافن، في بعض النسخ وأرجعها بعض الناس إلى أورنغ آباد الحالية قريبة من دكن كما نسبها بعض الناس إلى منطقة قريبة من كشمير، ولكني أرى أن هذه الكلمة طاقن وهي محرفة لكلمة دكهن.

"ويلي هؤلاء الملك رهمي... ورهمي هذا أكثر جيشا من ملك بلهرا، ومن ملك الجزر ومن الطاقي ويقال إنه إذا خرج إلى القتال يخرج في نحو من خمسين ألف فيل،.... وفي بلاده الثياب التي ليس لأحد مثلها، يدخل الثوب منها حلقة خاتم دقة وحسنا، وهو من قطن"(٣).

ويفهم مما جاء في العبارة السابقة من مدح للقماش يفهم أنها كانت حكومة ملك يسمى بـ"راما" على مقربة من دكا.

وقد ذكر سليمان التاجر كثيرا من القوانين الهندية مثل ما يقول:

"وأما بلاد الهند فإنه إذا ادعى رجل على آخر دعوى يجب فيها القتل، قيل للمدعي: أتحامله على النار، فيقول نعم، فتحمى حديدة إحماء شديدا، حتى يظهر النار فيها، ثم يقال له: ابسط يدك، فتوضع على يده سبع ورقات من ورق شجر لهم، ثم توضع على يده الحديدة فوق الحديدة، ثم يمشي بها مقبلا

(١) هذه الكلمة جاءت الطاقف كما في رحلة السيرافي التي بين يدي ص٣٥(المترجم).
(٢) رحلة السيرافي ص ٣٥.
(٣) رحلة السيرافي ص٣٥.

مدبرا، حتى يلقيها عن يده، فيؤتى بكيس من جلود فيدخل يده فيه، ثم يختم بختم السلطان، فإذا كان بعد ثلاث أتي بأرز غير مقشر فيقال له افركه، فإن لم يكن في يده أثر فقد فلح ولا قتل عليه، ويغرم الذي ادعى عليه منا من ذهب يقبضه السلطان لنفسه، وربما أغلوا الماء في قدر من حديد أو نحاس حتى لا يقدر أحد يدنو منه ثم يطرح فيها خاتم حديد، ويقال: أدخل يدك فتناول الخاتم. وقد رأيت من أدخل يده وأخرجها صحيحة، ويغرم المدعي منا من ذهب".

ويتكلم عن إحراق الموتى في الهند، فيقول:

"وإذا مات الملك ببلاد سرنديب....... ويهيأ له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به، ثم يرمى برماده في الريح، والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار"(١).

و يضيف:

"وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه، وإن شئن لم يفعلن"(٢).

كما يذكر:

"وأهل بيت المملكة في كل مملكة أهل بيت واحد لا يخرج عنهم الملك، ولهم ولاة عهود، وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات لا تكون تلك الصناعة إلا فيهم.

(١) رحلة السيرافي ص ٤٦.

(٢) رحلة السيرافي ص ٤٧.

وليس تنقاد ملوك الهند لملك واحد بل كل واحد ملك بلاده، وبلهرا ملك الملوك بالهند"(١).

"وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان"

وإذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت، فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند، و إن زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسها قتل الرجل وحده، فإن فجر بامرأة على رضى منها قتلا جميعا"

"والسرقة في جميع بلاد الصين والهند في القليل منه والكثير القتل، فأما الهند فإذا سرق السارق فلسا فما فوقه أخذت خشبة طويلة فيحدد طرفها ثم يقعد عليها على أسته حتى تخرج من حلقه"(٢).

من المستغرب اليوم أن الناس في الهند كانوا يحفون لحاهم يوما من الأيام، يقول رحالتنا:

"والهند يطولون لحاهم، ربما اريت لحية أحدهم ثلاث أذرع، ولا يأخذون شواربهم...... وأهل الهند إذا مات لأحدهم ميت، حلق رأسه ولحيته... والهند إذا حبسوا رجلا أو لازموه منعوه من الطعام والشراب سبعة أيام وهم يتلازمون...... ولأهل الصين قضاة يحكمون بينهم دون العمال وكذلك أهل الهند.... ويقتل قاطع الطريق... والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه فيضربون هامه حتى يموت..... والهند يغتسلون كل يوم قبل الغداء ثم يأكلون...وأهل الهند يستاكون ولا يأكل أحدهم حتى يستاك......"(٣).

(١) رحلة السيرافي ص ٤٧.

(٢) رحلة السيرافي ٤٨.

(٣) رحلة السيرافي ٤٨ - ٥٠.

وأكثر ما يحمل عربيا على الاستغراب عدم توفر التمر في بلد ما، وصاحبنا هذا أيضا يستغرب ذلك، ويقول:

"وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر، وثمر ليس عندنا".

وأغلب الظن أن هذا مانجو.

ويضيف:

"والهند لا عنب لهم،... وسائر الفواكه عندهم كثيرة والرمان بالهند أكثر"(١).

كما يستغرب سائحنا الذي يستحب التكلف من واقع:

"وليس للصين ولا الهند بأصحاب فرش...كما يذكر ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء.... وطعام الهند الأرز ...."(٢).

"وليس لأهل الصين علم وإنما أصل ديانتهم من الهند، وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البددة، وأنهم هم أهل الدين، والطب بالهند والفلاسفة... ولهم علم بالنجوم وذاك بالهند أكثر،.... وللهند خيل قليل....وبلاد الصين أنزه وأحسن وأكثر الهند لا مدائن لها....وأنهار البلدين جميعا عظام فيها ما هو أعظم من أنهارنا... وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة والصين كلها عمارة...وأهل الهند يلبسون فوطتين، ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر الرجال والنساء"(٣).

(١) رحلة السيرافي ص٥٠.
(٢) رحلة السيرافي ٤٩.
(٣) رحلة السيرافي ٥٠ـ ٥١.

أبو زيد حسن السيرافي

سيراف كانت ميناء شهيرا في خليج فارس، وإليها ينتمي أبو زيد حسن السيرافي، ويعود تاريخ كتابه إلى عام ٢٦٤هـ/ ٨٧٧م. وكان لقيه الرحالة الشهير المسعودي عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م في سيراف، وكان المسعودي تاجرا عربيا.

قرأ السيرافي رحلات سليمان التاجر وكتب تكملته بعد ٢٥ أو ٣٠ عاما، وهو الآخر كان يتنقل بين سيراف والهند والصين في رحلاته التجارية البحرية.

يقول:

"وقد تغير بعد هذا التأريخ أمر الصين خاصة، وحدثت فيها حوادث انقطع لها الجهاز إليهم وخرب البلد"(١).

وادعى السيرافي أنه أول شخص اكتشف اتصال بحر الصين والهند بالبحر المتوسط، يقول السيرافي:

"ومما حدث في زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا أنه لم يكن أحد يقدر أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام"(٢).

والسيرافي أول رحالة عربي يذكر ملك الزابج ويسميه بالمهراج، ويذكر في مقابله ملك القمار(راس كوماري)، ويقول إن هذا الملك تابع للمهراج، ويذكر أن الخمر والزنا محرمان في هذه المملكة، فلا يوجد لهما أثر فيها(٣)، وأن

(١) رحلة السيرافي ص ٥٣.
(٢) رحلة السيرافي ص ٦٤ ـ ٦٥.
(٣) رحلة السيرافي ص ٦٨.

عقيدة التناسخ متجذرة في الهند والصين بصفة عامة لدرجة أن الناس يعتبرون الانتحار أمرا هينا(١) كما يضيف:

"في مملكة بلهرا وغيره من الملوك من يحرق نفسه بالنار وذلك لقولهم بالتناسخ، وتمكنه في قلوبهم، وزوال الشك فيه عنهم" (٢).

يذكر السيرافي مراسم التتويج في هذه المملكة فيقول:

"وفي ملوكهم من إذا قعد للملك طبخ له أرز ثم وضع بين يديه على ورق الموز، وينتدب من أصحابه الثلاثمائة والأربعمائة باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه، ويتقرب رجل رجل منهم فيأخذ منه شيئا يسيرا فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم في اليوم الذي مات فيه لا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر"(٣).

وقد ذكر السيرافي عددا أحداثا متعددة من هذا النوع.

كما يذكر غزارة المطر في البلاد، فيقول:

"وأمر اليسارة ببلاد الهند وتفسيرها المطر.. فإنه يدوم عليهم في الصيف ثلاثة أشهر ليلا ونهارا.. وبهذه اليسارة عيشهم، وإذا لم تكن هلكوا لأن زراعتهم الأرز لا يعرفون غيره"(٤).

ثم يذكر البوذيين الفقراء الذين يقول عنهم:

(١) رحلة السيرافي ص ٧١.
(٢) رحلة السيرافي ص٧٨.
(٣) رحلة السيرافي ص ٧٨.
(٤) رحلة السيرافي ص ٨٣.

"وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب إذ كانت لا تقص إلا ما ينكسر منها، وهم على سبيل سياحة، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الإنس، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهنود فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة، فإذا أشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلا في وقت حاجته"(١).

ثم يذكر الراهبات الهندوسيات من جنوبي الهند، فيقول:

"وبالهند قحاب يعرفون بقحاب البد"

بالإضافة إلى أحوال الصنم الكبير الشهير في الملتان ثم بلاد النارجيلة ويصف تجارتهم و يقول في النهاية:

"وملوك الهند تلبس الأقراط من الجوهر النفيس في آذانها المركب في الذهب، وتضع في أعناقها القلائد النفيسة المشتملة على فاخر الجوهر الأحمر والأخضر والؤلؤ ما يعظم قيمته ويجل مقداره، وهو اليوم كنوزهم وذخائرهم وتلبسه قوادهم ووجوههم.

والرئيس منهم يركب على عنق رجل منهم، وعليه فوطة قد استتر بها وفي يده شيء يعرف بالجترة وهي مظلة من ريش الطواويس يأخذها بيده، فيتقي بها الشمس وأصحابه محدقون به"(٢).

يتحير هذا الرحالة عندما لا يرى حتى شخصين يأكلان معا، كما لا يأكلان على سفرة واحدة، ويعدون ذلك عيبا.

(١) رحلة السيرافي ٨٤.
(٢) رحلة السيرافي ص٩٢ - ٩٣.

يقول:

"ومنهم صنف لا يأكل اثنان منهم في غضارة واحدة ولا على مائدة واحدة، يجدون ذلك عيبا فاحشا، فإذا وردوا سيراف فدعاهم وجه من وجوه التجار وكانوا مائة نفس أو دونها أو فوقها احتاج أن يضع بين يدي كل رجل منهم طبقا فيه ما يأكله لا يشاركه فيه سواه"[1].

من عادة الملوك و الأمراء أنه يصنع لهم إناء مثل الطبق كل يوم من جلد النارجيلة ويضع أمام كل واحد منهم:

"وأما ملوكهم في بلادهم ووجوههم فإنه يتخذ لهم في كل يوم موائد، يسف خوص النارجيل سفا ويعمل منه كهيئة الغضار والصحاف، فإذا أحضر الغذاء أكلوا الطعام في ذلك الخوص المسفوف، فإذا فرغوا من غذائهم رخي بتلك المائدة والغضار المسفوف من الخوص مهما بقي من الطعام إلى الماء، واستأنفوا من غدهم مثله"[2].

كما يشهد بأن:

"أكثر ملوكهم يظهرون نسائهم إذا جلسوا لمن دخل إليهم من أهل بلدهم وغيرهم لا يحجبن عن النظر إليهن"[3].

(١) رحلة السيرافي ص ٩٣.
(٢) رحلة السيرافي ص ٩٣.
(٣) رحلة السيرافي ص ٩٤.

أبو دلف مسعر بن مهلهل الينبوعي

أبو دلف مسعر بن مهلهل رحالة عربي كبير[1]، يتراوح عصره ما بين ٣٣١هـ و٣٧٧هـ/ ٩٤٢م و٩٨٧م.

سافر هذا الرحالة من بغداد إلى تركستان، ولقي نصر الساماني ملك بخارا المتوفي ٣٣١هـ/ ٩٤٢م، ورحل منها إلى الصين مع سفير صيني، ثم خرج من الصين ووصل إلى الملتان والسند والسواحل الجنوبية(كولم) من الهند، وهو يمر في طريقه بتركستان، وكابل والتبت، وكشمير.

طبعت أجزاء من كتابه مع ترجمتها اللاتينية عام ١٨٤٥م من برلين، ولكنني لم أحصل عليها إلا أنني رأيت نبذة من ذلك الكتاب أوردها ابن نديم في كتابه "الفهرست"، وياقوت في "معجم البلدان"، والقز ويني في "آثار البلاد".

وقد ذكر المؤلف المعبد الهندوسي الواقع في ملتان بكل تفصيل، وكذلك

(١) هو مسعر بن المهلهل أو (المهلل) الخزرجي الينبوعي، نسبة إلى (ينبع النخل)، وهي ناحية واسعة فيها قرى وعيون وتقع غربي المدينة المنورة إلى الشمال. شاعر وأديب ظريف ورحالة، عاش في القرن الرابع للهجرة جاب البلاد ومدح الملوك ونادم الأمراء والوزراء. طاف في أنحاء الصين والهند وفارس وأرمينية وأذربيجان وطبرستان وبلاد الأكراد، ووصف مشاهداته ودون ملاحظاته بدقة وعناية مما أذهل المستشرقين، فكتبوا عنه جغرافيا من الطراز الأول وكان من أشهر الرحالة في القرن الرابع الهجري، صنف رسالتين تحدث في الأولى عن رحلته إلى الصين وتحدث في الثانية عن طوافه في آسيا الوسطى. أمضى آخر حياته في خدمة الأمير الساماني نصر الثاني بن أحمد، أمير بخارى، في وقت كانت فيه بخارى تزخر بالأدباء والشعراء والعلماء والحكماء.

المراجع

تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ١٨٨، ١٨٩. أعلام الجغرافيين العرب ص / ٢٣٤. يتيمة الدهر ٣/ ٣٢١ الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص / ٦٦.

مصنوعات ومحاصيل مدارس الزراعية، ولعله أول رحالة عربي دخل الهند عن طريق البر.

بزرك بن شهريار

كان بزرك بن شهريار[١] عام٣٠٠هـ/ ٩١٢م ملاحا، كان يتردد بسفنه فيما بين الصين واليابان وسواحل الهند وجزرها منطلقا من ميناء العراق، وقد سجل مشاهداته ومشاهدات أصحابه البحرية تحت عنوان "عجائب الهند"، باللغة العربية، والتي تتضمن أحداثا متعددة متفرقة من جنوبي الهند ومملكة الكجرات، أهمها قصة ملك هندوسي يأمر بترجمة معاني القرآن باللغة الهندية ويستمع إليها، وذكر من مدن الهند كولم، وكله، والبنجاب، والصيمور، والسوباره، وتهته وتهانه والمانكير وهي عاصمة مملكة البلهرا، وسيلون. كما ذكر فيه أخبار الرهبان ورياضتهم الشاقة وانتحارهم احتراقا بالنار من غير أن يظهر منهم تألم أو تغير[٢]، والغريب في هذا الكتاب أنه استخدم كلمة بنيانيه للتعبير عن التجار في مواضع عديدة، وهي كلمة هندية صريحة.

وكان الملاحون العرب في ذلك الوقت يسمون السفينة الصغيرة بالبارجه

(١) ربّان بحري من خوزستان (الأهواز). جاب عباب المحيط الهندي وبحر الصين في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ودوّن ما شاهده، كما دوّن ما سمعه من البحارة والتجار من الظواهر الكونية في كتاب دعاه (عجائب الهند، بره وبحره وجزائره). وقد روى أخبارا عمّا تكبّده البحّارة المسلمون من عرب وفرس في أسفارهم البحرية من مشقّة وهم يترددون على الجزر من سيراف إلى الهند وجاوة وبحر الصين في ذهابهم وإيابهم.

المراجع

تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ١٤٣، ٢/ ٥٦٤. اعلام الجغرافيين العرب ص/ ١٨٧.

(٢) عجائب الهند ١٢٦.

وهي في الأصل كلمة هندية (بيرا)، وجمعها باللغة العربية بوارج، إلا أن كلمة بوارج وردت مرارا وتكرارا في هذا الكتاب للتعبير عن قراصنة البحر أيضا، كما وردت فيه كلمة "هندوله" وهي كلمة هندية بمعنى الهودج، وكلمة البلنج وهي كلمة هندية بمعنى السرير، بالإضافة إلى الفكرة المنبوذية.

طبع هذا الكتاب في ليدن عام ١٨٨٦م مرفقا بترجمته الفرنسية، ثم طبعت ترجمته الإنكليزية في نفس الشهر.

المسعودي

المسعودي الذي كان اسمه عليا وكنيته أبو الحسن[١] (عام ٣٠٣هـ/ ٩١٥م) اشتهر بوصفه مؤرخا كبيرا، وجغرافيا عظيما ورحالة مشهورا. قضى من عمره ٢٥ عاما في الأسفار والرحلات.

(١) هو علي بن الحسين بن علي بن الحسين المسعودي الهذلي. كان من ذرية الصحابي عبد الله بن مسعود فنُسب إليه. أبو الحسن. من أهل بغداد. معتزلي المذهب. درس النحو وعلوم الحديث على علماء عصره، ثم عزم على الأسفار، فبدأ رحلته الأولى بالمناطق الشرقية الجنوبية: فارس والهند والصين وعمان وجزيرتي مدغشقر وزنجبار، وبدأ بعدئذ رحلته الثانية، فزار المناطق الشمالية العربية: أذربيجان (منطقة بحر الخزر) والشام. وفي سنة ٣٣٤هـ زار الشام ثانية وجعل يتنقل بينها وبين مصر إلى أن توفي في القاهرة عن ٨٥ عاما، كان مؤرخا وجغرافيا وجمع في تصانيفه بين التاريخ والجغرافيا صنّف كتبا عديدة منها: مروج الذهب ومعادن الجوهر، التنبيه والإشراف وفيه أجمل أعماله العلمية وتجاربه في حياته. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان. كتاب فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف، مقالات في أصول الديانات. كتاب الرسائل. كتب الخوارج. كتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأمصار. وقد جمع في هذه الكتب الأخبار عن بدء العالم والخلق وتفريقهم في الأرض والممالك، والبر والبحر، والقرون البائدة والأمم الخالية الدائرة، وتاريخ الأزمان الماضية، والأنبياء وذكر قصصهم وسير الملوك، ومساكن الأمم وعاداتهم وعقائدهم، وكتبه على جانب عظيم من الأهمية غير أنها ينقصها الترتيب والتبويب. =

انطلق من بلده بغداد، وسافر بالإضافة إلى كل من العراق والشام وأرمينيا والروم (آسيا الصغرى) وإفريقيا والسودان، إلى الصين والتبت والهند وسرانديب في البر، كما تنقل بين بحار الهند والصين والعرب والحبشة وفارس والروم.

لم يبق من بين كتبه الضخمة المتعددة إلا كتابان في التاريخ، أحدهما كتاب "التنبيه والأشراف" وهو كتاب مختصر، ثانيهما وهو أكبر من الأول "مروج الذهب ومعادن الجوهر".

وهذا الكتاب الأخير أحفل وأزخر بالمعلومات، وكأنه تاريخ الإسلام، إلا أن مقدمة الكتاب تتضمن تاريخا مجملا لجميع أقوام وشعوب العالم بما فيها الهند وشعبها.

ذكر المسعودي أحوال البحر بكل تفصيل. والغريب في هذا الكتاب أنه يذكر أن سفنهم التجارية التي كانت تمخر عباب بحر الهند كانت تسمى مثل ما نرى اليوم أسماء الشركات البحرية وسفنها، نسبة إلى ملاك السفن وأبنائهم وإخوانهم.

إنه أول من ذكر بالتكرار اسم نهر راند (راوي) (١/ ١٤٩) والكنغ والأنهار

= المراجع
فوات الوفيات ٢ / ٩٤. شذرات الذهب ٢ / ٣٧١. النجوم الزاهرة ٣ / ٣١٥. فوات الوفيات ٢ / ٩٤. معجم الأدباء ٥ / ١٤٧. أعلام الجغرافيين العرب ص / ٣٠٩. بروكلمان ٣ / ٥٦. الأعلام ٥ / ٨٧. كشف الظنون ٢ / ١٧٨٢. التراث اليوناني في الحضارة العربية ص / ٨٤. تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ١٧٧. تاريخ الأدب العربي لفروخ ٢ / ٤٥٠. مجلة العربي لسنة ١٩٦٢ عدد ٤٨ ص / ١١٢. الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص / ٦٩.

الخمسة من البنجاب، وبين منبع كل من هذه الأنهار. كما وصف مدينة قنوج الواقعة في السند (١/ ١٦٥) - وهي غير قنوج الشهيرة - والتي كان ملكها يعرف ببؤورة. وحدد موقع المدينة وكتب أنه لم ير جبلا أكبر وأشهق من جبال التبت.

وظاهر أن المراد بهذه الجبال هي جبال هملايا كما ذكر أن الهند تنطق فيها لغات عديدة. و الغريب في الأمر أنه وصف القندهار بأنها بلاد الرهبوط (١/ ١٦٦).

كان المسعودي وصل إلى كنبايه عام ٣٠٣هـ/ ٩١٥م، في الوقت الذي كانت فيه كنبايه يحكمها تاجر برهمني تابع للملك البلهرا، " يقول:

"وكان دخولي إليها في سنة ثلاث وثلاثمأة والملك يومئذ بانيا"[(١)].

وذكر أنه وصل الملتان بعد ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، ويعدد أسماء ملوكها المسلمين العرب ووزرائهم(١/ ١٦٧).

كتب المسعودي كتابه "مروج الذهب" بعد ما أنهى رحلاته وأسفاره. وقد طبع هذا الكتاب من باريس بترجمته الفرنسية في ٩ مجلدات كما طلعت طبعات عديدة لهذا الكتاب من مصر.

الاصطخري

وهو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، المشهور بالاصطخري[(٢)]

(١) مروج الذهب ١/ ١١٧.

(٢) هو إبراهيم بن محمد الفارسي. أبو إسحاق الإصطخري، ويُقال له الكرخي. جغرافي رحّالة من العلماء من أهل (إصطخر) وهي مدينة (برسيبوليس) القديمة. قام بسياحة طاف فيها بلاد العرب وبعض بلاد الهند، وزار بلاد الشام ومصر والمغرب، وبلغ المحيط الأطلسي. استعان بكتاب (صور الأقاليم) لأبي زيد البلخي، ولم تكن مصادر علم البلدان موفورة في عهده، =

(عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م)، وكان ساكن كرخ وهي محلة في بغداد. وكان رحالة كبيرا، فقد سافر إلى معظم بلدان آسيا، وترك لنا كتابين في الجغرافية أحدهما كتاب "الأقاليم"، وثانيهما "مسالك الممالك".

طبع الكتاب الأول من جوتها عام ١٨٣٩م و الثاني من ليدن عام ١٨٧٠م. يتحدث هذا الكتاب عن كابلستان والسند والهند وبلاد ما وراء النهر بعد العرب وإيران.

وصف الاصطخري بحر الهند الذي يسميه ببحر فارس بكل تفصيل. وكان الاصطخري وصل الهند عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، وبها لقي معاصره الرحالة ابن حوقل. هو أيضا ذكر المانكير مدينة الملك البلهرا إلا أنه يبدو أن دولته كانت قد تمزقت حينذاك، لأنه يكتب أن هناك ملوكا كثيرين تابعين له، وبالإضافة إلى ذلك، فقد ذكر أحوال ملتان، والمنصورة وسمند، وألور ونهر السند. وليست إنجازاته تقتصر على بيان ووصف أحوال البلدان فقط بل إنه أعد خريطة للعالم بما فيه خريطة السند.

= فألف كتابه (صور الأقاليم) على اسم كتاب (البلخي) وألف كتاب (المسالك والممالك). ونقل ياقوت عنهما أو عن أحدهما في كتابه (معجم البلدان). أقام الإصطخري كتابه على أن يكون الحديث عن الإقليم على (مصوّر) حتى ترتسم في خيال القارئ صورة واضحة عن الإقليم مما جعل خرائطه أساسا للبحث الجغرافي، فكان بذلك أول جغرافي عربي، وقد تُرجمت كتبه إلى كثير من اللغات ثم طبعها عدة مرات.

المراجع

تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ١٩٩. الجغرافيا والرحلات عند العرب ص / ٣٣، ٣٦. أعلام الجغرافيين العرب ص / ١٩٩. الأعلام ١ / ٥٨. جهود الجغرافيين العرب في رسم الخرائط ص / ٣٣، ٣٨. مقدمة كتاب المسالك والممالك. الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص/ ٦٨.

ابن حوقل

كان أبو القاسم محمد بن حوقل تاجرا وجغرافيا ورحالة عربيا من بغداد[1]، غادر بغداد عام ٣٣١هـ/ ٩٤٣م، وسافر إلى أوربا وإفريقيا وآسيا، كما ذرع أراضي أسبانيا إلى سسلي إلى الهند، وهو الآخر قام بإعداد خرائط

(١) هو محمد بن علي البغدادي الموصلي، أبو القاسم، الشهير بابن حوقل. رحالة من علماء البلدان. أصله من نصيبين بالجزيرة، ولد ببغداد ونشأ بها وتعاطى التجارة بالموصل. رحل من بغداد سنة ٣٣١هـ ودخل المغرب وصقلية، وجاب بلاد الأندلس، وهو يعطينا عنها صورة من أدق الصور في العهد الأموي، وقد عاش مدة طويلة في خلافة عبد الرحمن الثالث (الناصر)، وكان عهد ازدهار الخلافة الأموية بالأندلس. كذلك جاب في ربوع مصر والشام والعراق وفارس وزار البحرين والإحساء، وامتدت رحلاته من نهر السند إلى البحر الأطلسي، وأمضى في رحلاته الواسعة زهاء ثلاثين سنة. في رحلته إلى الإحساء وصف النظام الاجتماعي لدولة القرامطة التي كانت تقوم فيها وفي البحرين وكانت تلك الدولة تعتمد النظام الشيوعي إلى حد بعيد في الاقتصاد والحكم. قيل إنه كان من الجواسيس الذين أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس وقد تستر بالتجارة عند دخوله إليها. من مصنفاته كتاب (صورة الأرض) - وهو المصطلح العربي لعلم الجغرافية - وقد ضمنه معلومات طريفة عن ذكر المسافات وصفات البحار والأنهار وخواص البلاد وذكر جباياتها ومستغلاتها وتجاراتها. أقام ابن حوقل كتابه وخرائطه على أساس من المعرفة الجغرافية وعلى أساس من التصور السليم للظواهر الجغرافية، وقد صوب أخطاء السابقين في مجال رسم الخرائط، وتعتبر خريطته للمغرب من أفضل ما قدم في مجال رسم الخرائط.

المراجع

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص / ٣٩، ٤٢. تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ٢٠٠ وما بعدها. معجم البلدان ١ / ٣٤٨. تاريخ المغرب والأندلس ص / ١٩٤. أعلام الجغرافيين العرب ص / ٢١٠. أدب الرحلات عند العرب ص / ١٠٨. الأعلام ٦ / ٣٤٤. دائرة المعارف الإسلامية: (ابن حوقل). مجلة العربي لسنة ١٩٨٨ عدد ٣٥٢ ص / ١٦١. الفكر الجغرافي في التراث.

للبلدان إلا أنه من الأسف لم تتضمن مجلداته المطبوعة هذه الخرائط، ولكن ايليوت كان قد رأى نسخة مخطوطة ناقصة في مكتبة ملك أوده، فألحق بكتابه الخريطة التي كان وجدها في مخطوطة ابن حوقل الموجودة في مكتبة الملك. وهذه الخريطة رغم ما فيها من نقائص وأخطاء ربما هي أول خريطة جغرافية تم إيجادها في العالم لولاية من ولايات الهند. فقد تضمنت هذه الخريطة الجغرافية مواقع سكان مملكة الكجرات إلى سيستان، وهذا أول رحالة وعالم جغرافي عربي حاول في كتابه بيان طول بلاد الهند وعرضها.

يقول:

"وأما بلاد السند وما يصاقبها للإسلام مما جمعته في صورة واحدة فهي بلاد السند وشيء من بلاد الهند ومكران وطوران والبدهه، وشرقي ذلك كله بحر فارس وغربيها كرمان ومفازة سجستان وأعمالها، ومن ورائها بحر فارس"[1].

وهذه البيانات مهما كانت ناقصة إلا أنها محاولة أولى لبيان حدود الهند.

المقدسي

وهو شمس الدين محمد بن أحمد البشاري المقدسي، ولد في بيت المقدس، من بلاد الشام، وأكمل كتابه عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م.

طاف المقدسي في جميع أنحاء العالم الإسلامي في عصره، فرحل إلى الهند أيضا إلا أنه لم يتعد حدود السند، وكان مما يمتاز به كتابه الخرائط التي أعدها للبلدان، ولكنها لا توجد في كتابه المطبوع. ويعرف كتابه بـ "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم". ويتضمن آخر أبواب الكتاب ذكر السند.

(١) كتاب صورة الأرض ٢٧٣.

وبين يدي النسخة التي طبعت ثانية من ليدن عام ١٩٠٦م.

وهنا أمر آخر يمتاز به كتاب المقدسي وهو أنه قسم البلاد على الولايات، وقسم الولايات على المدن، وذكر تجارة كل من هذه الأمكنة ومنتوجاتها ومحاصيلها الزراعية وصناعاتها ومذاهبها ودياناتها وعملاتها. ولذلك يحتل كتابه مكانة مرموقة، وكذلك وضع فيه معلوماته عن السند في ١٤ صفحة.

البيروني

(عام ٤٠٠ هـ)

وهو محمد بن أحمد المكنى بأبي الريحان البيروني صاحب كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل ومرذولة شخصية» معروفة لدرجة أنه لا حاجة لذكر أحواله. ويكفي من القول أن البيروني الذي كان من خوارزم، وعندما جاء الهند ربما كانت غزوات محمود الغزنوي لم تبدأ بعد، إلا أنه كتب كتابه بعد سنتين من غزو الغزنوي.

وبالإضافة إلى كتابه "تحقيق ما للهند" ترك البيروني كتبا كثيرة أخرى، يجدر بالذكر منها بصفة خاصة "القانون المسعودي" (في الهيئة والنجوم) الذي لم يطبع حتى الآن[1]. ويتضمن أسماء كثير من مدن الهند، وحدد فيه طولها وعرضها.

وقد ظهرت لكتاب تحقيق ما للهند ترجمات إنجليزية وهندية أيضا، وهو يتضمن جغرافية الهند مفصلة ومبينة.

(١) وقد طبع لاحقا.

ابن بطوطة

(عام ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

كان محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة[١] من سكان مراكش، ودخل الهند في عصر السلطان محمد تغلق[٢]، وجاب بلاد الهند إقليما بعد إقليم، ودون مشاهداته في رحلته بعنوان "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" بأسلوب حاز على إعجاب الجميع. وأهم ما يهمنا من هذا الكتاب هي أحوال جنوبي الهند في الوقت الذي لم يكن المسلمون قد فتحوها.

المؤرخون والجغرافيون الآخرون

اكتفيت في الصفحات السابقة بذكر من زاروا الهند من الرحالة شخصيا، إلا أن هناك عددا كبيرا من الجغرافيين العرب أو المؤرخين العرب الذين دونوا أحوال الهند ولم يزوروها.

ومن هؤلاء ابن رسته[٣] (٢٩٠هـ/ ٩٠٢م)، وقدامة بن . . . .

(١) وهو رحالة مسلم زار مصر وسوريا عام ١٣٢٥م وبلاد العرب والعراق وإيران عام ١٣٢٦م وتركيا وأسيا الوسطي والهند عام ١٣٣٢-١٣٣٣م، وسومطرة والصين ١٣٤٢-١٣٤٨م وتونس والجزائر ١٣٤٨-١٣٨٩م وإسبانيا عام ١٣٥٠م، وغرب إفريقيا عام ١٣٥٢م.

(٢) هو ابن تغلق شاه الأول، غياث الدين ملك شاه. والذي كان أول ملوك الدولة التغلقية. كان حاكم (لاهور)، وأبلى بلاء حسنا في حرب المغول وقام بصدهم عن دخول الهند فسمي بالملك الغازي. وأسس أسرة حكمت الهند نحو مائة عام.

المراجع

تاريخ الإسلام في الهند ص / ١٢٦ - ١٢٨ - رحلة ابن بطوطة ص / ٥٠٢.

(٣) هو أحمد بن عمر الشهير بابن رستة. أبو علي. فارسي الأصل. قضى الشطر الأكبر من حياته في أصفهان وحج سنة ٢٩٠هـ وزار المدينة. اشتهر بكتابه (الأعلاق النفيسة) وفيه وصف مسهب=

جعفر[١] (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) والبلاذري[٢] (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) الذي يعد كتابه

= لمكة والمدينة ومعلومات عن البحار والأنهار والمناخات والمدن الكبرى في العالم. وقد تناول البحث في عجائب السماوات ومركز الأرض منها وحجم الأرض ثم وصفها. وصف طريق خراسان الكبير حتى مدينة (طوس)، ويعتبر وصف هذا الطريق ذا أهمية عظمى بالنسبة للجغرافي، ووصف أيضا بعض الطرق الفرعية هناك، وخاصة ما يتجه منها إلى أصفهان وهراة، ووصفه أيضا الطريق من بغداد إلى الكوفة والبصرة إلى شيراز بالإضافة إلى ما دون من ملاحظات عن المسافات والمراحل الهامة على هذا الطريق. كذلك وصف تضاريس المناطق التي تخترقها هذه الطرق وأعان على تحديد مواقع مدن كثيرة لم تعد قائمة.

المراجع

تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ١٦٤. علم الفلك عند العرب ص / ١٨٣. أعلام الجغرافيين العرب ص / ١١٦. دائرة المعارف الإسلامية: (ابن رستة). الفكر الجغرافي في التراث العربي ص / ٦٢. تراث الإسلام ص / ١٣٥ ، ١٤٩.

(١) هو قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي. أبو الفرج. كاتب من البلغاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة. كان يُضرب به المثل في البلاغة. ولد في بغداد على النصرانية، واعتنق الإسلام في أيام الخليفة المكتفي وعلى يده، وفي سنة ٢٩٧هـ شغل منصب صاحب البريد واحتفظ به حتى وفاته. صنّف كتابا في الخراج، وفي صناعة الكتابة، وأراد منه أن يكون موسوعة ليوفر لكتاب الجهاز الإداري المعارف التي لا يُستغنى عنها في ممارسة مسئولياتهم، وقد انصب اهتمامه الأساسي على وصف طرق البريد والولايات مع إيراد معلومات هامة عن تقسيم الأراضي وجباية الخراج. تجد في كتابه بعض المعلومات الجغرافية من أوصاف الجبال والأقاليم السبعة، ولذلك يُعدّ من هذه الناحية من الجغرافيين. من مصنفاته: كتاب نقد الشعر، جواهر الألفاظ، كتاب السياسة، كتاب صابون الغم وصرف الهم. كتاب جلاء الحزن، بالإضافة إلى كتابه في الخراج وفي صناعة الكتابة. توفي عن ٦٢ عاما.

المراجع

النجوم الزاهرة ٣ / ٢٩٧. الفهرست ص / ١٣٠. معجم الأدباء ٦ / ٢٠٣. البداية والنهاية ١١/ ٢٢. تاريخ الأدب العربي لفروخ ٢ / ٤٣٤. الأعلام ٦ / ٣١. أعلام الجغرافيين العرب ص/ ١٤٨. الجغرافية العربية ص / ٦٣. تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ١٦٥. الفكر الجغرافي في التراث العربي ص / ٦٥.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري البغدادي. أبو العباس وأبو الحسن ويقال أبو=

"فتوح البلدان" كتابا قيما بالإضافة إلى ابن نديم البغدادي صاحب كتاب الفهرست[1] (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م).

هؤلاء أوائل الناس، وأما المتأخرون، فمنهم الصوفي الدمشقي (٧٢٨هـ/ ١٣٢٦م) صاحب كتاب "عجائب البر والبحر"، والعالم الجغرافي العربي

= جعفر. مؤرخ نسابة، له شعر حسن. مدح المأمون وجالس المتوكل وكان من أخصائه، وحظي عند المعتز حظوة كبرى، وعهد إليه بتأديب ولده عبد الله بن المعتز. اشتهر البلاذري بكتابه (فتوح البلدان) وله مصنفات أخرى منها تاريخ الأشراف وقد صدر منه أجزاء باسم أنساب الأشراف، وله كتاب البلدان الكبير ولم يتمه. والبلاذري نسبة إلى (البلاذر) وهو حب يؤخذ لتقوية الذاكرة، فقيل أنه تناول منه في آخر حياته، وربما يكون قد أكثر منه، فأصيب بالهوس والوسواس، ونقل إلى البيمارستان فشد فيه إلى أن مات. وحكى المرزباني وابن النديم أن الذي شرب (البلاذر) هو جده ابن داود وأنه هو الذي لحقه الوسواس وشد في البيمارستان حتى مات.

المراجع

معجم البلدان ٢ / ١٢٧. البداية والنهاية ١١ / ٦٥. دائرة المعارف الإسلامية: مادة (البلاذري). بروكلمان ٣ / ٤٣. الأعلام ١ / ٢٥٢. تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ١٦١. الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص / ٦١.

(١) هو محمد بن أبي يعقوب إسحاق أبو الفرج، المعروف بابن النديم. ولد ببغداد وعمل مع أبيه في الوراقة (نسخ الكتب وتجليدها). تقوم شهرته على كتابه (الفهرست) وهو أول سجل موضوعي للثقافات التي ظهرت في القرن الرابع الهجري، وقد جمع في كتابه أسماء الكتب وشيئا من الأخبار المتعلقة بأصحابها. وفي كتابه الفهرست ملاحظات قيمة جدا في تاريخ العلوم وتاريخ التأليف. كان ابن النديم معتزليا شيعيا، يدل على ذلك كتابه الذي اشتهر به، فهو يسمي أهل السنة (الحشوية) ويسمي الأشاعرة (المجبرة) ويسمي من لم يكن شيعيا (عاميا). له كتاب آخر اسمه (التشبيهات) ولكن لم يصل إلينا من كتبه سوى الفهرست. توفي عن ٦٥ عاما.

المراجع

الوافي معجم الأدباء ٦ / ٣٠٨ بالوفيات ٢ / ١٩٧. بروكلمان ٣ / ٧٣. الأعلام ٦ / ٢٥٣.

الأدريسي من سسلي[1] (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م)، وزكريا القزويني من إيران[2]

(١) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس أبو عبد الله الحسني الطالبي، ينتمي إلى بيت الأدارسة العلويين، فنسب إليهم. ولد بمدينة (سبتة) ونشأ وتعلم بقرطبة. ثم خرج إلى المشرق، فطاف في بلاد الإسلام وعاد إلى المغرب وأقام في بلاط الملك النورماندي (روجيه الثاني) في (بالرمو)، وكان (روجيه) من هواة الفلك، فوجد في الإدريسي خير معين له على اتساع رغبته في ذلك العلم. ألف له الإدريسي كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وأهداه إليه فعرف الكتاب بالكتاب الروجيري. وهو أصح كتاب ألفه العرب في وصف بلاد أوروبا وإيطاليا، وقد ترجم إلى عدة لغات أوروبية. قضى الإدريسي شطرا من تاريخ حياته في رسم أول خريطة للعالم، بناها على القواعد العلمية الصحيحة والحقائق الفنية التي عرفت في عصره، وهي لا تختلف كثيرا عما هو مستخدم في هذا العصر. وقد أمر الملك (روجيه) أن تصنع له من الفضة بإشراف الإدريسي رسم عليها خريطته وفيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وأطوالها وسبلها وريفها وخلجانها وأنهارها وعامرها وغامرها وما بين البلاد من طرقات وأميال. وكتاب الإدريسي يحوي جملة خرائط، ومتنه شرح لها وتعليقات عليها، وقد تفوقت خرائطه على خرائط من سبقه من الجغرافيين العرب، وقد ترجم إلى عدة لغات أوربية. وله مصنفات أخرى منها: (صفة بلاد المغرب) و (روضة الأنس ونزهة النفس). ألفه لوليام الأول ابن روجيه الثاني. وكانت للإدريسي مشاركة في علوم أخرى كعلم النبات وفيه ألف كتاب (الجامع لصفات أشتات النبات) ألفه لوليم الأول ابن روجيه. هو أكبر جغرافيي العرب وأشهرهم على الإطلاق، وتؤلف كتبه في الجغرافية ظاهرة ممتازة في محيط الأدب الجغرافي العربي وفي النشاط العلمي لجميع العصر الوسيط. توفي الإدريسي عن ٧١ عاما ولا يعرف مكان قبره ويغلب على الظن أنه توفي في البلاط النورماندي في (بلرم) بجزيرة صقلية.

المراجع

تاريخ الفكر الأندلسي ص / ٣١٢ ـ ٣١٦. تراجم إسلامية ص / ٣٠٥ ـ ٣١٤. دائرة المعارف الإسلامية (الإدريسي) تاريخ العلوم عند العرب لطوقان ص / ١٩٧ ـ مجلة المعرفة ١١ ـ ١٢ / ٢٢٤٠ ـ تراث الإسلام لأرنولد ص / ١٤١ موسوعة العلوم الإسلامية ١ / ٤٠ ـ زيدان ٣ / ٩٢ ـ فروخ ٥ / ٣٧٤ ـ تاريخ الأدب الجغرافي ٠ / ٢٨٠ ـ ٢٩٢ العرب في صقلية ص / ١٦٠ ـ الأعلام ٧ / ٢٥٠.

(٢) هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني. ينتسب إلى أنس بن مالك صاحبّ رسول الله ﷺ =

(٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) صاحب كتاب "آثار البلاد"، وأبو الفداء[(١)] (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) صاحب كتاب "تقويم البلدان"، وياقوت الحموي[(٢)] (٦٢٧هـ/

= وخادمه (ت: ٩٣هـ). ولد زكريا في قزوين وإليها نسبته ورحل إلى دمشق وهو شاب وتعرف إلى محيي الدين بن عربي (ت: ٦٣٨هـ) ثم توجه إلى العراق وتولى قضاء واسط أيام المستعصم بالله آخر خليفة عباسي، من تصانيفه: كتاب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) وكتاب (آثار البلاد وأخبار العباد)، وهو كتاب في (الكوزموغرافيا) أي علم وصف الكون وقد أهداه إلى عطا ملك الجويني (ت: ٦٨١هـ). توفي عن ٨٢ عاما.

المراجع

تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ٣٦٠ وما بعدها ـ تاريخ الأدب في إيران ص / ٦١٢ ـ تراث الإسلام ص / ٤٩٠ ـ موسوعة المعرفة ١٧ـ١٨ ص / ٣٢٨٠ ـ الأعلام ٣ / ٨٠.

(١) هو إسماعيل بن علي الملك الأفضل بن محمود المظفر بن محمد المنصور بن تقي الدين عمر بن نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين أيوب. عماد الدين أبو الفداء ولد في دمشق سنة ٦٧٢هـ واشترك في حصار المرقب وعمره اثنا عشرة سنة كما اشترك منذ شبابه في محاربة الصليبيين. لما قضى المماليك على الحكم الأيوبي في حماة في عهد آخر ملوكها الملك الأفضل محمد بن إسماعيل بقي أبو الفداء في خدمة الولاة المماليك. وفي سنة ٧١٠هـ ولي على حماة ولقب بالملك الصالح وفي سنة ٧٢٠هـ أصبح سلطانا على حماة باسم الملك المؤيد. كان أبو الفداء أديبا ينظم الشعر ويعطف على الأدب والأدباء، وكان إلى جانب ملكته الشعرية مبرزا بشجاعته وصفاته العسكرية. كان مصنفا وقد اشتهر بكتابين في التاريخ والجغرافية هما (المختصر في تاريخ البشر) وهو اختصار لكتاب الكامل لابن الأثير وكتاب (تقويم البلدان) الذي اعتمده المؤلف وبه نال شهرة عظيمة فهو كتاب جغرافية للعالم في زمنه، وقد ظل أهم كتاب جغرافي عربي حتى العصر الحديث وله (مختصر سنن البيهقي) في الحديث وكتاب (الكناش) في النحو و (طبقات الشعراء). توفي في حماة عن ٦٠ عاما.

المراجع

فوات الوفيات ١ / ٢٨ ـ الدرر الكامنة ١ / ٣٩٦ ـ ذيل العبر ص / ١٧٠ ـ شذرات الذهب ٦ / ٩٨ ـ تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ٣١٩ ـ ٣٩٥ ـ دائرة المعارف الإسلامية (أبو الفدا إسماعيل) ـ زيدان ٣ / ١ ـ ٢ ـ فروخ ٣ / ٧٤٠ ـ الأعلام ١ / ٣٠٧.

(٢) هو ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، شهاب الدين أبو عبد الله. رومي الأصل، ولد في بلاد=

١٢٢٩م) صاحب الكتاب الضخم "معجم البلدان"، والنويري[(١)] (٧٣٣هـ/

= الروم وأسر صغيرا وحمل إلى بغداد فابتاعه تاجر من حماة (سورية) اسمه عسكر بن أبي نصر بن إبراهيم، كان يسكن بغداد فرباه وعلمه وشغله بالأسفار في متاجره، ثم أعتقه سنة ٥٩٦هـ وأبعده، فاشتغل ياقوت عندئذ بنسخ الكتب، يعتاش منها ولم يلبث أن أعاده إليه وأرسله بتجارة إلى مراكش ولما عاد وجد مولاه قد توفي، واستمر يشتغل بالتجارة، وجعل بعض تجارته كتبا، ثم أخذ يجوب البلاد حتى انتهى إلى حلب فأقام فيها إلى أن توفي عن ٥٢ عاما. قامت شهرته على تصنيف الكتب التي دلت على اتساع علمه في التاريخ والأدب ومعرفة البلدان وفي دقة ملاحظته وأمانته في ما يؤدي، ودرايته في ما يكتب من فنون المعرفة. كان ياقوت معاصرا لغارة المغول على بغداد وقد استطاع أن ينجو بنفسه من غاراتهم. وقد جمع كتبا في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ومن تصانيفه: كتاب (معجم البلدان) و (معجم الشعراء) و (معجم الأدباء) المعروف بإرشاد الأريب ومعرفة الأديب و (المبدأ والمآل) في التاريخ، و (الدول) و (مجموع كلام أبي علي الفارسي) و (المقتضب في النسب) يذكر فيه أنساب العرب و (أخبار المتنبي) و (المشترك وضعا والمفترق صقعا) ذكر فيه أسماء البلاد المتشابهة بالأسماء والمختلفة في المواقع.

المراجع

وفيات الأعيان ٦ / ١٢٧ ـ ١٣٥ ـ شذرات الذهب ٥ / ١٢١ ـ العبر ٥ / ١٠٦ ـ أعلام النبلاء ٣ / ١٦١ ـ تاريخ الأدب في إيران ص / ٥٥٠، ٦١١ ـ تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ٣٣٤ ـ ٣٤٤ ـ الأعلام ٩ / ١٣٧ ـ فروخ ٣ / ٤٨٩.

(١) هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم التيمي البكري القرشي الكندي النويري، نسبة إلى قرية في صعيد مصر. فقيه، أديب، مؤرخ. شغل بعض الوقت منصب رئيس الكتبة في إدارة الجيش بطرابلس الشام ثم منصب رئيس الكتبة في عدد من الأقاليم المصرية. أحاط بعدد كبير من فنون العلم والأدب، كما كان حسن الخط، سريع النسخ. تقوم شهرته على كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) وهو كتاب جمع فيه النويري كل ما يحتاج إليه الكاتب في ديوان الإنشاء من المعارف وقد قدّم هذا الكتاب إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون. توفي في القاهرة عن ٦٠ عاما.

المراجع

الوافي بالوفيات ٧ / ١٦٥ ـ الدرر الكامنة ١ / ٢٠٩ ـ تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ٤٠٨ ـ المنهل الصافي ١ / ٣٦٣ ـ زيدان ٣ / ٢٤١ ـ فروخ ٣ / ٧٤٢ ـ الأعلام ١ / ١٥٨.

١٣٣١م) صاحب كتاب "نهاية الإرب في فنون الأدب"، وشهاب الدين العمري[1] (٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م) صاحب كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار".

لم يطبع من كتاب الأدريسي إلا أجزاء، وخمسة مجلدات من نهاية الإرب، ومجلد واحد من مسالك الأبصار في مصر. وكل من هذه الكتب يتضمن قليلا أو كثيرا من أحوال الهند، فلو جمع ما في هذه الكتب من بيانات ومعلومات عن الهند في مكان واحد فسيكون ذلك مكملا لما تركه ايليوت ناقصا، وتظهر لنا معلومات كثيرة جديدة عن الهند في القرون الوسطى.

مما يبعث على الأسف أن المؤرخين الأوروبيين اهتموا ببيانات اليونانيين عن الهند القديمة اهتماما كبيرا، ودققوا فيها تدقيقا، وحاولوا واجتهدوا في تزييف الحقائق، وتحقيق الأسماء اسما اسما محاولات، لو صرفوا منها شيئا يسيرا إلى بيانات العرب أيضا كانوا قد ملئوا الفجوة التي ت٠٤/ ١٢/ ٢٠١٠٠٤/ ١٢/ ٢٠١٠وجد بين التاريخ اليوناني والتاريخ الفارسي إلى حد بعيد.

(١) هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن يحيى. أبو العباس العمري، ينتسب إلى عبد الله بن عمر ولذلك سمي بالعمري كان أديبا بارعا، يجيد الترسل وينظم شعرا رقيقا. ولد بدمشق وتلقى علمه فيها ثم توجه إلى مصر ودرس في القاهرة والإسكندرية كما ذهب إلى الحجاز وأخذ العلم عن شيوخ هذه البلاد وعاد إلى القاهرة وتولى ١٢/ ٤/ ٢٠١٠القضاء فيها ثم عاد إلى دمشق وفيها توفي عن ٤٩ عاما. من مصنفاته: كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) هو كتاب في الجغرافية وتقويم البلدان وتقدير المسافات بينها، وهو إلى جانب ذلك يتضمن فصولا مبسوطة في التاريخ والتراجم وقدرا من الأشعار المختارة للجاهليين والإسلاميين، ومن الكلام على النبات والحيوان وعلى شعوب الأرض و(صبابة المشتاق) في المدائح النبويه و(فواضل السمر في فضائل آل عمر) و(النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية) وله كتاب ذكر فيه ممالك الفرنج في إقليمي الشرق ومصر أيام نور الدين محمود بن زنكي وأواخر الدولة الفاطمية. وغير ذلك. =

الباب الثاني

العلاقات التجارية

إن بلاد العرب محاطة بالبحار من ثلاثة جوانب، فهي شبه الجزيرة، كما أن الخضراء والحقول هي الأخرى ليست من القدر والسعة بما يكفي سكانها. فالبلاد مثل هذه لا بد أن تكون تجارية بالطبع. ومن حسن الحظ أن هذه البلاد يحدها البلدان الكبيرة من جميع الجوانب، فإذا كان يحدها العراق من جانب، فمن جانب آخر يحدها بلاد الشام، بينما تحدها بلاد مصر وإفريقيا من جانب ثالث، وأما الجانب الرابع فبلاد الهند من جهة وإيران من جهة أخرى. وكانت هناك علاقات مباشرة قديمة بين هذه البلدان وبلاد العرب. وفي هذا الكتاب لا نتحدث إلا عن علاقاتها ببلاد الهند.

إن البحرين وعمان وحضر موت واليمن والحجاز كلها مناطق تقع على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي وهي التي كانت بطبعها تتمتع بفرص التجارة البحرية.

وقد تكلمنا فيما مضى عن خريطة الطرق البحرية بين الهند والجزيرة العربية، وأوضحنا هناك أن السفن كانت تنطلق من سواحل الهند وترسو في

= المراجع
الوافي بالوفيات ٨/ ٢٥٢ ـ فوات الوفيات ١/ ١٢ ـ ذيل العبر ص/ ٢٧٥ ـ شذرات الذهب ٦/ ١٦٠ ـ النجوم الزاهرة ١٠/ ٣٣٤ ـ تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ٤١٠ ـ مقدمة كتاب مسالك الأبصار ـ زيدان/ ٣٤٣ ـ شوقي ضيف ٦/ ٤٢٠ ـ فروخ ٣/ ٧٦٢ ـ الأعلام ١/ ٢٥٤ ـ تراث الإسلام لأرنولد ص/ ١٤٥.

ميناء اليمن، ثم كانت تحمل بضائعها وتجاراتها على الجمال إلى بلاد الشام، ومصر عن الطرق البرية الموازية لسواحل البحر الأحمر، ومنها كانت تصدر إلى أوربا عبر بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط).

منذ عرفنا أحوال التجارة في العالم، وجدنا العرب مشغولين بالتجارة. كما وجدنا قوافلهم التجارية رائحة غادية إلى بلاد الشام ومصر عبر هذه الطرق نفسها.

وبين أيدينا الآن أقدم كتاب من كتب العالم في التاريخ الدولي، وهو التوراة التي نجد فيها قافلة تجارية تمر بهذه الطرق في عهد سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام بعد جيلين فقط من ذرية إبراهيم عليه السلام، وهي نفس القافلة التي ذهبت بيوسف إلى مصر (الميلاد ٣٧:٢٥). وقد ذكر المؤرخون اليونان أيضا هذه الطرق.

وخلاصة القول أن العرب هم الذين كانوا يتحكمون في التجارة الهندية منذ عهد يوسف عليه السلام حتى عصر فاسكودي غاما[١] وحتى عصر

(١) بحار برتغالي من الأشراف. عهد إليه الملك البرتغالي (إيمانويل الأول) قيادة حملة بحرية لاكتشاف طريق التوابل ونزع يد العرب عنها وعن تجارتها وأعد له أربع سفن مع بحارتها لتحقيق هذا الغرض. وفي ٨/ تموز سنة ١٤٩٧/م غادر البرتغال في ميناء (لشبونه). وفي ٢٢ تشرين الأول من ذلك العام اجتاز رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفه من قبل البحار بارتلمي دياز سنة ١٤٨٦/م - ٨٩١/هـ ويقف عنده ولم يتجاوزه. واجتاز فاسكودي غاما هذا الرأس ودخل بحر الهند ولقي فيه متاعب ومصاعب وخاصة في (موزانبق) و (ممباسا) وما عاناه من مقاومة أهلها. وفي ١٤/ نيسان ١٤٩٨/م رسا أسطوله في (مالندي) وفيها استقبل استقبالا حسنا ورحب به ملكها وأعطاه ملاحا يوصله إلى ساحل الهند. وفي ٣٠/ أيار سنة ١٤٩٨/م وصل فاسكودي غاما إلى (كاليكوت) على الساحل الشرقي للهند وبقي فيها ثلاثة أشهر وتفاوض مع صاحبها (زامورين) ثم أخذ يلقى صعوبات فقرر العودة إلى (لشبونه) ولما وصل=

وماركوبولو[١].

ولما استولى اليونان على مصر تولوا هذه التجارة مباشرة، ذلك لأن الطرق بين الشام ومصر كانت آمنة لهم، مما أدى إلى اضمحلال التجارة العربية التي

= إليها استقبله الملك (إيمانويل) وأنعم عليه ثم عاد مرتين إلى الهند ففي عام ١٥٠٢/م عاد وهو يحمل رتبة أمير البحور الهندية وفي عام ١٥٢٣/م عاد إلى الهند وهو يحمل رتبة حاكم الهند ونائب الملك وكان قد تقدم به العمر، فلم يتمكن من ممارسة مهمته سوى أربعة أشهر ومات ليلة عيد الميلاد تلك السنة.

المراجع

دائرة المعارف الفرنسية - تاريخ الأدب الجغرافي ص/ ٥٦٣ - مجلة المعرفة ١/٢٨ - المكتشفون المشاهير (بالفرنسية) ص/ ٥١ - ٥٠ - تحفة المجاهدين ص/ ١٥٤ (هامش) - الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر ص/ ٥٩ - ٧٥/.

(١) الباب العاشر من تاريخ الهند (التجارة) الفستين، هو ماركو بن نيقولا بن أندريا بولو. ولد سنة ١٢٥٤م وكان في السابعة عشرة من عمره لما بدأ رحلة مع أبيه وعمه إلى المشرق، فاجتازوا بلاد سلاجقة الروم بالأناضول ثم مملكة هولاكو بإيران ومنها إلى خراسان ثم هضبة (بامير) متبعين طريق الحرير الذي كان يربط الشرق الأقصى بالشرق الأدنى حتى وصلوا إلى الصين ودخلوا في (بكين) على (الخان الأكبر قوبيلاي) بن (تولوي بن جنكيز خان). وقد دخل ماركو في خدمته وجاب أنحاء الصين فيما كان يعهد إليه من مهمات، وروى بكثير من التفصيل ما شاهده من عادات وتقاليد في الحياة الاجتماعية ومن نشاط في الحياة الزراعية والتجارية والصناعية. وبعد أن أمضى نحوا من عشرين سنة في عالم كان مجهولا من الغرب عاد مع أبيه وعمه إلى وطنه. ولما عاد كانت الحرب قائمة بين جنوة والبندقية فتطوع فيها وأُسِرَ في حرب خسرها أهل البندقية وأمضى في أسره سنة روى فيها قصة رحلته إلى سجين معه ودوّنت في كتاب اسمه كتاب (عجائب الدنيا) وبه أصبح في عداد كبار الرحالة.

المراجع

موسوعة تاريخ العالم ٣/ ٩٧٦ - ٩٧٨ - قصة الحضارة ٣/ ٩٣٠ - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ٢/ ٤٦٥ - موسوعة لاروس - المستشرقون ١/ ٦٦ - تراث الإسلام لأرنولد ص/ ١٢١ - مشاهير الرحالة (بالفرنسية) ص/ ٣٠ - ٣٢.

كنا نلاحظها في الأعوام السابقة، يكتب صاحب المقال(العرب) في دائرة المعارف البريطانية:

"إن جنوب غربي بلاد العرب (اليمن وحضر موت) كان يعود سبب خيراتها في ذلك الزمن إلى أن التجارات والبضائع المتبادلة بين مصر والهند كانت ترد إلى اليمن أولا عبر الطرق البحرية، ثم كانت تحمل إلى الساحل الغربي عن طريق البر، انقطعت هذه التجارة في ذلك العصر ذلك أن ملوك مصر من أسرة بطليموس أوجدوا لأنفسهم طريقا مباشرا بين الهند والإسكندرية"[١].

يبدو أن اليونان كانوا قد أقاموا تحقيقا لهذا الغرض مستعمرات لهم في جزيرة سقوطرا بعد ما استولوا عليها، حيث اكتشف الملاحون المسلمون أيضا آثارهم هناك فيما بعد[٢].

ولكنه من الظاهر أن هذه التجارة لم تكن قد انتقلت بشكل كامل إلى أيدي اليونان، لأن المؤرخ اليوناني آكاتهرشيدس يذكر قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام بقرنين:

"أن السفن التجارية تنطلق من سواحل الهند إلى سبا(اليمن) ومنها تصل إلى مصر"[٣].

وكذلك يقول آرتي ميدروس الذي عاش قبل المسيح عليه السلام بقرن:

"إن سبا(شعب من اليمن) يشترون الأغراض والبضائع التجارية من

(١) الموسوعة البريطانية، الطبعة الحادية عشر ١/ ٢٦٤.

(٢) رحلة السيرافي ص٨٧ ـ ٨٨.

(٣) تاريخ الهند ١/ ١٨٢ عام ١٩١٦م الفنستن.

الشعوب المجاورة، ويسلمونها إلى جيرانهم. وهكذا تصل التجارات والبضائع يدا بيد إلى بلاد الشام والجزيرة"[١].

وهناك بيانات أخرى من هذا النوع تدل على أن العرب لم يكونوا قد بادوا وتلاشوا في ذلك العصر كليا، بل كانت أعمالهم أيضا مستمرة جنبا إلى جنب اليونان[٢].

والطريق الآخر بين العرب والهند والذي كان يمر عبر الخليج الفارسي بقي مفتوحا باستمرار، وظل العرب والمجوس الساكنون على السواحل ينقلون بضائعهم عن طريق البر والبحر، فكانوا يطوفون بجميع المناطق الساحلية من الهند والمحيط الهندي ويرحلون مرورا بمنطقة البنغال وآسام إلى الصين ويرجعون منها بنفس الطريق.

كان الطريق بين الهند وأوربا يتمتع بأهمية متناهية، حيث هذا هو الطريق الذي حدثت بواسطته ثورات وتطورات كبيرة في التاريخ العالمي. وقد سبق أن قلنا: إن هذا الطريق كان تحت سيطرة العرب خالصة أولا، ثم عندما استولى اليونان على مصر وذلك قبل الميلاد بثلاثة قرون تقريبا، استولوا على هذا الطريق البحري العام أيضا. ولما جاء الإسلام بعد الميلاد بستة قرون، وكانت للعرب جولة وصولة، امتد نفوذهم من مصر إلى إسبانيا، وسيطروا بالإضافة إلى ذلك على بحر الروم أيضا في القرن السادس الميلادي، وضموا أهم جزره مثل كريت، وقبرص أيضا إلى ممتلكاتهم مما أدى إلى وقوع أكبر طريق تجاري في العالم في أيدي العرب، وبقيت سيطرتهم عليه قرونا طويلة.

(١) التاريخ القديم لدنكر ١/ ٣١٠ و ٣١٢.

(٢) و إلى هذا ذهب الفنستن في دراساته، يرجع إلى تاريخه القديم ١/ ١٨٢ عام ١٩١٦م.

حاول الشعوب المسيحية الأوروبية إخراج العرب ودحرهم في القرن الرابع عشر الميلادي من الأراضي الرومية إلا أنه في الوقت الذي كانوا يحرزون نجاحا حيث انتصروا على العرب في إسبانيا وشمالي أفريقيا، وأمنوا لهم الطريق، فإذا بالأتراك نهضوا من آسيا الصغرى، وبقي هذا الطريق عبر بحر الروم بأيدي المسلمين أنفسهم. وأجبرت هذه المشكلة الأوروبيين على البحث عن طريق آخر إلى الهند، فشقوا لهم طريقا عن طريق جنوب أفريقيا بدلا من شمال أفريقيا وبحر الروم. واشترك في هذا الطريق الهولنديون والبرتغال والإنجليز فيما بعد، وبدءوا يتنازعون على التجارة الهندية التي كانت بيد العرب.

وجراء هذا النزاع وقعت بين الشرق والغرب معركة بحرية عنيفة أيضا على السواحل الهندية، انهزم فيها الشرق وكانت هذه الهزيمة بداية جميع الهزائم التالية التي لحقت بالشرق. وكانت تحارب في هذه المعركة الأساطيل الحربية لمختلف الحكومات المصرية والعربية وللهندوس والمسلمين من دكن مجتمعة ضد الشعوب الأوروبية ذات الخبرة في الملاحة البحرية. وكان من نتيجة هذه الهزيمة أن صارت جميع النشاطات التجارية التي كانت تتم في سواحل الهند وجزرها إلى أيدي الأوروبيين، ودمرت سفن العرب المقيمين بمدراس والذين كانوا يسمونهم (الموبلا)، وكانوا مسيطرين على تجارة ذلك الجزء من الهند وجزرها في ذلك الوقت تدميرا كاملا.

ومع ذلك لم يغب عن أذهان الأوروبيين فكرة الامتلاك والسيطرة على الطريق الأقرب من بحر الروم، فحفرت لجعل ذلك الطريق أقرب، قناة السويس في البر الضيق بين البحر الأحمر وبحر الروم، وتم الاستيلاء على

مصر، وقناة السويس لكي يتم لهم بذلك تأمين هذا الطريق التاريخي الأهم للأبد.

تلك هي الأحداث التي نجدها مسجلة في جميع كتب تواريخ الهند فيما يتعلق بتردد الأوربيين على الهند وجزرها لممارسة أعمالهم التجارية. وهي تلقي ضوءا على مختلف مراحل تاريخ العلاقات التجارية بين الهنود والعرب.

والطريق التجاري الآخر بين الهند والعرب والذي كان يمر عبر الخليج الفارسي بقي كما كان تحت سيطرة العرب إلا أنه بسبب تقلب الحكومات المختلفة في عمان وحضرموت والعراق وانهيار الموانئ وبنائها ظل المركز التجاري ينتقل من مدينة إلى أخرى أومن ميناء إلى آخر.

ميناء الأبلة

قبل استيلاء العرب على العراق عام ١٤هـ/ ٦٣٥م و في عصر الفرس كانت الأبلة أكبر الموانئ وأشهرها بالنسبة للهند في الخليج الفارسي، والتي كانت تقع على مقربة من البصرة، وكانت الرحلات والنشاطات التجارية بين الهند والأبلة بكثرة لدرجة أن العرب كانوا يعتبرونها جزءا من الهند، وبها كانت ترسو جميع السفن التجارية القادمة من الصين والهند ومنها كانت تنطلق إليهما[١].

إن الأهمية التي كانت تتمتع بها التجارات والمحاصيل الهندية عند العرب يمكن أن نقدرها من واقع أن عمر ﷺ سال سائحا عربيا[٢] مرة ما رأيك في الهند؟ فأجاب بجمل ثلاث موجزة إلا أنها أبلغ ما يمكن في الجواب فقال:

(١) معجم البلدان ١/ ٧٧.

(٢) الأخبار الطوال ص ٣٢٠.

"بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر"(1).

ففكر عمر ﵁ بعد فتح العراق في أن يضم هذا الميناء أيضا إلى ممتلكات المسلمين، فأمر بالاستيلاء عليه عام ١٤هـ/ ٦٣٥م، وكتب أن يجعل ذلك مدينة تجارية وقيروانا للمسلمين(2)، فبقي هذا الميناء منذ ذلك الحين قائما حتى عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م، ودمر في الحروب مع الزنوج(3).

والميناء الثاني المشهور (البصرة) في العراق كان قد بناه المسلمون في نفس عام ١٤هـ/ ٦٣٥م، إلا أنه لم يستطع أن يسلب الأبلة مكانتها التجارية المركزية. والسبب في ذلك ربما يعود إلى أن البصرة تحولت إلى مركز سياسي وعسكري للعرب أكثر من أن يكون مركزا تجاريا خالصا. وبالرغم من ذلك بدأت التجارة الهندية والصينية والحبشية تتجه نحوها بشكل تدريجي، فازدهرت البصرة رغم الانقلابات السياسية، وأصبحت محطة للوصول إلى الهند، وخاصة في أواخر القرن الأول من الهجرة بسبب استيلاء العرب على السند. وبلغت الضرائب الحاصلة من السفن التجارية مبلغا يشكل موردا كبيرا للدولة العباسية في بغداد، وبلغ الدخل السنوي ٢٢٥٧٥ دينارا في النهاية عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، وذلك على عهد الخليفة المقتدر بالله.

سيراف

كانت سيراف أكبر ميناء بالنسبة للهند في الخليج الفارسي بعد الأبلة. وكانت تقع على مسيرة سبعة أيام في الحدود الإيرانية. ازدهر هذا الميناء في

(١) الأخبار الطوال ص ٣٢١.
(٢) معجم البلدان ٢/ ١٩٦.
(٣) تاريخ البصرة للأعظمي ١١.

القرن الثالث للهجرة، وأصبح ملاذا ومركزا لكبار الملاحين والتجار البحريين، حيث كانت السفن تغدو وتروح إلى بلاد الهند والصين من نفس هذا الميناء، وبها كانت ترسو السفن القادمة من تلك البلدان. وكانت سيراف قد بلغت من الرقي والازدهار في القرن الثالث الهجري ما يقول عنه أبو زيد السيرافي:

"وهي الفرضة العظيمة لفارس، وهي مدينة عظيمة ليس بها سوى الأبنية حتى يجاوز على النظر عملها، وليس بها شيء من مأكول ولا مشروب ولا ملبوس إلا ما يُحمل إليها من البُلدان، ولا بها زرع ولا ضرع. ومع ذلك فهي أغنى بلاد فارس"(1).

وعندما زارها المقدسي في وسط القرن الرابع الهجري ورأى أحوالها حكى لنا عنها بقوله:

"ما رأيت في الإسلام أعجب من دورها ولا أحسن، قد بنيت من خشب الساج والآجر، شاهقة، تشترى الدار الواحدة بفوق المأة ألف درهم"(2).

وفي نفس الزمن تقريبا كان الاصطخري هو الآخر على زيارة لهذه المدينة، يقول الاصطخري:

"وأما كورة أردشير خُرّه فأكبر مدينة بها بعد شيراز، بسيراف، وهي تقارب شيراز في الكبر، وبناؤهم بالساج وخشب يُحمَل من بلاد الزنج، وأبنيتهم طبقات، وهي على شفير البحر مشتبكة البناء كثيرة الأهل يبالغون في نفقات الأبنية حتى إن الرجل من التجار لينفق على داره زيادة على ثلاثين ألف دينار

(١) معجم البلدان: كلمة سيراف.
(٢) أحسن التقاسيم ص ٤٢٦.

ويعملون فيها بساتين، وإنما سقيُها وفواكههم وأطيبُ مائهم من جبل مشرف عليهم يسمّى "جَمّ" وهو أعلى جبل به الصرود وسيراف أشدّ تلك المُدُن حرارة"[1].

يروي لنا المقدسي أنها كانت قد خربت ودمرت في عام ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦م بسبب الزلازل وبسبب الثورات التي واجهت سلطنة الديالمة، فحاول الناس[2] إعادة بنائها وأقاموها أيضا بالفعل، واستمرت لمدة من الزمن بكل نجاح إلا أن ياقوت الحموي الذي زارها في القرن السادس الهجري يقول:

"فمنذ عمّر ابن عميرة جزيرة قيس صارت فرضة الهند وإليها منقلب التجار، خربت سيراف وغيرها، ولقد رأيتُها وليس بها قوم إلاّ صعاليك ما أوجبَ لهم المقام بها إلاّ حبّ الوطن"[3].

قيس

قيس أو كيش هي عبارة عن جزيرة كانت في الخليج الفارسي على قرب من عمان، وكانت هذه الجزيرة قد انتزعت التجارة الهندية والصينية من سيراف واستولت عليها. و كان حاكمها هو ملك عمان. وعند ما رآها ياقوت في القرن السادس الهجري كانت هذه الجزيرة الصغيرة قد أصبحت بفضل التجارة الهندية جميلة ومزدانة بالخضراء للغاية، "وهي مَرْفأ مراكب الهند" ففيها ترسو جميع السفن التجارية الهندية، وكان من نتيجة هذه النشاطات التجارية أن قال ياقوت الحموي:

(١) معجم البلدان كلمة سيراف.
(٢) أحسن التقاسيم ص ٤٢٧.
(٣) معجم البلدان: كلمة سيراف.

"ولملكها هيبةٌ وقدرٌ عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيجه"[1].

يقول القزويني (عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) في آثار البلاد:

"جزيرة في بحر فارس دورها أربعة فراسخ، ومدينتها حسنة مليحة المنظر، ذات سور وأبواب وبساتين وعمارات، وهي مرفأ مراكب الهند والفرس ومنقلب التجارة ومتجر العرب والعجم...... يجلب منها كل أعجوبة وقعت في بلاد الهند"[2].

الموانئ الهندية

بدأنا نجد أسماء الموانئ الهندية منذ القرن الأول للهجرة، وتتكاثر هذه الأسماء حتى القرن الثالث للهجرة، و هي التي تبقى حتى النهاية. وكان أقربها للعرب بعد الخليج الفارسي ميناء بلوجستان (تيز)، ثم ميناء السند (الديبل)، وميناء تهانه، و،كنبايه، وسوبارة، وصيمور في الكجرات، وكولم ملي، ومليبار، وقمار في مدراس. وكانوا بعد ذلك يتوجهون نحو الجزر أو إلى قامرون (آسام) مرورا بالبنغال ثم منها إلى الصين.

هذه هي الموانئ التي نجد أسمائها في الجغرافية العربية. وقد كتب ابن حوقل في القرن العاشر للميلاد بالنسبة لميناء الديبل في السند أنه:

"والديبل من شرقي نهر مهران على البحر، وهي متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة"[3].

(١) معجم البلدان: كلمة قيس.
(٢) آثار البلاد و أخبار العباد ٩٦.
(٣) كتاب صورة الأرض ٢٧٩.

الطرق التجارية البحرية

وصف لنا سليمان التاجر في القرن الثالث للهجرة طرق هذه السفن التجارية، فيقول:

"وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف، فيعبأ في السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضع منه....

فإذا عبيء المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء، وخطفوا - وهذه لفظة يستعملها أهل البحر يعني يقلعون - إلى موضع يقال له مسقط، وهو آخر عمان، والمسافة من سيراف إليه نحو مائتي فرسخ،...

فيستعذب الماء من مسقط من بئر بها،.... وتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند، وتقصد كولم ملي،.... وفي كولم ملي مسلحة، لبلاد كولم ملي تجيء السفن الصينية وبها ماء عذب من آبار فيؤخذ من السفن الصينية ألف درهم ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير إلى عشرين دينارا"[1].

ثم نجد أبا زيد السيرافي بعد ٢٥ عاما تمضي على سليمان التاجر، يقول:

"ففي هذا البحر الذي عن يمين الهند الخارج عن عمان....ومنها إلى أرض عدن وسواحل اليمن وإلى جدة، ومن جدة إلى الجار إلى ساحل الشام، ثم تفضي إلى القلزم وينقطع البحر هناك،.... ثم ينعرج البحر من القلزم على أرض البربر ثم يتصل بالجانب الغربي الذي يقابل أرض اليمن، حتى يمر بأرض الحبشة... ومراكب أهل السيراف إذا وصلت في هذا البحر المتيامن عن بحر

(١) رحلة السيرافي ص٢٥ - ٢٦.

الهند فصارت إلى جدة أقامت بها، ونقل ما فيها من الأمتعة التي تحمل إلى مصر في مراكب القلزم،... إذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه.... وهو بحر مظلم كريه الروائح لا خير في بطنه ولا ظهره وليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر...."[1].

وأما ابن خردازبه الذي عاش في بداية القرن الثالث للهجرة، يقول وهو يمدح تجارة عدن (جدة):

"وهي من المرافئ العظام، و لا زرع بها و لا ضرع، و بها العنبر و العود و المسك، و متاع السند و الهند والصين و الزنج و الحبشة و فارس"[2].

كما أنه يبين لنا تفاصيل الطرق الهندية من ساحل البصرة و مسافاتها على هذا النحو:

من البصرة إلى جزيرة خارك	٥٠ فرسخا
من جزيرة خارك إلى جزيرة لاوان	٨٠
من جزيرة لاوان إلى جزيرة إبرون	٧
من جزيرة إبرون إلى جزيرة خين	٧
من جزيرة خين إلى جزيرة كيس	٧
من جزيرة كيس إلى جزيرة ابن كاوان	١٨
من ابن كاوان إلى جزيرة أرمز	٧
من جزيرة أرمز إلى ثارا	٧أيام

وهي الحد بين فارس و السند.

(١) رحلة السيرافي ٨٨ - ٨٩.
(٢) المسالك و الممالك ٦١.

ومن ثارا إلى الديبل	مسيرة ٨ أيام
ومن الديبل إلى مصب مهران نهر السند	فرسخان

ومن مهران (نهر السند) إلى أوتكين وهي أول أرض الهند مسيرة أربعة أيام.

من أوتكين إلى كولي	فرسخان
ومن كولي إلى سندان	١٨ فرسخا
ومن سندان إلى ملي	مسيرة ٥ أيام
ومن ملي إلى بلين	مسيرة يومين

ومن بلين تفرق الطرق في البحر، فمن أخذ من الساحل فمن بلين إلى بابتن مسيرة يومين.

ومن بابتن إلى السنجلي و كبشكان	مسيرة يوم
ومنها إلى كودافريد	٣فراسخ
ومنها إلى كيلكان	مسيرة يومين
ومنها إلى سمندر	١٠ فراسخ
ومنها إلى أورنشين	١٢فرسخا
ومن أخذ من بلين إلى سرنديب فهو	مسيرة يوم،..........

ومن أراد الصين عدل من بلين و جعل سرنديب عن يساره[1].

الطرق التجارية الأوربية الهندية عبر البلدان العربية

إن الرحلات التجارية بين الشرق والغرب لم تنقطع حتى بعد استيلاء العرب على مصر والشام وإيران وبحر الروم والقلزم والمحيط الهندي، لم يكن التجار المسلمون يذهبون إلى أوربا كما لم يكن الأوربيون يدخلون هذه البلدان.

(١) المسالك و الممالك ٦١-٦٦.

ولكن كان هناك بين هذين الشعبين شعب آخر وهم شعب اليهود الذين كانوا يعملون كوسطاء، فكانوا بوصفهم أهل الكتاب في البلدان الإسلامية. وأما أوربا فكانوا يعرفونها منذ زمن اليونان أنفسهم.

إن طرابزون التي تشكل حدا بين آسيا الصغرى وروسيا على ساحل البحر الأسود "كانت عامرة وكثيرة المتاجر لكونها ملتقى التجار المسلمين والنصارى"[1]، حيث كانوا لا يتجاوزونها، بينما كان التجار اليهود يجتازون كلا العالمين بكل سهولة.

يقول ابن خرداذبه:

"مسلك التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلبية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم(البحر الأحمر)، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار و جدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم، ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي، فيخرجون

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ١٤٦.

بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل، إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الأبلة، ومن الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض"[١].

التجار الروس

وبالإضافة إلى اليهود، فقد ذكر ابن خردازبه التجار الروس الذين كانوا يسلكون طريق البر والبحر كليهما، وكانوا يدعون المسيحية، (اعتنق الروس المسيحية في القرن العاشر الميلادي).

يذكر ابن خردازبه:

"وهم جنس من الصقالبة، فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم، وإن ساروا في تنيس نهر الصقالبة مروا بخمليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يسيرون إلى بحر جرجان فيخرجون في أنى سواحله.... وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد. ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية. فأما مسلكهم في البر فإن الخارج منه يخرج من الأندلس أو من فرنجة فيعبر إلى السوس الأقصى (شمال إفريقيا) فيصير إلى طنجة ثم إلى إفريقيا ثم إلى مصر ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين[٢]".

(١) المسالك والممالك ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٢) المسالك والممالك ١٥٤ ـ ١٥٥.

قافلة خراسان إلى الهند

إن المسعودي الذي جاء الهند فيما يقارب عام ٣٠٥ هـ/٩١٧م، وكان قد مر بخراسان و بلخ، يقول:

"و قد رأيت بمدينة بلخ شيخا جميلا ذا رأي و فهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة و لم يركب البحر قط، و رأيت عدة من الناس ممن سلك (من بلاد الصغد) على جبال النوشادر إلى أرض التبت و الصين ببلاد خراسان (و بلاد الهند متصل ببلاد خراسان) و السند مما يلي بلاد المنصورة و المولتان، و القوافل متصلة من السند إلى خراسان و كذلك إلى الهند، إلى أن تتصل هذه الديار ببلاد زابلستان" (أفغانستان) [١].

يقول ابن حوقل الذي عاش قبل المحمود الغزنوي بخمسين عاما في كابل وغزنين:

"إنها أيضا فرضة للهند، وطريقها سابل إلى كل جهة"[٢].

وأما أسيوان التي كان العرب يسمونها بعسيفان فكانت ولاية هندوسية في البنجاب، وبها أيضا كان التجار المسلمون إذ ذكر البلاذري:

"وحدثني أبو بكر مولى الكريزيين، أن بلدا يدعى العسيفان بين قشمير والملتان وكابل كان له ملك عاقل، وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنما، قد بنى عليه بيت، وأبدوه فمرض ابن الملك، فدعى سدنة ذلك البيت فقال لهم: أدعو الصنم أن يبريء ابني، فغابوا عنه ساعة، ثم أتوه فقالوا: قد دعوناه، وقد أجابنا

(١) مروج الذهب للمسعودي ١/ ١٥٧.
(٢) كتاب صورة الأرض ٣٧٥.

إلى ما سألناه، فلم يلبث الغلام أن مات، فوثب الملك على البيت فهدمه، وعلى الصنم فكسره، وعلى السدنة فقتلهم، ثم دعا قوما من تجار المسلمين فعرضوا عليه التوحيد، فوحد وأسلم، وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله رحمه الله"[1].

زمن الرحلات في المحيط الهندي

لقد قام المسعودي بتحديد أوقات المد والجزر والاضطراب والهدوء في البحر. وعلى هذا الأساس حدد شهور رحلات السفن وكتب أنه:

"ليس يكاد يقطع من عمان نحو الهند في انتهائه إلا مركب معزز، وحموله يسيرة، وتسمى هذه المراكب بعمان إذا قطعت أرض الهند في هذا الوقت التيرماهية، وذلك أن بلاد الهند وبحر الهند يكون فيه اليسارة وهو الشتاء ودوام الأمطار في كانون، و كانون و شباط عندنا صيف وعندهم الشتاء"[2].

ويحكي أبو زيد السيرافي أن السفن لا تجري في موسم المطر، وأن الهنود في هذا الموسم يشتغلون بالزراعة والأرض أو أية مهنة أخرى، وعلى هذا المطر تقوم معيشتهم. يزرعون فيه الأرز الذي يشكل غذائهم، حيث يقول:

" فإذا كانت اليسارة أقاموا في منازلهم... وأهل الصناعات يعالجون صنائعهم في هذه الأماكن هذه المدة،.... وبهذه اليسارة عيشهم..... لأن زراعتهم الأرز ولا قوت لهم سواه"[3].

(١) فتوح البلدان للبلاذري ١/ ٧٠١.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ١/ ١٤٨.

(٣) رحلة السيرافي ص ٨٣.

مصطلحات ملاحية هندية

في اللغة العربية

إن رحلات العرب البحرية على سواحل الهند تمخضت عن دخول بعض الأسماء الهندية المتعلقة بالسفن ومستلزماتها في الرحلات والجغرافية العربية، وعلى ألسن الملاحين الإيرانيين والعرب.

ومن هذه الكلمات كلمة البوارج واحدها "البارجة". لقد كتب البيروني أن هذه الكلمة في أصلها هندية، وهي "بيرة" يسميها العرب بارجة، (تتبدل الهاء بالجيم في اللغة العربية) وجمعها بوارج، بما أن بعض القراصنة على سواحل الهند كانوا يهاجمون مستخدمين نفس هذه السفن فإن العرب أطلقوا هذه الكلمة على القراصنة فيما بعد.

يقول البيروني:

"ثم البوارج لصوص، ومواضعهم (كچ وسومنات) وسموا بهذا الاسم لأنهم يتلصصون في الزواريق واسمها بيرة"[1].

كما أطلقت كلمة القرصان علي القطاع في بحر الروم. وتطلق كلمة "البارجة" اليوم على أساطيل السفن الحربية.

والكلمة الثانية كلمة "دونيج" بمعنى زورق أو قارب، وجمعها دوانيج، وهي كلمة معربة لأصلها الهندي دونجي"[2].

والكلمة الثالثة هوري وهي لا تزال مستخدمة في مناطق بومبائي.

(١) تحقيق ما للهند للبيروني ١٤٨، وعجائب الهند ١/ ١٠٥.

(٢) معجم البلدان: كلمة قيس، وعجائب الهند١/ ٦٦.

كما أن هناك ثلاث كلمات أخرى اخترعتها الهند أو الجزر الهندية، وهي لا تزال مجهولة الأصل، منها: بليج وهي تطلق على سقف السفينة، وجوش وهي تطلق على حبال السفينة، بالإضافة إلى كثير، وهي تطلق على حبال مفتولة من قشور النارجيلة تستخدم لشد السفن وخرز اللوحات الخشبية. وكل هذه الكلمات الثلاث هندية في الأصل[1].

وهناك كلمة أخرى وهي عبارة عن تاريخ مختصر للتجارة البحرية الشرقية الدولية، وهي كلمة ناخوذة جمعها نواخذة، إلا أن الهند تعرف شكلها الفارسي أكثر، أعني: "ناخدا". وهذه الكلمة في الأصل "ناؤ خدا" وكلمة خدا بالفارسية بمعنى المولى والمالك.

التجارات والمحاصيل الزراعية الهندية

ما ذا كان هؤلاء التجار العرب يأخذونه معهم من الهند وجزرها؟

يمكن أن نقدر ذلك ولو تقديرا سريعا من البيان الذي كان أدلى به رحالة عربي عام ١٤هـ/ ٦٣٥م أمام عمر رضي الله عنه بأن "بحرها در و جبلها ياقوت و شجرها عطر". وهذا يدل على أن العرب في القرن السادس المسيحي كانوا يحملون من الهند الدرر والجواهر والعطور.

ولما ذا لا تذهب السفن المغادرة من سيراف إلى مصر عن طريق البحر الأحمر وترجع من جدة إلى الهند؟

يرجع سبب ذلك سائح عربي في القرن التاسع للميلاد إلى أن القلزم:

" ليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر، وفي جباله

(١) سواء السبيل في المولد والدخيل د/ آرنولد.

الجوهر ومعادن الذهب، وفي أفواه دوابه العاج، وفي منابته الأبنوس والبقم والخيزران، وشجر العود والكافور والجوزبو والقرنفل والصندل وسائر الأفواه الطيبة الذكية وطيوره الفغاغي يعني الببغاوات والطواويس وحرشات أرضه الزباد وظباء المسك وما لا يحصيه أحد لكثرة خيره"[1].

وابن خرداذبه(٢٥٠هـ/ ٨٦٨م) الذي عاش بعد القرن الثامن للميلاد بقليل، يضع لنا قائمة بالمحاصيل الزراعية والبضائع التجارية الهندية التي كانت تحمل إلى العرب والعراق وهي:

"الأعواد، والصندلان، والكافور، والكافور والجوزبوا، والقرنفل، والقاقلة والكبابة والنارجيل، والثياب المتخذة من الحشيش والثياب القطنية المخملة والفيلة. ومن سرنديب الياقوت وألوانه كلها، وأشباهه، والماس والدر والبلور، والسنباذج الذي يعالج به الجوهر، ومن ملي وسندان الفلفل، ومن كله الرصاص القلعي ومن ناحية الجنوب البقم والداذي، ومن السند القسط والقنا والخيزران[2]".

وقد مدح المسعودي (٣٠٣هـ/ ٩١٥م) و البشاري[3] (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) كلاهما الأحذية التي كانت تصنع في كنبايه، و تصدر منها إلى الخارج، وهذا نص المسعودي:

" و رأيت مثل ذلك ببلاد كنبايه من أرض الهند، وهي المدينة التي تضاف إليها النعال الكنبائية الصرارة وفيها تعمل"[4].

(١) رحلة السيرافي ص٨٩.

(٢) المسالك و الممالك ٧١.

(٣) أحسن التقاسيم للبشاري المقدسي ٤٨٢.

(٤) مروج الذهب ١/ ١١٦.

وكانت أقمشة تهانه (بومباي) مشهورة جدا، وهي كانت إما تصنع هنا أو ترد من داخل البلاد، ولكنها ما كانت تصدر إلى الخارج إلا من هذا الميناء، وعلى كل حال، كانت تنسب إلى تهانه باسم "الثياب التانشية"[١].

يكتب مسعر بن مهلهل الذي زار الهند عام ٣٣١هـ/ ٩٤٢م، وطاف بمناطق جنوبي الهند، وهو يصف كولم:

"وتعمل بها غضائر[٢] تباع في بلادنا على أنه صيني وليس كذلك، لأن طين الصين أصلب من طين كولم، وأصبر على النار، وغضائر كولم لونها أدكن، وغضائر الصين أبيض وغيره من الألوان.

"بها منابت الساج المفرط الطول ربما جاوز مأة ذراع وأكثر، وبها البقم والخيزران والقنا بها كثير جدا، وبها الراوند وهو قرع ينبت هناك، ورقة الساذج الهندي العزيز الوجود لأجل أدوية العين، ويحمل منها أصناف العود والكافور واللبان"[٣].

كان هناك نوع من السموم في الهند يصدر إلى الخارج، سماه القزويني "بيش" وهي صورة محرفة لكلمة بس الهندية وهي تطلق على السم[٤].

الهيل

إن حبة الهيل مفرحة ومرغوب فيها للغاية وكذلك كلمة الهيل، يوجد بين المعبر والمليبار مدينة اسمها مدينة هيلي [٥].

---

(١) تقويم البلدان ٣٥٩.

(٢) معجم البلدان: كلمة غضار.

(٣) آثار البلاد و أخبار العباد ص١٠٧.

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد.

(٥) رحلة ابن بطوطة ٥٦١.

يقول أبوا الفداء:

"ووراء منجرور بثلاثة أيام جبل عظيم داخل في البحر يرى للمسافرين من بعيد و يسمى راس هيلي[١]" وإليها يرجع أصل كلمة الهيل. وهي مخزنها ومنبتها، يحتمل أن تكون كلمة أيل في السنسكريتية وهيل في الفارسية مأخوذة من رأس هيلي هذه. ومن أيل أخذت كلمة إلانتشي بالأردية كما أن العود الذي كان يصدر من مندل (المعبر) أصبح "مندل" بلغة العرب[٢].

يقول المسعودي في أواخر القرن العاشر للميلاد:

"يحمل من هذه الجزائر خشب البقم والخيزران والذهب[٣]"

كما يذكر ثروات المهراج على نحو ما يلي:

"وقد حازهذا الملك أنواع الطيب والأفاوية وليس لأحد من الملوك ماله، ومما يحمل من بلاده ويجهز من أرضه الكافور والعود والقرنفل والصندل والجوز والبسباسة والقاقلة والكبابة وغير ذلك مما لم نذكره[٤]".

ويذكر سليمان:

"أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة في زواريق منقورة من خشبة واحدة، ومعهم النارجيل وقصب السكر والموز وشراب النارجيل.... ويبيعون ذلك بقطع الحديد"[٥].

---

(١) تقويم البلدان٣٥٤.

(٢) آثار البلاد و أخبار العباد ص ١٢٤.

(٣) مروج الذهب ١/ ١٥٢.

(٤) مروج الذهب ١/ ١٥٤.

(٥) رحلة السيرافي ص ٢٧.

يكتب ابن الفقيه الهمذاني[١] (عام ٣٣٠هـ/ ٩٤١م) في كتابه "مختصر كتاب البلدان":

"خص الله عز وجل بلاد السند والهند بأنواع الطيب والجواهر كاليواقيت والألماس غير ذلك من الحجارة الثمينة، والكركندن والفيل والطاووس والأعواد والعنبر والقرنفل والسنبل والخولنجان والدارصيني والنارجيل والهليلج والتوتياء والقني والخيزران والبقم والصندل والساج والفلفل، وعجائب كثيرة"[٢].

الأدلة القديمة من اللغة العربية

ولمعرفة ما كان العرب يستوردونه من الهند من الأشياء توجد هناك عدة وسائل في اللغة العربية نفسها.

كانت السيوف الهندية مشهورة في البلاد العربية. ومن هنا نرى تسمية السيوف بالهندي والهندواني والمهند بشكل عام في اللغة العربية.

(١) هو أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذاني الشهير بابن الفقيه، أبو بكر. ولد ـ على الأرجح ـ بهمذان من أسرة اشتهرت بعلم الحديث والأدب. اشتهر بكتابه (مختصر تاريخ البلدان) وكتابه هذا ليس كتابا جغرافيا بالمعنى الصحيح، وإنما هو عبارة عن مقتطفات من معلومات تمت إلى الجغرافية، بما تضمنه من وصف الأرض والبحار والأنهار في الصين والهند وبلاد العرب ومصر وبلاد المغرب والشام وفلسطين وما بين النهرين وبلاد الروم. توفي بعد عام ٢٩٠هـ.

المراجع

أعلام الجغرافيين العرب ص/ ١٣١. تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ١٢٩ ـ ١٣١. دائرة المعارف الإسلامية مادة (ابن الفقيه). معجم الأدباء ٢ / ٦٣. الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص/ ٦٣.

(٢) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني ص٢٥١.

نضع فيما يلي قائمة بالألفاظ العربية التي هي هندية في أصلها وهي بذاتها تنم عن أصلها وموطنها. ومعظم هذه الألفاظ تتعلق بالأدوية والعطور والتوابل. حاولنا أن نبحث عن شكلها الهندي الأصيل لكي يتم التعارف عليها.

الأسماء العربية	الأسماء الهندية	الأسماء الأردوية
صندل	تشندن	صندل
مسك	موشكا	مسك
تنبول	تامبول	پان(تنبول)
كافور	كپور	كافور
قرنفل	كنك پهل	لونج
فلفل	پهلي/ پيلا	كول مرچ
فوفل	كوپل	دلي سپاري
زنجبيل	زرنجاپيرا	أدرك سونته
نيلوفر	نيلوپهل	نيلوفر
هيل	إيل	إيلائيچي

الأدوية

جائفل	جائ پهل	جائپهل
إطريفل	تري پهل	اطريفل
بليلج	بهيرا	بهيرا
هليلج	هرة	هليلة
بلادر	بهلاتكة	بهلاوه

وأما العود الهندي والقسط الهندي والساذج الهندي والقرطُم الهندي

والتمر الهندي فهي كلمات تحمل معها نسبتها وجنسيتها ظاهرة. و بما أن العود كان يذهب من كارو مندل فقد سماه العرب "مندل" نفسه[١].

أنواع الأقمشة

قرفس	كرباس	ململ
شيت	تشيت	
فوطة	بت	

الألوان

نيلج	نيل
قرمز	كرمج

الأثمار

موز	موشه	كيلا
نارجيل	ناريل	
أنبج	آم	
ليمون	ليمو (منها الكلمة الإنجليزية ليمن)	

هذه الكلمات تنطق بلسان حالها وتظهر أين ولدت ونشأت وأين اتخذت هذا الشكل الجديد والصيغة الجديدة.

(١) آثار البلاد و أخبار العباد ١٢٤.

ثلاث كلمات هندية في القرآن الكريم

اختلف العلماء اختلافات شديدة فيما إذا كان القرآن الكريم يتضمن كلمات غير عربية إلا أنهم توصلوا في النهاية إلى أن القرآن الكريم يتضمن من الكلمات غير العربية ما استخدمها العرب وأصبحت كلمة عربية بعد ما غيروا شكلها الأول. و قد جمع ابن حجر[١] والسيوطي[٢] الكلمات من هذا النوع الواردة في القرآن الكريم.

(١) هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكناني العسقلاني. أصله من (عسقلان) بفلسطين، مولده ووفاته بالقاهرة.

محدث، فقيه. تولى في القاهرة قضاء القضاة وتصدى لنشر الحديث، وأمضى في القضاء إحدى وعشرين سنة.

علت شهرته فقصده الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام في عصره.

له تصانيف منها: (فتح الباري في شرح البخاري) و (طبقات الحفاظ) و (الإعجاب ببيان الأنساب). و (الإصابة في تمييز الصحابة) و (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة)، و (رفع الإصر عن قضاة مصر) و (أسباب النزول) و (الإعلام بمن سمي محمداً قبل الإسلام) و (بذل الماعون في أخبار الطاعون) و (بلوغ المرام من أدلة الأحكام) و (نزهة الألباب في الألقاب) و (الأعلام فيمن ولي مصر في الإسلام) وغيرها. توفي عن /٧٩/ عاماً.

المراجع

حسن المحاضرة للسيوطي ١٧٠/ ١ ـ شذرات الذهب ٧/٢٧٠ ـ المنهل الصافي ٢/١٧ـ دائرة المعارف الإسلامية (ابن حجر) ـ النجوم الزاهرة ١٥/٥٣٢ ـ الضوء اللامع ٣٦/ ٥ـ الأعلام ١/١٧٣ ـ كتاب تاريخ الأدب العربي لفروخ ٨٥٠ / ٣ـ كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٢/١٧٤.

(٢) هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي. ولد بمدينة (أسيوط) بمصر وإليها نسبته. كان والده أبو بكر قاضيا بأسيوط. قدم والده إلى القاهرة وتولى التدريس في الجامع الشيخوني الذي بناه الملك المؤيد شيخ وسرعان ما توفي فنشأ ابنه عبد الرحمن يتيما ولما بلغ الخامسة عشرة من العمر شرع في الاشتغال بالعلم فتقدم بعدة علوم وأجيز بتدريس العربية.=

يجدر بنا نحن الهنود أيضا أن نفتخر بأن هناك كلمات من وطننا سعيدة لدرجة أن جعل لها مكان في هذا الكتاب المقدس المجيد.

إن الكلمات القرآنية التي نسبها العلماء في القديم إلى الهند لا تقوم على أساس من الصحة. فلو يقال مثلا بالنسبة لـ "ابلعي" بأنها هندية ومعناها "اشربي" بالهندية، أو نسبة كلمة "طوبى" إلى الهندية كما روي عن سعيد بن جبير، فهذا باطل لا أساس له[1]، ولكن مما لا شك فيه أن هناك ثلاث كلمات وهي عبارة عن ثلاثة عطور من هذا الوطن جاءت في وصف الجنة وهي المسك والزنجبيل والكافور.

= رحل إلى كثير من البلاد طلبا للمزيد من العلم فسافر إلى الشام والحجاز والهند وسافر إلى المغرب والسودان وتبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع، وكان مفاخرا بعلمه، كثير الادعاء، وكان يميل للجدل والمشاحنة.. وقد بلغ عدد مصنفاته أكثر من / ٣٥٠ / مؤلفا. ولم تخل الجغرافيا من اهتمامه من ذلك أنه وضع ملخصا لمعجم ياقوت الحموي، وفي كتابه (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) تراه يحمل طابعا جغرافيا.. وقد دون في عدة علوم وبلغ شأوا عظيما في بعضها ومنها: (الإتقان في علوم القرآن) و (الأشباه والنظائر) في فروع الشافعية و (الألفية في مصطلح الحديث) و (الألفية في النحو) و (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) و (تاريخ الخلفاء) و (تفسير الجلالين) و (شرح موطأ مالك) و (الدراري في أبناء السراري) و (طبقات الحفاظ) و (طبقات المفسرين) و (عقود الجمان في المعاني والبيان) و (اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة) و (اللباب المنقول في أسباب النزول) وغير ذلك كثير.

المراجع

شذرات الذهب ٥١ / ٨ ـ الكواكب السائرة ٢٢٩ / ١ ـ الضوء اللامع ٦٥ / ٤ ـ الأعلام ٧١ / ٤ ـ تاريخ الأدب الجغرافي ص / ٤٨٩ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٢٤٤ / ٣ ـ تاريخ الأدب العربي لفروخ ٨٩٨ / ٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية (السيوطي).

(١) الإتقان في علوم القرآن، النوع الثامن والثلاثون ص١٧٨.

الأدلة التوراتية على قدم تجارة العرب الهندية

نظرا لما سبق من بيانات وتحقيقات لغوية للألفاظ يجب أن نتأمل في هذه البيانات المختلفة في التوارة.

إن التجار الذين كانوا يترددون على أسواق مصر قبل المسيح عليه السلام بقرنين، كانت بضائعهم عبارة عن البلسان والصنوبر والعطور الأخرى، (الميلاد ٣٧:٢٦).

وإن الهدايا التي حملت ملكة اليمن معها إلى الشام لتقديمها إلى سليمان عليه السلام هي الأخرى كانت عبارة عن العطور والذهب والجواهر الثمينة (الأيام: الكتاب الثاني).

وفي عهد النبي حزقيال عليه السلام كان العرب هم الذين يحملون الفولاذ والساذج الهندي والتوابل من أوزال(اليمن) إلى الشام.

يقول النبي حزقيال:

"يجيئون من أوزال (اليمن) إلى سوقكم لبيع الفولاذ اللماع والساذج الهندي والتوابل".

ومن المعلوم جيدا أن اللوبان وأنواعا مختلفة من الأزهار العطرة كانت تنبت في اليمن نفسها إلا أن الفولاذ اللماع (السيوف) والساذج الهندي والتوابل لم تكن توجد إلا في الهند، وهي ما تزال حتى اليوم بلاد السيوف والساذج الهندي والتوابل.

ويتضح من ذلك جليا أن علاقة العرب التجارية بالهند قائمة منذ ما يزيد عن أكثر من ألفي قرن على الأقل.

التجارات والمحاصيل الزراعية الهندية

في نظر السياح العرب

أول وأهم ما يلفت أنظارالعرب من ثمار الهند النارجيل، يقول أبو زيد السيرافي في القرن التاسع للميلاد:

" وبعمان من يقصد إلى هذه الجزائر التي فيها النارجيل ومعهم آلات النجار وغيرها، فيقطعون من خشب النارجيل ما أرادوا، فإذا جف قطع ألواحا، ويفتلون من ليف النارجيل ما يخرزون به ذلك الخشب، ويستعملون منه مركبا وينحتون منه أدقالا، وينسجون من خوصه شراعا، ومن ليفه خرابات وهي القلوس عندنا، فإذا فرغوا من جميعه شحنت المراكب بالنارجيل فقصد بها عمان فبيع وعظمت بركته ومنفعته"(١).

ويعجبهم الليمون والأنبج بعد النارجيل إعجابا شديدا. يقول ابن حوقل (٣٥٠هـ/ ٩٦١م) في وصف السند:

"وبأرضهم ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمونة حامضة شديدة الحموضة. وبأرضهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الانبج، تقارب طعم الخوخ"(٢).

يذكر ابن حوقل محاصيل السند والكجرات وبضائعهما التجارية فيقول:

"المنصورة: وكانت تسمى في القديم برهمناباذ يوجد بها الليمونة و الانبج و قصب سكر، و اسعارهم رخيصة، و رها خصب"(٣).

(١) رحلة السيرافي ص٨٥ ـ ٨٦.

(٢) كتاب صورة الأرض لابن حوقل ٢٧٧.

(٣) كتاب صورة الأرض ٢٧٧.

"ومدينة الرور تقارب المولتان في الكبر، و عليها سواران، و هي على شطنهر مهران، أيضا وهي من حد المنصورة، خصبة رفهة و كثيرة التجارة"(١).

"الديبل من شرقي نهر مهران على البحر، و هي متجر عظيم و تجارتها من وجوه كثيرة، و هي فرضة هذه البلاد وغيرها و زروعهم مباخس، و ليس لهم كثير شجر، و لا نخيل هو بلد قشف، و إنما مقامهم للتجارة"(٢).

"قامهل إلى مكران فللبدهه، وقوم يعرفون بالميذ، وهم أهل الإبل و الجمل الفالج الذي يرغب فيه أهل خراسان وغيرهم من فارس وأشباهها للنتاج البخاتي البلخية والنوق السمرقندية"(٣).

"قنداييل مدية تجارية للبدهه وهم كالبادية من البربر، و لهم أخصاص و آجام يأوون إليها"(٤).

"صيمور وكنبايه: والغالب على زروعهم الأرز، ولهم العسل الكثير"(٥).

"كلوان فلها مباخس كثيرة، وزروع واسعة، وقرى غزيرة قليلة الثمر، كثيرة المواشي، و السائمة من كل نوع و جنس"(٦).

"كيزكانان وهي ناحية خصبة الأسعار، وبها أعناب وفواكه الصرود، ورمان حسن، وليس بها نخيل"(٧).

(١) كتاب صورة الأرض ٢٧٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) كتاب صورة الأرض ٢٧٩.

(٤) نفس المصدر.

(٥) كتاب صورة الأرض ٢٨٠.

(٦) كتاب صورة الأرض ٢٨٠.

(٧) نفس المصدر.

القنجبور: أكبر مدينة بمكران القنجبور، وبه فانيذ كثير وقصب سكر ونخيل»[1].

"قنابيل: وهي مدينة البدهه التي يتجرون إليها ويقصدونها بحوائجهم قنابيل»[2].

ويجيء بعده البشاري المقدسي (عام٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) ويقدم وصفا مفصلا لكل مدينة من المدن ويقول:

ويهند: قصبة جليلة أكبرمن المنصورة لها بساتين كثيرة طيبة نزيهة في مستوى موضوعة، أنهار غزيرة وأمطار عظيمة وأضداد مجتمعة وثمار حسنة وأشجار مديدة ونعم ظاهرة وأسعار رخيصة، العسل ثلاثة أمناء بدرهم، وعن رخص الخبز والألبان فلا تسأل. قد سلموا من المؤذيات وتخلصوا من العاهات واشتبكت حولها أشجار الجوز واللوز وكثر فيها الأرطاب والموز إلا أن هواءها رطب وحرها صعب وبناؤهم قشق وخشب وربما وقع الحريق في بناء القصب. تشاكل فسا وسابور لولا هذه العيوب.

قنوج: قصبة كبيرة لها ربض ومدينة بها لحوم كثيرة ومياه غزيرة وبساتين محيطة ووجوه حسنة وماء صحيح وبلد فسيح، متجر ربيح وكل صبيح، وموز رخيص، إلا إنها كثيرة الحريق قليلة الدقيق، أكلهم الأرز ولبسهم الأزر.

الملتان: تكون مثل المنصورة غير أنها أعمر ليست بكثيرة الثمار غيرإنها رخيصة الأسعار، الخبز ثلاثون منا بدرهم والفانيد ثلاثة أمناء بدرهم، حسنة تشاكل دور سيراف من خشب الساج طبقات. ليس عندهم زنا ولا شرب خمر،

(١) كتاب صورة الأرض ٢٨١.
(٢) كتاب صورة الأرض ٢٧٩.

ومن ظفروا به يفعل ذلك قتلوه أو حدوه، ولا يكذبون في بيع ولا يبخسون في كيل ولا يخسرون في وزن، يحمون الغرباء وأكثرهم عرب شربهم من نهر غزير والخير بها كثير والتجارات حسنة والنعم ظاهرة.

ويحمل من طواران الفانيذ أجود من ماسكان، ومن سندان الأرز الكثير وثياب، ويعمل بسائر الإقليم من البسط وما يجري مجراها ما يعمل بقهستان خراسان، ويحمل منه نارجيل كثير وثياب حسنة، ومن المنصورة النعال الكنباتية النفيسة ومنه تحمل الفيلة والعاج والأشياء الرفيعة والعقاقير النافعة.منهم بطوران مكي وكذلك بالملتان والسند والهند.

وخصائصهم ليمونتهم وهي ثمرة مثل المشمش حامضة جداً وأخرى مثل الخوخ يسمونه الأبنج لذيذ، والفالج الذي تراه بالمشرق وفارس يولد البخاتي وهو أعظم من البخت له سنامان مليح لا يستعمل ولا يملكه إلا الملوك ولا تكون البخت إلا منه. والنعال الكنباتية[1].

إن الأقمشة الرقيقة التي كانت تصنع في الهند حازت على إعجاب الناس منذ الأبد، فقد ذكر كل شعب ما يدل على أن الهند كانت تنسج وتصنع أرق ما يمكن من القماش، و يقال إن الأقمشة الرقيقة التي لفت فيها المومياء المصرية كانت من صنع الهند. وإن كان هذا من الظنون إلا أن رحالة عربيا في القرن الثامن للميلاد وهو سليمان التاجر يصف منطقة من مناطق الهند فيقول:

" وفي بلاده الثياب التي ليس لأحد مثلها، يدخل الثوب منها في حلقة خاتم دقة وحسنا، وهو من قطن، وقد رأينا بعضها»[2].

(١) أحسن التقاسيم للبشاري.
(٢) رحلة السيرافي ص ٣٥.

كان العرب يذهبون بقرون الكركدن أيضا إلى الصين، وكانت تحفر فيها الصور، وتصنع منها المناطق (الحياصة) و كانت كل منطقة منها تقدر قيمتها بآلاف من الدنانير.

يقول سليمان التاجر:

"وهو في هذه المملكة كثير في غياضهم وهو في سائر بلاد الهند غير أن قرون هذا أجود، فربما كان في القرن صورة رجل وصورة طاووس وصورة سمكة وسائر الصور، وأهل الصين يتخذون منها المناطق، وتبلغ المنطقة الواحدة ببلاد الصين ألفي دينار وثلاثة آلاف وأكثر على قدر حسن الصورة"(١).

وكان هناك حيوان يستخرج من عرقه العطر كان التجار العرب يأخذونه من الهند إلى مراكش، **(تحفة الأحباب)** كما كان الملح الأسود هو الآخر يصدر من الهند إلى الخارج.

وأما التنبول فقد ذكره المسعودي من العرب بكل تفصيل وإسهاب، وإن كان هذا البيان قد مضى عليه تسعة قرون من الزمن، يقول المسعودي:

"والتنبول في بلادهم ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج، يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل، وهو الذي غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن في هذا الوقت مضغه بدلا من الطين، ويكون عند الصنادلة للورم وغير ذلك. وهذا إذا مضغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شد اللثة، وقوى عمود الأسنان، وطيب النكهة وأزال الرطوبة المؤذية وشهى الطعام، وبعث على الباه، وحمر الأسنان حتى تكون كأحمر ما يكون من حب

(١) رحلة السيرافي ص ٣٦.

الرمان، وأحدث في النفس طربا وأريحية، وقوى البدن وأثار من النكهة روائح طيبة. والهند خواصها وعوامها تستقبح من أسنانه بيض وتجتنب من لا يمضع ما وصفنا"(١).

وهذا البيان جاء ضمنا في هذا المقام، حيث لم يكن من الممكن توصيل الشيء اللطيف كهذا في ذلك الوقت إلى البلاد العربية، ولكن الفوفل كان يصل إليها باستمرار. يقول المسعودي في عام ٣٠٥هـ/ ٩١٧م:

"الفوفل وهو الذي غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن في هذا الوقت مضغه بدلا من الطين"(٢).

وقد بدأ التنبول هو الآخر يصل في عصرنا هذا إلى عدن بخضرته و نضارته بكثرة، وهذا من بركة تواضع أهل الهند.

وعلى كل حال، ما يزال الفوفل الهندي يصل إلى البلاد العربية منذ ذلك الوقت.

وأما العود فكان مشهورا بين العرب ما كان يصدر منه من رأس كماري. وبما أنهم كانوا يسمون رأس كماري بالقمار فإن العود صار مشهورا عندهم بالعود القماري(٣)، بينما كان المسك يصدر من التبت(٤) وألماس من جبال كشمير(٥).

(١) مروج الذهب ١/ ٢١٠.
(٢) مروج الذهب ١/ ٢١٠.
(٣) رحلة السيرافي ص ٦٨.
(٤) رحلة السيرافي ص٧٥-٧٦.
(٥) عجائب الهند٢/ ١١٦.

الواردات البحرية للهند

وأما هذه الأشياء فقد كانت تصدر من الهند. ولكن ما هي الأشياء التي كانت الهند تستوردها مقابل ذلك من البلاد العربية؟ فأما أهل الجزر فكانوا يشترون حاجاتهم مثل الثياب بينما كتب العرب بالنسبة لبعض الجزر أن أهلها يعيشون عريانا ولا يأخذون الأقمشة بل يشترون الحديد[١].

في القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد) كان هناك طلب في الهند على العملات الذهبية المسبوكة في السند. وكان دينار واحد يباع في الهند بثلاثة دنانير، كما أن الخواتم المصنوعة من الزمرد كانت تستورد من مصر، وتوضع بكل اهتمام وعناية في العلب الصغيرة، بالإضافة إلى المرجان والدهنج وهو حجر عادي فقد كان لهما طلب شديد في الهند[٢]، كما كانت الخمر هي الأخرى تصل من مصر. فكانوا " يستعملون المزر نبيذ أهل مصر[٣]" و"من المغرب الديباج وجلود الخز والفراء والسمور والجلود والسيوف[٤]"، وماء الورد من إيران وكان شهيرا جدا،[٥] وكان يجلب إليه (إلى الديبل) التمر من ميناء البصرة[٦]، و كانت قصبة المعبر يجلب إليها الخيول من البلاد[٧] العربية.

(١) رحلة السيرافي ص٢٧.
(٢) رحلة السيرافي ص٩٤.
(٣) كتاب صورة الأرض ٢٨٠.
(٤) المسالك والممالك ١٥٣.
(٥) كتاب صورة الأرض ٢٦٠.
(٦) تقويم البلدان ٣٤٩.
(٧) تقويم البلدان ٣٥٥.

هل كان الهنود أيضا يمارسون الملاحة؟

لم يرد ذكر الهنود في أي من التجارات الخارجية سواء كانت برا أو بحرا، كما لم يذكر أسمائهم أحد من البحارين والملاحين. فقد خلت من أسمائهم جميع الرحلات والتواريخ الجغرافية التي كتبها اليونان إلى العرب، ولم تتحدث إلا عن اليونان والروم والعرب فقط بوصفهم تجار الهند البحريين، حتى أن ماركوبولو هو الآخر لم يذكر من التجار البحريين إلا العرب، مما أدى بألفنتستن إلى القول بأن الهنود بقوا في نهر السند والكنغ يجدفون السفن الصغيرة والدوانيج، ويترددون على السواحل الداخلية من ميناء إلى آخر، ولم يتشجعوا أبدا على أن يعبروا البحر، وحتى في عصر الإسكندر لم يلق اليونان لا السفن الكبيرة ولا ربانيتها، بل وجدوا صياد السمك الذين كانوا يصيدون الأسماك في السفن الصغيرة والدوانيج. وأما أهل المعبر فلا شك أنهم تجرءوا على الذهاب إلى جزر الزابج[١].

غير أنني أختلف مع هؤلاء الدارسين في دراستهم حيث أرى أن الهنود إن لم يكن الجميع، فأهل السند والكجرات على الأقل يجب أن يتم استثناؤهم من هذا البيان، لأن كتاب قوانين منو[٢] تتضمن فقرة تدل دلالة واضحة على أنه كان هناك أناس في ذلك العصر يعرفون رحلات البحار وتلك الفقرة هي:

(١) تاريخ الهند الباب العاشر باب التجارة لألفنستن.
(٢) قوانين (منو): وضعت في القرن الثالث قبل الميلاد في العصر الويدي الثاني، عصر انتصار الهندوسية على الإلحاد الذي تمثل في (الجينية والبوذية). وهذه القوانين عبارة عن شرح للويدات بين معالم الهندوسية ومبادئها وأسسها.

"لا تأخذوا من الفوائد في الرحلات البحرية إلا ما يقرره أهل المعرفة بالخير والعافية والبلاد والوقت بأنها فائدة"[١].

يذكر المؤرخ اليوناني(آرين) في أحوال الإسكندر اليوناني:

"أنه اضطر في الهند إلى أن يصنع سفينته بنفسه" ولكنه يضيف أيضا "أن الطبقة الرابعة من الهندوس عبارة عمن يصنع السفن البحرية ويديرها ويجدفها، ملاحون يعبرون البحار"[٢].

كما يتبين من إحدى التصريحات اليونانية أنه في جزيرة بمصب البحر الأحمر، وربما يراد بها جزيرة سقوطرة يوجد سكان من الهندوس متعايشين مع العرب واليونان[٣].

ومما لا شك فيه أن المالديف ولنكا وجاوه والجزر الملاوية الأخرى كانت أجزاء كثيرة منها معمورة بالسكان الهندوس، إذ تدل عاداتهم ودياناتهم بل ولغاتهم هي الأخرى تدل على كونهم من الهندوس. ولذلك اعتبر الرحالة والتجار العرب هذه الجزر جزءا من الهند، ووصفوها كذلك. بل ورحالة القرن التاسع للميلاد أبو زيد يقول عن القمار بأنها كانت من مفتوحات المهراج:

"... القمار وهي الأرض التي يجلب منها العود القماري... مسامتة لمملكة المهراج"[٤].

ويجدر بالذكر أن العرب كانوا يسمون ملك الزابج بالمهراج دائما، ووصفوا هذه الجزيرة على أنها مملكة المهراج.

(١) كتاب قوانين منو.
(٢) الفنستن ١/ ١٨٢.
(٣) نفس المصدر ١٨٣.
(٤) رحلة السيرافي ص٦٨.

وفوق ذلك، يقول أبو زيد السيرافي في القرن التاسع للميلاد:

" منهم صنف لا يأكلون اثنان منهم في غضارة واحدة ولا على مائدة واحدة، يجدون ذلك عيبا فاحشا، فإذا وردوا سيراف فدعاهم وجه من وجوه التجار وكانوا مائة نفس أو دونها أو فوقها احتاج أن يضع بين يدي كل رجل منهم طبقا فيه ما يأكله لا يشاركه فيه سواه" [١].

ويتجلى من هذه الفقرات أنهم كانوا قد بدءوا يترددون وبأعداد كبيرة على ميناء العراق، وعلى الأقل في عصر المسلمين، كما أن العرب أيضا ذكروا رحلات الهندوس البحرية من البنجاب إلى السند[٢].

بالإضافة إلى ذلك هناك شهادة أخرى، وهي أن الربان بزرك بن شهريار ذكر التجار الهندوس كالبحارين الآخرين باسم "بانانية" في عشرات من المواضع من كتابه عجائب الهند، بل استخدم كلمتين في موضع منفصلتين "بانانية وتاجر"[٣]. والمراد بهما التجار الهندوس والتجار العرب. وما زال التجار الهندوس يعرفون في البلاد العربية بـ"بانيه" مفردا و"بانانيه" جمعا، ولهم أعمال تجارية حتى اليوم في العراق وعمان والسودان ومصر وبورت سعيد والقاهرة. وقد اجتمعت بهم في رحلاتي إلى الحجاز ومصر أيضا.

هؤلاء الهندوس يتكلمون اللغة العامية بطلاقة لا يقدر عليها حتى علماءنا الجيدون. ومعظمهم من السند والملتان والكجرات، ولهم جولات ورحلات

(١) رحلة السيرافي ص٩٣.
(٢) عجائب الهند.
(٣) عجائب الهند١/ ٥٢.

منذ زمن بعيد. فهم موجودون في السفن العربية على مقربة من اليمن[١] حتى في عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م.

السفن في المحيط الهندي

إن السفن التي كانت تمخر عباب المحيط الهندي والتي كانت في بحر الروم كان بينهما فرق خاص يميز إحداهما عن الأخرى حيث كانت لوحات السفن في بحر الروم مسمرة بعضها ببعض بمسامير بينما كانت لوحات السفن الماخرة في المحيط الهندي مخروزة بالحبال، يقول السيرافي:

" وذلك أن الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة"[٢].

وكانت هذه السفن من الكبر والاتساع بحيث أنها كانت تشتمل على طابقين وغرف منفصلة ومخزونات من الطعام والشراب، ومخازن للبضائع والتجارات بالإضافة إلى مقاعد للمسافرين. وكان الحمالون والملاحون والرماة من المقاتلة لحماية السفن يبلغ عددهم هم الآخرين إلى ألف[٣].

يحكي لنا الربان بزرك بن شهريار قصة كارثة بحرية حدثت عام ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، فيقول:

"خرجت في مركب من سيراف في سنة ست وثلاثمأة يريد صيمور. وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد ومركب سبا. وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية

(١) عجائب الهند/٢ /١٣٦.
(٢) رحلة السيرافي ص٦٥.
(٣) رحلة ابن بطوطة ٥٢٢ و ٥٦٥.

الكبر، ومن المراكب الموصوفة في البحر، ونواخذتها مشهورون، لهم قدر ومنزلة في البحر، وفي المراكب ألف ومأتان رجل من التجار والنواخذة والبانانية والتجار وغيرهم من صنوف الناس. وفيها من الأموال والأمتعة ما لا يعرف مقداره لكثرته. فلما سرنا أحد عشر يوما رأينا آثار الجبال ولوائح أرض سندان وتانه وصيمور"[١].

ويتبين من هذا أن هذه السفن كانت كبيرة لدرجة أن تتسع لأربعمائة شخص من المسافرين بالإضافة إلى البضائع والتجارات والملاحين والحمالين. وكانت السفن المتجهة إلى الصين من الكبر والاتساع بحيث كان:

"يخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستمأة، ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية، وهم الذين يرمون بالنفط، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة، النصفي والثلثي والربعي"[٢].

وذلك للظروف الطارئة.

عائدات التجارة البحرية

إن التجارة في المحيط الهندي كانت تعود بخيراتها على كل من الهند والبلاد العربية، ويمكن أن نقدر عائدات هذه التجارة بما ورد في بعض الوقائع. فقد كانت مهانكر (الماتكير) عاصمة البلهرا تعتبر مدينة الذهب، كما كان عدد الدكاكين في أسواق جزيرة جاوه عاصمة المهراجا يفوق العد والحصر، حيث كان عدد الصيارف المتفرقين في هذه السوق يبلغ ٨٠٠ صيرفي[٣]. وكان في

(١) عجائب الهند ٢/ ١٣٦.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٦٥ ذكر مراكب الصين.
(٣) عجائب الهند ٢/ ١٢١.

عمان شخص يتاجر في الدرر، وحصل هذا التاجر مرة على درتين نادرتين دفع له الخليفة الرشيد ببغداد مئة ألف درهم بهما"[1].

و قد ذكر أحد الربانين وهو إسماعيلوية الناخذا قال:

"اجتمع لي في كرة واحدة وردت فيها من كلة إلى عمان وذلك في سنة سبعة عشر وثلاثمأة، مال لم يجتمع لناخذا قبلي، خطفت من كلة فلقيني في طريقي سبعون بارجة، فحاربتهم ثلاثة أيام متوالية، وأحرقت عدة منها، وقتلت جماعة وتخلصت وقطعت من كلة إلى أن وصلت إلى شط العرب يعني شحر لبان في أحد وأربعين يوما، فأخذ السلطان بعمان من عشور الأمتعة التي في مركبي ستمأة ألف دينار، وترك علي الناس من العشور في بضائع وغير ذلك مما سامحهم فيه ما لعله يكون مأة ألف دينار سوى ما سرق من العشور ولم يوقف عليه"[2]........

"ومن طريف أخبار تجار البحر ومن ركبه و استغنى فيه ما حدث عن إسحاق اليهودي وكان رجلا يتصرف مع الدلالين بعمان، فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فهرب من عمان إلى بلاد الهند، ومعه نحو مأتي دينار لم يكن يملك سواها، وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة لا يعرف له خبر، فلما كان في سنة ثلاثمأة ورد عمان، في مركب لنفسه، وجميع ما فيه له، وقاطع أحمد بن هلال صاحب عمان عن المركب لئلا يحصي ما فيه و يعشر عليه على ألف ألف درهم، ونيف، و باع على أحمد بن مروان دفعة واحدة مأة ألف مثقال من المسك الفائق، وقدر ابن مروان أنه ليس معه غير هذا المقدار. فباع على أحمد

(١) عجائب الهند٢/ ١٢١.

(٢) عجائب الهند ٢/ ١١٧.

بن مروان بردا بأربعين ألف دينار دفعة أخرى، وباع على رجل آخر بعشرين ألف دينار دفعة أخرى"[1].

كما" حكى أن رجلا خرج من عمان ولا شيء معه، وعاد ومعه مركب به مسك ألف دينار، وثياب وحرير وصيني بمثلها، وجواهر وأحجار ظريفة بمثلها، ومن غرائب نوادر الصين ما لا يحصى، وهو شيخ لا ولد له، وأن أحمد بن هلال أخذ منه من الأمتعة خمسمأة ألف دينار"[2].

ومن جهة أخرى، كان الملوك الهنود على السواحل الهندية هم الآخرون تحصل لهم العائدات الكبيرة من التجار العرب، فكانوا يقدرونهم تقديرا كبيرا[3]. وقد كتب ابن بطوطة في مواضع عديدة فيما كتبه عن رحلاته في المدن الساحلية في جنوبي الهند أن الملوك الهنود يحاولون استرضاء الملاحين العرب لأن عائدات بلادهم تتوقف على رحلاتهم التجارية. وكان ملوك المعبر وكالي كوت يمتلكون بسبب هذه التجارة البحرية ثروات هائلة ضخمة، حيث احتاج عامل مسلم في بلاط ملك المعبر إلى ٧ آلاف ثور لحمل ما حصل له من الذهب والمجوهرات عند وفاة الملك. وعند ما فتح الملك كافور قائد القواد لعلاء الدين الخلجي مدينة المعبر هذه ذات مرة استولى بالإضافة إلى أشياء أخرى من الخزائن الملكية على ٩٦ألف من من الذهب و ٥٠٠ من من الدرر والجواهر[4]. وبغض النظر عن الدرر والجواهر، فقد كان الذهب وحده بهذا

(١) عجائب الهند ١/ ١٠٢.

(٢) عجائب الهند ١/ ١٠٢.

(٣) معجم البلدان: كلمة قيس.

(٤) جامع التواريخ، مدرجات أيليوت، ١/ ٦٩ ـ ٧٠، وتاريخ وصاف ٢/ ٣٢ـ ٥٣.

المقدار الكبير، حيث يمكن أن يقدر بما يبلغ ٢٦ مئة ألف، وثمانية وثمانين ألف رطل انجليزي.

كانت التجارة في المعبر تعتمد اعتمادا كليا على سواحل العراق والبلاد العربية وفارس كما سيجيء تفصيله لاحقا.

كان العرب قد اكتشفوا طريقا بحريا آخر إلى الهند عبر البحر المتوسط

وقد مر فيما سبق كيف وجد الملاحون البرتغال طريقا إلى الهند عبر ظهر إفريقيا بدلا من البحر المتوسط، ولا يعتبر هذا الاكتشاف إلا من حسنات هؤلاء الملاحين. ولكن الذي يبعث على العجب أن هذا الاكتشاف يعود الفضل فيه إلى التجار العرب قبل قرون من عهد البرتغال، حيث كانوا يسيرون سفنهم في المحيط الهندي. وقد اتضح فيما سبق ما كان يوجد من فرق بين السفن التي كانت تسير في المحيط الهندي وأخواتها في البحر المتوسط. وكان أكبر فرق يتمثل في أن اللوحات في سفن البحر المتوسط كانت مسمرة بينما كانت لوحات سفن المحيط الهندي مخرزة بحبال قوية من النارجيل، يقول سليمان التاجر الذي ورد اسمه مرارا وتكرارا في موضع من رحلاته:

"و مما حدث في زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا أنه لم يكن أحد يقدر أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام، ولا يقوم في أنفسهم حتى كان في عصرنا هذا، فإنه بلغنا أنه وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخرزة التي قد تكسرت بأهلها فقطعها الموج وساقتها الرياح بأمواج البحر فقذفته إلى بحر الخزر، ثم جرى في خليج الروم، ونفذ منه إلى بحر الروم

والشام........، وأن الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة"[(١)].

من الذي أوصل فاسكودي غاما إلى الهند

لا شك في أن الملاحين البرتغال دخلوا المحيط الهندي في النهاية عن طريق ظهر إفريقيا، إلا أنه لم يهتدوا إلى الهند، وهذا ما يعترف به البرتغال أيضا، كما يعترف العرب، وذلك من سوء حظهم بأن الملاح العربي هو الذي أوصل البرتغال إلى الهند وكان اسمه ابن ماجد[(٢)]، و كان يلقب بأسد البحر.

(١) رحلة السيرافي ص٦٥.

(٢) هو شهاب الدين أحمد بن ماجد ملاح عربي مشهور. نشأ في مدينة (جلفار) حاليا (رأس الخمية) وهي اليوم إحدى الإمارات العربية المتحدة بالخليج العربي. اشتهر ابن ماجد بعلمه في شئون البحار وفي كل ما يتصل بعلم الملاحة والفلك، وخلف الكثير من أعماله في مختلف العلوم الملاحية والفلكية وذكر في مؤلفاته أسماء الجزر والبلدان والسواحل والقياسات البحرية ومطالع النجوم وطريقة استخراج القبلة وشرح المسالك البحرية بين ساحل وآخر ودون علمه ومعرفته في أراجيز عديدة وفي مؤلفات منها كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) وهو من أكبر أعماله ويشتمل على عدة مواضيع في الملاحة وعلم الفلك وأهمها الطرق الملاحية في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي وأرخبيل الهند الشرقية (الملايو وأندونيسيا) ويعتبر علم الملاحة الفلكية من أهم أعمال ابن ماجد، فقد كانت قياساته دقيقة ومبتكرة، كذلك كانت مشاهداته للنجوم ومطالعها ومغاربها. وقد قدم فيما أبدع من علم الملاحة والفلك الكثير مما كان له الأثر الكبير في تقدم علم الملاحة والفلك. ويزعم قطب الدين النهروالي الهندي المتوفى سنة ٩٩٠ / هـ في كتابه (البرق اليماني في الفتح العثماني) أن ابن ماجد دل كبير الفرنج ـ وهم البرتغال ـ وكان يقال له الملندي **malindi** إلى طريق الهند بعد أن سقاه خمرا حتى ثمل. ومثل هذا القول لا يعول عليه من رجل كالنهروالي، فهو لم يعاصر ابن ماجد وكان يكره العرب ويحب الأتراك ويمدح ملوكهم، وقوله في ابن ماجد لم يجاره فيه أحد ذلك أن ابن ماجد على علو مقامه في علوم البحر كان متدينا يكره البرتغاليين=

وله كتب عديدة في موضوع الملاحة في المحيط الهندي موجودة في مكتبة باريس. وقام بنشرها بال كاتهنز ناشر الكتب الشرقية قبل عدة سنوات في مجلدين، وأما المجلد الثالث فهو يحتوي مباحث الملاحة العربية وآلاتها. وهذا المجلد الثالث نفسه يذكر نقلا عن كتاب "البرق اليماني في الفتح

= ويكره غيرهم من الأجانب الذين ينتقصون حق العرب، وله مؤلفات تدل على علو كعبه في علوم البحر. وكان يكره البرتغال وله فيهم قول سوء مستمد من شدة تدينه وقوة عقيدته. ويرى كرتشوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي) يدافع عن أحمد بن ماجد وينفي عنه تهمة السكر لأنه كان قوي الإيمان. وفي كتاب (المحيط) الذي ألفه الربان العثماني الشهير (سيدي علي بن حسين جلبي) المتوفى عام ٩٦٦/هـ وصف رحلته إلى الخليج العربي سنة ٩٦١/هـ وفيه نجده يذكر ابن ماجد وما أفاد من كتبه وكتب التجار أمثاله ويثني عليهم ولا يذكر شيئا مما نسبه النهروالي إليه من مساعدته (فاسكو دي غاما) في الكشف عن طريق الهند وهو حدث عظيم ما كان ليخفي ذكره الملاحون المعاصرون لابن ماجد أو أولئك الذين اتصل بهم سيدي علي مع العلم أن سيدي علي المتوفى عام ٩٦٦/هـ أقرب زمنا لابن ماجد من النهروالي المتوفى عام ٩٩٠/هـ. كذلك عاصر ابن ماجد ربانا مشهورا هو سليمان المهري المتوفى سنة ٩٦١/هـ وقد ترك عددا من المؤلفات العلمية ليس فيها ما نسبه النهروالي إليه. وقد فند كثيرون ما نسب لابن ماجد ومنهم السيد علي الناجر في مقالات نشرتها مجلة العرب بالرياض في سنتها الخامسة. ولابن ماجد آثار كثيرة منها ما تمت صياغته شعرا على شكل أراجيز أهمها تحمل عنوان (حاوية الاختصار في علم البحار) ومنها كتب بالنثر وهو كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) وفيه يفصل الكلام على الجانبين النظري والعملي للمسائل الملاحية معتمدا على من سبقوه في هذا المضمار وعلى تجاربه الشخصية بصورة خاصة. و (قصائد في وصف شواطئ جزيرة العرب).

المراجع

دائرة المعارف الإسلامية (شهاب الدين) - تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٢٤٠ / ٣ - الرحالة والرحالون ص١٥ - موسوعة المورد العربية ١/٣٦ - البرق اليماني ص/ ١٠ و ١٨ - تراث الإسلام ص/ ١٥٠ - تحفة المجاهدين ١٥٩ - ١٥٧ (هامش) - تاريخ الأدب الجغرافي ص/ ٥٩٧ - مجلة العرب السنة الثالثة ٨٢ - ٤٢.

العثماني" وهو تاريخ اليمن في ذلك العصر، قدوم البرتغال، وتحيرهم في البحث عن الهند، ووقوع ابن ماجد الملقب بأسد البحر وهو سكران في شرك هؤلاء الثعالب، و قيامه بإيصالهم للهند بكل تفصيل وإسهاب.

فلفل الهند و أوربا

إن تجار أوربا الشرقيين الأولين الذي بدءوا يترددون على الهند من القرن السابع عشر، كانوا يحبون الفلفل كثيرا كما هو معروف لدي الجميع، و هو الذي كانوا يعبونه من الهند. ولكن العالم الجغرافي من القرن الثالث عشر وهو زكريا القزويني (عام٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) يذكر في أحوال المليبار ربما نقلا عن كتاب متقدم عليه:

"ويحمل الفلفل من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وأكثر الناس انتفاعا به الفرنج، يحملونه في بحر الشام إلى أقصى المغرب"[(١)].

ولعل الأتراك عندما فتحوا القسطنطينية، واستولوا على البحر المتوسط حرموا الأوربيين من لذة الفلفل، مما أدى بهم إلى أن يكتشفوا لهم طريقا بحريا آخر للوصول إلى الهند، مجازفين في ذلك بحياتهم لكي يستوردوا هذه الهدية إلى بلادهم بأي شكل من الأشكال.

أغنية وطنية يقولها هندي عربي

نختم هذا الفصل بنقل أغنية أو نشيد وطني قالها هندي عربي محب للوطن، ردا على المنتقدين، في مدح الهند وتعديد محاسنها ومحاصيلها، وهو الشاعر أبو الضلع السندي[(٢)]، والذي لا بد أن يكون عصره سابقا لعام ٦٨٦هـ/

(١) آثار البلاد و أخبار العباد ١٢٣.
(٢) آثار البلاد و أخبار العباد ١٢٨.

١٢٨٧م. ولا عجب إذا كان من القرن الثالث أو الرابع من الهجرة، لأن هذا هو العصر الذي انتهى فيه حكم العرب في السند.

لقد أنكر أصحابي وما ذلك بالأمثل
إذا ما مدح الهند وسهم الهند في المقتل
لعمري إنها أرض إذا القطر بها ينزل
يصير الدار وياقوت و الدر لمن يعطل
فمنها المسك و الكافور و العنبر و المندل
وأصناف من الطيب ليستعمل من يتفل
وأنواع الأفاوية و جوز الطيب و السنبل
ومنها العاج والساج ومنها العود والصندل
وإن التوتيا فيها كمثل الجبل الأطول
ومنها الببر و النمر و منها الفيل و الدغفل
ومنها الكرك والببغاء والطاووس والجوزل
ومنها شجر الرانج والساسم و الفلفل
سيوف ما لها مثل قد استغنت عن الصيقل
وأرماح إذا ما هزت اهتز بها الجحفل
فهل ينكر هذا الفضل إلا الرجل الأخطل

الباب الثالث
الصلات العلمية

نذكر فيما يلي أصحاب الكتب العربية الموثوق بها التي استعنا بها في إعداد هذه المحاضرات وشرح العلاقات العلمية بين العرب والهند.

الجاحظ

هو عمرو بن البحر الملقب بالجاحظ، أديب شهير، وفلسفي كبير، وعالم متكلم، كان يسكن في البصرة، وتوفي عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م[١].

---

(١) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي بالولاء. أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، مولده ووفاته بالبصرة وأخذ العلم عن أشهر شيوخها في الأدب والنحو واللغة.
كان للجاحظ إنتاج وفير، وله من الكتب ما يزيد على المائتي كتاب، وهي كما قال ابن العميد: "تعلم العقل أولا والأدب ثانيا" وقد نشر منها: كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين، وكتاب البخلاء، ورسائل. أما كتاب الحيوان، فقد نشر في سبعة أجزاء، وفيه تناول الجاحظ وصف طبائع الحيوان، وفيه عرض لأطراف من العلوم وتجاربها وخصائصها، ووجه النظر إلى الطبيعة وتأكيد الثقة في حقائقها وبراهينها فسبق بذلك بيكون (r-bacon) واتبع في دراسته الشك المنهجي، فسبق بذلك (ديكارت r-descartes) ودعا إلى التبصر عند النظر، والتوقف عند القضية، موقف الشك، قبل الحكم فيها وعدم التسليم بها إلا بعد اختبارها ببرهان عقلي، وهو عنده العلامة المميزة للعقل الإنساني، وهي الأساس الذي يقوم عليه مذهب المعتزلة. وأما كتاب البيان والتبيين فهو من أهم كتب الجاحظ قال فيه ابن خلدون: "... وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها" وقد جمع الجاحظ في هذا الكتاب كعادته البلاغة والأدب والفقه والتاريخ والمنطق، وكانت الغاية من وضعه الرد على الشعوبية بتبيان تفوق العرب في البلاغة والبيان. وأما كتاب البخلاء فهو دراسة أدبية فكهة، جمع فيها الجاحظ أخبار=

ترك لنا الجاحظ كتبا كثيرة ما بين صغير وكبير، منها كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين، كما ترك رسائل تتضمن مناظرات افتراضية، وهي مطبوعة. وقد ظهر له حاليا كتاب اسمه التاج من مصر.

= البخلاء، والمتخلين في عصره من أهل البصرة وخراسان بنوع خاص، وصور لنا نماذج حية ناطقة من أولئك الذين استهواهم الدرهم، فصاروا أضحوكة الناس ومدار تندرهم. ومن خلال صور البخلاء، والأشحاء يلقي الجاحظ في هذا الكتاب، أكثر منه في أي كتاب آخر، أضواء على بيئة عصره بشتى نواحيها، ويعتبر هذا الكتاب مرجعا وثيقا لدراسة المجتمع العباسي إبان ازدهار بغداد والبصرة وخراسان، من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل. أما الرسائل فهي أبحاث في مواضيع شتى منها في الفلسفة والدين، كرسالته في فضيلة المعتزلة أو الرد على النصارى، ومنها في السياسة كرسالته في مناقب الترك أو في فخر السودان على البيضان، أو العثمانية، أو رسالة في بني أمية، ومنها اجتماعية كالقيان والعشق ومنها أخلاقية كالحاسد والمحسود، وذم الكتاب، ومنها علمية أو اقتصادية كرسالته في الخراج، ورسالته في الكيمياء وغير ذلك من الرسائل والأبحاث. وهناك رسائل أخرى نسبت إلى الجاحظ ولكن نسبتها تثير الشك ككتاب التاج، وكان من الشائع في ذلك الزمان أن ينسب كتاب ما إلى أديب معروف بقصد ترويجه، وقد لجأ الجاحظ نفسه إلى هذه الطريقة في أول عهده الكتابي. ويذكر ياقوت في كتب الجاحظ التي أوردها كتاب (البلدان) ويدعوه المسعودي (الأخبار عن الأمصار وعجائب البلدان). وقد نقل عنه ابن قتيبة في كتابه (عيون الأخبار) كما نقل عنه ابن رستة في كتابه (الأعلاق النفيسة). وله كتاب (التبصرة في التجارة) ويدل هذان الكتابان على شدة اهتمامه بالجغرافية ولعله أول محاولة قام بها العرب في ميدان الجغرافية الاقتصادية، من أجل ذلك يعتبر الجاحظ من الجغرافيين.

وتدل كتب الجاحظ على حذقه في جميع الثقافات التي تناولها في كتبه، فهو موسوعي المعرفة، وقد أودع في كتبه الكثير من آرائه الفلسفية والفكرية وثمرات اهتماماته العلمية التي غلب عليها طابع الأدب. على أن في مصنفاته ما يعاب عليه، فهي كلها تقريبا تفتقر إلى حسن التنظيم في التحرير والتبويب، وقد أكثر الجاحظ فيها من الاستطراد وملأها بالنوادر.

ويمتاز أسلوب الجاحظ بالسلاسة الممتعة التي تشد إليها القلوب والأسماع، وكثيرا ما يطبع أسلوبه بشيء من السخرية، يتجلى فيها الجمال الفني في السبك والتعبير. =

إن كتاب البيان والتبيين للجاحظ يتضمن صفحة في الأصول البلاغية الهندية، كما تحتوي إحدى رسائله محاسن الهند ومناقبها، و قد طبعت هذه الكتب من مصر.

اليعقوبي

هو أحمد بن يعقوب بن جعفر[1]، وكان مديرا لقسم المراسلات والإنشاء، وكان قد زار الهند والبلدان الأخرى.

= فُلِجَ الجاحظ في آخر حياته، فاعتزل الناس إلا أقلهم، وقضى في فراشه مدة يغالب الداء، ومع ذلك لم ينقطع عن الكتابة، فقد مات والكتاب على صدره وقد بلغ من العمر ٩٢ عاما وخلف وراءه ثروة أدبية ما زالت تروي العقول وتنير الأفهام.

المراجع

وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٠. شذرات الذهب ٢/ ١٢١. إعتاب الكتاب ص/ ١٥٤. تاريخ بغداد ١٢/ ١١٢. تكملة الفهرست ص/ ٣. معجم الأدباء٦/ ٥٦-٨٠. أمراء البيان ص/ ٣١١-٤٨٧. الأعلام ٥/ ٢٣٩. تاريخ الفكر العربي لفروخ ص/ ٢٩٥. تاريخ الأدب العربي لفروخ ٢/ ٣٠٣-٣١٦. الأعلام ٥/ ٢٣٩. دائرة المعارف الإسلامية: (الجاحظ). أعلام الجغرافيين العرب ص/ ٩٦. الجغرافية العربية ص/ ٥٥. بروكلمان ٣/ ١٠٦. الأدب الجغرافي ١/ ١٢٨-١٣٠. العلوم عند العرب ص/ ١١٩. الجاحظ لجميل جبر: سير ملهمة ص/ ٢٤. مجلة العربي (الكويت) عدد ٢٢٧ لسنة١٩٧٧.

(١) هو أحمد بن أبي إسحاق يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي البغدادي. أبو العباس. مؤرخ جغرافي، كثير الأسفار، كان جده واحدا من موالي الخليفة المنصور العباسي، وتولى إمارة أرمينية ومصر في عهد الخليفة المهدي العباسي. رحل اليعقوبي إلى المغرب وأقام مدة في أرمينية وزار الهند ومصر وتمتع برعاية الطولونيين. وضع كتابا في الجغرافية سماه (البلدان)، وقد احتوى - كما قال في مقدمة كتابه - على أسماء الأمصار والأجناد والكور، وما في كل مصر من المدن والأقاليم ومن يسكنه ومن يغلب عليه ومن يترأس فيه من قبائل العرب والعجم، وذكر مسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر ومن فتحه من قادة جيوش الإسلام وتاريخ ذلك في سنته وأوقاته ومبلغ خراجه، وسهله وجبله، وبره وبحره، وهوائه من شدة حره وبرده، =

كان اليعقوبي أول مؤرخ مسلم ألف كتابا باللغة العربية في تاريخ جميع الأقوام والشعوب في العالم، ووافته المنية عام ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م.

ترك اليعقوبي كتابين أحدهما في التاريخ وهو مجلدان، والثاني في الجغرافية. ومن المستغرب أنه لم يتعرض لأحوال الهند في جغرافيته، إلا أن ذكر لأول مرة في المجلد الأول من تاريخه جميع الكتب التي نقلت إلى اللغة العربية من اللغات الهندية. وطبع هذان الكتابان من ليدن.

ابن النديم

هو محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم[1]. كان هذا الكاتب حيا في

= ومياهه وشربه، وقد احتوى الكتاب معارف كثيرة في التاريخ والاجتماع والأدب، وأنجزه اليعقوبي في مصر في خلافة المعتمد العباسي المتوفى سنة ٢٧٧هـ ويتميز كتاب اليعقوبي عن غيره من الكتب المماثلة له بدقة التفاصيل التاريخية عن المقاطعات والمدن التي يصفها، كتلك التي تعالج بلاد المغرب لطول إقامته فيها، وتلك التي تصف بلاد الترك وما وراء النهر لتردده عليها أيام الخليفة المعتصم العباسي معتمدا من قبله لشراء الرقيق.. يعتبر كتاب (البلدان) أقدم كتاب عربي وصل إلينا في هذا الباب، وقد صنف اليعقوبي عدة تآليف منها (أخبار الخلفاء) و(مشاكلة الناس لزمانهم). اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته، فقال ياقوت أنه توفي سنة ٢٨٤هـ، وقيل سنة ٢٧٢هـ، أو بعدها والراجح أنه توفي بعد سنة ٢٩٢هـ؛ لأنه وجد من نظمه أبيات من الشعر نظمت ليلة عيد الفطر سنة ٢٩٢هـ.

المراجع

الأعلام ١ / ٩٠. العرب والروم لفازيليف ص / ٢٣٥. معجم الأدباء ٥ / ١٥٣ (طبعة دار المأمون). تاريخ الأدب الجغرافي ١ / ١٥٨ ، ١٦١. أعلام الجغرافيين العرب ص / ١٧٣. الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص / ٥٨. تراث الإسلام لآرنولد ص / ١٣٥.

(١) هو محمد بن أبي يعقوب إسحاق. أبو الفرج، المعروف بابن النديم. ولد ببغداد وعمل مع أبيه في الوراقة (نسخ الكتب وتجليدها). تقوم شهرته على كتابه (الفهرست) وهو أول سجل موضوعي للثقافات التي ظهرت في القرن الرابع الهجري، وقد جمع في كتابه أسماء الكتب=

عام ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م، وكان من سكان بغداد. وقد ذكر هذا الكاتب أسماء جميع الكتب وصفاتها وخصائصها التي ألفت في اللغة العربية، أو نقلت إليها من اللغات الأخرى حتى عصره، وفيها نصيب الهند أيضا.

صدر هذا الكتاب من ليبزج بعناية الأستاذ الفاضل الألماني فلوجل ومع تعليقاته عليه عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م.

أبو ريحان البيروني

هو أبو ريحان البيروني الذي توفي عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م. كتب البيروني كتابا مستقلا باسم "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة". وقد أفرده لبيان ما كان في الهند من علوم وفنون.

طبع هذا الكتاب بعد جهد طويل تحمله الأستاذ زخاؤ في إصداره من لندن. ونقل إلى الهندية والإنكليزية أيضا.

القاضي صاعد الأندلسي

كان القاضي صاعد[1] من سكان أسبانيا(الأندلس)، وتوفي عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م.

= وشيئا من الأخبار المتعلقة بأصحابها. وفي كتابه الفهرست ملاحظات قيمة جدا في تاريخ العلوم وتاريخ التأليف. كان ابن النديم معتزليا شيعيا، يدل على ذلك كتابه الذي اشتهر به، فهو يسمي أهل السنة (الحشوية) ويسمي الأشاعرة (المجبرة) ويسمي من لم يكن شيعيا (عاميا). له كتاب آخر اسمه (التشبيهات) ولكن لم يصل إلينا من كتبه سوى الفهرست. توفي عن ٦٥ عاما.

المراجع

معجم الأدباء ٦ / ٣٠٨. الوافي بالوفيات ٢ / ١٩٧. بروكلمان ٣ / ٧٣. الأعلام ٦ / ٢٥٣.

(١) هو صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد الأندلسي الطليطلي التغلبي. أبو=

خلف القاضي صاعد الأندلسي وراءه كتابا اسمه "طبقات الأمم". يتضمن هذا الكتاب تاريخ العلوم والفنون لجميع الشعوب والأقوام المتحضرة التي وصلت إليه حتى عصره عن طريق اللغة العربية. وقد احتوي هذا الكتاب بابا في الهند أيضا. كان هذا الكتاب طبع عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م من المطبعة الكاثوليكية في بيروت، وأعيدت طباعته من مصر أيضا. وبين يدي النسخة التي صدرت من بيروت، وقد ظهرت ترجمته باللغة الأردية أيضا من دار المصنفين بأعظم جراه الهند.

ابن أبي أصيبعه

هو موفق الدين المعروف بابن أبي أصيبعه[1]، وكان حكيما وطبيا مشهورا. عاش ابن أبي أصيبعه ما بين عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م و ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م.

= القاسم. مؤرخ بحاثة. أصله من قرطبة ومولده بمدينة (المرية). هو من أعظم من أنجبه الأندلس، وهو من الحكماء الذين جمعوا بين الفقه والحكمة على نسق القاضي ابن رشد. تولى قضاء طليطلة وكان في قضائه يختار الحكم باليمين مع الشاهد الواحد في الحقوق وبالشهادة على الخط. ألف كتبا منها: جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم. طبقات الحكماء. مقالات في أهل الملل والنحل. إصلاح حركات النجوم. تاريخ الأندلس. ويبدو إن كتبه ضاعت ولم يبق منها سوى كتابه الموجز (طبقات الأمم). توفي في طليطلة عن ٤٢ عاما.
المراجع
بغية الملتمس ص/ ٣١١. تراث الإسلام ٣/ ١٤٣. تاريخ الفكر الأندلسي ص/ ٢٣٩. الأعلام ٣/ ٢٧٠. تاريخ الأدب العربي لفروخ ٤/ ٥٨٢. بروكلمان.

(١) هو أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي السعدي، أبو العباس موفق الدين، المعروف بابن أبي أصيبعة، شيخ الأطباء في عصره. ولد في دمشق سنة ٥٩٠هـ وقرأ الطب على شيوخ الطب ومنهم رفيع الدين الجيلي (ت: ٦٤١هـ) وقرأ علم النبات على ابن البيطار المتوفى سنة ٦٤٦هـ، وأخذ عن مشاهير الشيوخ الحديث والتفسير والأدب والشعر والنجوم وتمرن في البيمارستان النوري وطب في بيمارستان القاهرة (الناصري) الذي بناه الملك صلاح الدين=

ألف ابن أبي أصيبعه كتابا سماه "عيون الأنباء في تاريخ الأطباء"، وضمنه أخبار وسير الأطباء المشهورين في جميع أقوام العالم وشعوبه المتحضرة. الجزء الثاني من هذا الكتاب يشتمل على باب في أخبار أطباء الهند أيضا. وقد صدر هذا الكتاب من مصر في مجلدين.

الأستاذ العلامة شبلي النعماني رحمه الله

كان الأستاذ العلامة شبلي النعماني[1] رحمه الله ألقى خطبة مفصلة ومسهبة في المؤتمر التعليمي الإسلامي بعلى جراه بعنوان "التراجم". وقد طبعت الخطبة ضمن رسائله.

تتضمن الخطبة بكل تفصيل بيان جميع الكتب التي نقلت إلى اللغة العربية من اللغات اليونانية والفارسية والعبرية والسريانية وغيرها من اللغات الأخرى بما فيها الكتب التي نقلت إلى العربية والفارسية من اللغة السنسكريتية. وبما أن الكتب القديمة لم تكن قد طبعت بينما كانت بعض الكتب الأخرى ما زالت قيد التحقيق والدراسة في عصره فإن هذا الجزء من الخطبة مازال شبه ناقص.

= يوسف بن نجم الدين أيوب. ثم عاد إلى دمشق وانتقل إلى (صرخد) في خدمة صاحبها الأمير عز الدين أيبك وبها توفي. من تصانيفه كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) و (إصابات المنجمين) و (التجارب والفوائد) و (حكايات الأطباء في علاجات الأدواء) و (معالم الأمم) وغير ذلك. توفي عن ٧٨ عاما. النجوم الزاهرة ٧ / ٢٢٩ ـ البداية والنهاية ١٣ / ٦٢٨ ـ شذرات الذهب ٥ / ٣٢٧ـ طبقات الأطباء ص / ٧٢٥ ـ معجم الأطباء ص / ١١٤ـ كشف الظنون ص / ١١٨٥ ـ زيدان ٣ / ١٧١ـ دائرة المعارف الإسلامية (ابن أبي أصيبعة) ـ تراث الإسلام ص / ٤٩٢ـ تاريخ الأدب في إيران ص / ٦٠٥ ـ فروخ ٣ / ٦٢٨ ـ الأعلام ١ / ١٨٨ ـ تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص / ٦٤ـ٦٧.

(١)

بداية العلاقات العلمية

وقبل أن ندخل في صميم الحديث عن العلاقات العلمية بين العرب والهند، يجب أن نتكلم أولا عن الأسرة العظيمة التي نشأت بجهودها هذه العلاقات. تعرف هذه الأسرة بـ "البرامكة" في اللغة العربية بصفة عامة، هذه هي الأسرة التي تولت مسؤولية القيام بأعمال الوزارة في الخلافة العباسية في بغداد لمدة خمسين سنة بداية من ١٣١هـ/ ٧٤٨م إلى ١٨٦هـ/ ٨٠٢م بغاية من الأمن والسلام والنظام والتدبير والتنسيق والجود والكرم، لدرجة أن كثيرا من الناس يرون أن سمعة الخلافة العباسية وشهرتها وحسن تدبيرها كانت رهن نفس هذه الأسرة البرمكية ومن حسنات وزرائها، وكانت غمام كرمهم هي التي حولت قطراتها بغداد إلى جنات وحدائق يوما من الأيام.

فقد قام عدد من أفراد هذه الأسرة منذ عصر الخليفة العباسي الأول المعروف بالسفاح إلى نهاية عصر الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد بأعمال الوزارة في الخلافة العباسية، بل بأعمال الحكومة نفسها. وإن كانت بداية هذه الأسرة مع ظهور الخليفة العباسي سفاح إلا أنهم لم يبلغوا أوج قوتهم ونفوذهم إلا في عصر الخليفة هارون الرشيد، و لكنهم لم يكادوا يبقون طويلا في هذا المقام حتى انتهى عصرهم بيد هارون الرشيد نفسه، حيث قام هارون الرشيد بإبادة هذه الأسرة والقضاء عليها لأسباب بقيت مستورة للأبد، إلا أن المؤرخين أثبتوا أن السبب الوحيد الذي أدى إلى هذا المصير، يعود إلى جود البرامكة وكرمهم وسمعتهم الطيبة التي استقطبت الناس كافة حولهم، كما أنهم كانوا قد استقطعوا لأنفسهم جميع الأراضي الخصبة الطيبة التابعة للخلافة العباسية، واستولوا على الخلافة العباسية جزئيا وكليا حيث أصبحت الأسرة

العباسية لا تملك من الأمر شيئا، وكأنها تعيش تحت رحمة منهم. وإذا لم يكن أحد من العباسيين قد تدارك الأمر وانتبه للبرامكة في هذه الأوضاع لكان العالم الإسلامي قد شهد ثورة عظيمة تاريخية، وكانت الخلافة العباسية قد بادت وانتهت للأبد. ولذلك كان من واجب الأسرة العباسية أن يضعوا حدا للأسرة البرمكية ويقضوا عليها. وأيا ما كانت الأسباب إلا أنه لا شك في أن الأسرة البرمكية هي الأسرة التي نشأ الشوق في ظلها ونما الحرص تحت إشرافها في المسلمين على أن يتعلموا علم الكلام والفلسفة والطب والمنطق وعلوم الشعوب والأقوام الأخرى.

من البرامكة؟

أشيع بشكل عام أن البرامكة كانوا من المجوس، وبكلمة أخرى كانوا من الفرس الذين كانوا يعبدون النيران، وكانوا رؤساء معبد مجوسي مسمى بـ "النوبهار" والذي قام ببنائه منوشهر في بلخ.

وعند ما فتح المسلمون مدينة بلخ عام ٣١هـ/ ٦٥١م انطفأت نيران هذا المعبد المجوسي أيضا بنفس العاصفة، إلا أن هذه النيران عادت تتأجج بعد مدة يسيرة، إلى أن قام أخيرا القائد الإسلامي الشهير من خراسان وهو قتيبة، عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م، وأخضع هذه البلاد لحكم الإسلام للأبد، وضمها إلى ممتلكات الخلافة الإسلامية. فدخل بعض عباد هذا المعبد المجوسي الذين كانوا سادة وملاك المستعمرات القديمة في بلخ وضواحيها منذ عصر الملوك القدماء.

دخلوا في الإسلام عن رضا واقتناع وارتحلوا إلى دمشق. وعند ما انتقلت

عاصمة الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد انتقلوا معها إلى بغداد، وبدءوا يرتقون بشكل تدريجي في سلم مناصب الخلافة والحكومة إلى أن احتلوا مناصب الوزارة وحكموا العالم الإسلامي يوما من الأيام.

وكانت هذه الأسرة التي كانت الدستور الأعظم لهذا المعبد المجوسي تعرف بلقب "برمك" وجمعه البرامكة، وهي الكلمة التي تقوم بها شهرة هذه الأسرة ومجدها ورفعتها.

ولكن السؤال ما هو أصل كلمة "برمك"؟

لم ينتبه القدماء من المؤرخين واللغويين لهذا السؤال. وحاول المؤرخون واللغويون الإيرانيون فيما بعد أن يجدوا أصلها في مصدر كلمة "مكيدن" الفارسية، وهي بمعنى الامتصاص، والتي قد يدخلون عليها كلمة "بر"، ووضعوا على هذا الأساس أسطورة لا أساس لها.

يحكى أن أول برمكي عندما اعتنق الإسلام ودخل على الخليفة، قال له الخليفة مؤبخا: "أنت لا تدري كيف ينبغي أن يكون الحضور في بلاط الملوك، حضرت هنا ومعك السم؟ وعندي من الأسباب ما يطلعني على من عنده السم" فأجاب البرمكي الأول: "لاشك أن هذه غلطة وقعت مني، حيث يوجد السم في خاتمي ولكنه لصيانة عرضي إذا تعرض لأي انتهاك وخطر، فأفضل أن أموت بامتصاص السم على أن تنتهك حرمتي وكرامتي". وبما أن لسانه كان لسانا فارسيا فإنه استخدم كلمة "برمكم" بمعنى "أمتص" ومن هنا سمي ببرمك من ذلك الوقت[١].

(١) تاريخ ضياء برني، و البرهان القاطع.

هذه القصة كذب وافتراء من أولها إلى آخرها، وهراء من وضع القصاصين الإيرانيين. لأن لغة البلاط الدمشقي لم تكن فارسية بل كانت عربية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذه القصة لا تثبت إلا أن اللقب " برمك" وجد عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م، بينما كتب المؤرخون الموثوق بهم أن هذا اللقب لقب قديم، وكان يستخدم لكبير المجوس في بلخ.

وذهب بعض اللغويين الإيرانيين إلى أن كلمة "برمك" اسم لمنطقة ما، وإليها نسب البرامكة[١]. وأبعد أديب عربي في بيان أصل هذه الكلمة، فجاء ببيان أكثر متعة وعجبا، وهو أن هذا المعبد القائم في بلخ كان بني مقابل الكعبة في مكة المكرمة، ولذلك سمي رئيس هذا المعبد بـ "بر مكه" بمعنى "والي مكة" ثم تم ترخيم الكلمة فأصبحت "برمك"[٢].

وهنا بيان آخر عن أصل هذه الكلمة ورد في معجم البلدان لياقوت وهو أن كلمة بر معناها ابن و معنى كلمة برمك "ابن مكة"[٣].

لقد كتب في لغتنا (اللغة الأردية) تاريخ مشهور لهذه الأسرة باسم "البرامكة". وذهب صاحبه الفاضل إلى أن أصل كلمة برمك "برمغ" وجمعه المستخدم في الشعر الأردي كلمة "مغان" و"بير مغان": وهي كلمة تطلق على عباد النار(المجوس). وهي مغوس في شكلها اليوناني ومجوس في شكلها العربي. وكلمة "بر" تطلق على الرئيس. ومن هنا يكون معنى البرمك رئيس المجوس.

(١) البرهان القاطع.
(٢) ربيع الأبرار للزمخشري ص٥٥.
(٣) لم أعثر عليه فيما أشار المؤلف رحمه الله.

لا مانع لدينا من قبول هذا الشرح إذا ثبت أن أي رئيس أو سادن آخر في أي معبد مجوسي آخر من آلاف المعابد المجوسية في إيران كان يسمى بهذا الاسم غير رئيس السدنة في النوبهار. وبالإضافة إلى ذلك كان المفروض أن تكون هذه الكلمة سائدة وشائعة في اللغة الفارسية لدرجة أن تستخدم في الشعر الفارسي بكثرة وتكون معروفة لدى أهل اللغة، إلا أن تحيرهم واضطرابهم في البيان يدل على أنهم ما كانوا يعرفون أصل هذه الكلمة. ومن جهة أخرى، لا تتحول كلمة برمغ إلى "برمك" في اللغة العربية بل إلى برمج. ولا يوجد مثال في اللغة العربية لتحول حرف "غ" إلى حرف "ك"، بينما توجد أمثلة كثيرة على تحول "غ" إلى "ج" مثلما نجد في السراج حيث يعرف أصله بـ "جراغ"، وكما أن الاسم التركي هلاكو ليس أصله هلاغو كما يعتقد، بل أصله هلاكو، ولاغرو أن هذا الملك السفاك الدماء اختيرت له كلمة محرفة التلفظ لتشير إلى معنى الهلاك بالعربية الذي يلمح إليه الاسم.

والواقع أن شرح هذه الكلمة لا يمكن ما دام لا نعرف حقيقة هذا المعبد الواقع في بلخ.

هل كان معبدا مجوسيا في الواقع؟

وهل كانت المجوسية دين هذه الأسرة قبل أن تدخل في الإسلام؟

والجواب من قبل الإيرانيين لا يكون إلا بـ"نعم"، وأن هذه الأسرة كانت تدين بالمجوسية قبل الإسلام، وكان هذا المعبد معبدا مجوسيا".

والواقع أن كل شعب يتسارع بطبعه إلى ضم إنسان عبقري ونسبه إلى بني جلدته. ألم ينسب الإيرانيون الإسكندر إلى السلالة الملوكية الإيرانية الخفية؟ وألم يقل المسلمون إن ريتشارد الشجاع بقية من بقايا أسرة السلطان صلاح الدين الأيوبي؟

هذا هو الحال مع البرامكة. فقد نسبهم الإيرانيون ووصلوهم حتى إلى "كستاسب" وزير "جاماسب"، و أثبتوا أن هذه الأسرة كانت أسرة عريقة تتولى أعمال الوزارة الإيرانية[١] في الوقت الذي ادعى العرب أن جعفر البرمكي الأول الذي شكل بداية ومهد طريقاً لازدهار هذه الأسرة وارتقائها، كان من صلب قتيبة القائد العربي المسلم في خراسان، حيث سبى قتيبة أم جعفر فحملت منه، وعادت إلى بيتها وقد استقر في بطنها جعفر[٢]".

وفيما يلي نص ابن الأثير:

"وكان ممن سبى امرأة برمك أبي خالد ابن برمك، وكان برمك على النوبهار، فصارت لعبد الله بن مسلم أخي قتيبة فوقع عليها، ثم إن أهل بلخ صالحوه، وأمر قتيبة برد السبي، فقالت امرأة برمك لعبد الله: إني قد علقت منك، وحضرت عبد الله بن مسلم الوفاة فأوصى أن يلحق به ما في بطنها، وردت إلى برمك، فذكر أن ولد عبد الله بن مسلم جاءوا أيام المهدي حين قدم الري إلى خالد فادعوه، فقال له مسلم بن قتيبة: إنه لا بد لكم إن استلحقتموه، ففعل (من) أن تزوجه، فتركوه، وكان برمك طبيبا"[٣].

بعيدا عن هذه البيانات المتعارضة المتضادة في الحسب والنسب، يجب أن نتبين حقيقة هذا المعبد ونتأمل في أحوالها ونرى ما إذا كان هذا المعبد يتصف بخصائص المعبد المجوسي؟

إن أول ما يمتاز به المعبد المجوسي هو أن النيران تشتعل وتتأجج فيه كل

(١) سياست نامه و نزهة القلوب.
(٢) الطبري ٣/ ٦٧١ / ٣٣٤٣.
(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٥٢٤.

وقت. وأما بالنسبة لمعبد بلخ فلم يقل أحد من المؤرخين ذلك غير المتأخرين الذين يؤخذ عليهم عدم الاحتياط في البيان والرواية، حيث أن أقدم مصدر بين يدي في هذا الشأن هو البلاذري، لكنه لم يورد أي تفصيل، ويليه في العصر المسعودي (عام ٣٣٠هـ/ ٩٤١م) وابن الفقيه الهمداني. ثم نجد ما جاء من البيان في معجم البلدان لياقوت (عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، وآثار البلاد لزكريا القزويني(عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م).

إن ما جاء في بيان ابن الفقيه الهمذاني وياقوت الابتدائي متشابه تماما كلمة بكلمة، و أما بيان ياقوت الشخصي فهو مأخوذ عن عمر بن الأزرق.

بيان المسعودي

يكتب المسعودي وهو يصف أحوال النوبهار:

"كان بنيان هذا البيت من أعلى البنيان تشييدا، وكان تنصب على أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الأخضر طول الشقة مئة ذراع فما دونها، قد نصب لذلك الرماح...... وكان الحيز المحيط بهذا البنيان أميالا لم نذكرها إذ كان أمر ذلك مشهورا من وصف علو السور وعرضه[1]".

لقد رأيتم أنه لا يوجد ذكر النار في أي موضع، كما أن هذا التصميم البنائي والراية المترفرفة عليه لا توجد في بيوت النيران.

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٣٩.

بيان ابن الفقيه

يقول ابن الفقيه الهمذاني:

"كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ قبل ملوك الطوائف، وكان دينهم عبادة الأوثان. فوُصفت لهم مكة وحالُ الكعبة بها وما كانت قريش والعرب تدين به، فاتخذوا عليه بيتا يقال له "النوبَهار" ببلخ، وتفسيره "الجديد". فكانت العجم تعظم ذلك البيت، وتحج إليه، وتهدي إليه، وتلبسه الحرير، وتنصب الأعلام على القبة، واسمها عندهم "الأشبت". وكانت القبة مأة ذراع في مثلها، بأروقة مستديرة حولها، وكان حول البيت ثلاثمأة وستون مقصورة يسكنها خدامه وقوامه. على كل خادم خدمة يوم فلا يعود إلى خدمته إلى الحول، فسموا سادنها الأكبر برمكا، أي أنه باب مكة ووالي مكة، فصار كل من ولي منهم ذلك يسمى برمكا. وكانت ملوك الصين وكابل شاه تدين بذلك الدين، فكانوا إذا حجوا سجدوا للصنم الأكبر"[1].

هل رأيتم أن هذا الوصف أيضا يخلو من ذكر النار بل ينص على وجود الأصنام التي لا علاقة لها بالمعبد المجوسي، ولا أن الإيرانيين والمجوس كانوا يعبدونها، وفوق ذلك، ورد في هذا البيان أن هذا هو دين ملوك الصين وكابل. ويعرف الجميع أن الصين وكابل لم تعبد النار فيهما أبدا.

بيان ياقوت الرومي

نقل ياقوت الرومي عن مؤلف متقدم عليه ويقول:

"النوبهار ببلْخ بناء للبرامكة. قال عمر بن الأزرق الكرماني:

(١) مختصر كتاب البلدان ص ٣٢٢-٣٢٣.

"كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ قبل ملوك الطوائف، وكان دينهم عبادة الأوثان فوُصفت لهم مكة وحالُ الكعبة بها وما كانت قريش ومن والاها من العرب يأتون إليها ويعظمونها فاتخذوا بيت النوبَهار مضاهاةً لبيت الله الحرام ونصبوا حوله الأصنام وزينوه بالديباج والحرير، وعلّقوا عليه الجواهر النفيسة، وتفسير النوبهار البهار الجديد لأن نو الجديد.

وكانت سُنّتهم إذا بنوا بناء حسناً أو عقدوا باباً جديداً أو طاقاً شريفاً كلّلوه بالريحان، وتوخّوا لذلك أول ريحان يطلع في ذلك الوقت، فلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما يظهر من الريحان، وكان البهار فسُمي نوبَهار لذلك، وكانت الفرس تعظّمه وتحج إليه وتُهدي له وتلبسه أنواع الثياب وتنصب على أعلى قُبّته الأعلام، وكانوا يسمّون قُبته الأستُن، وكانت مائة ذراع في مثلها وارتفاعها فوق مائة ذراع بأرْوِقة مستديرة حولها، وكان حول البيت ثلثمائة وستون مقصورة يسكنها خُدّامه وقُوّامه وسدنته، وكان على كل واحد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود إلى الخدمة حولاً كاملاً. ويقال إن الريح ربما حملت الحرير من العلم الذي فوق القبة فتلقيه بترْمِذَ وبينهما اثنا عشر فرسخاً. وكانوا يسمون السادن الأكبر بَرْمَك لتشبيههم البيت بمكة يسمون سادنه برمكة، فكان كل من وَلي منهم السدانة برمكاً، وكانت ملوك الهند والصين وكابُل شاه وغيرهم من الملوك تدين بذلك الدين وتحج إلى هذا البيت، وكانت سُنّتهم إذا هم وافوه أن يسجدوا للصنم الأكبر"(١).

أما الأزهار وخصائص الربيع فقد وضعت هنا لمناسبتها للفظ الفارسي بهار للدلالة على علاقتها بالاسم النو بهار.

(١) معجم البلدان، كلمة النوبهار.

بيان القزويني

يكتب القزويني في أحوال بلخ في كتابه "آثار البلاد وأخبار العباد":

"كان بها النوبهار، وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام، لما سمع ملوك ذلك الزمان بشرف الكعبة واحترام العرب لها، بنوا هذا البيت مضاهاة للكعبة، وزينوه بالديباج والحرير والجواهر النفيسة، ونصبوا الأصنام حوله، والفرس والترك تعظمه وتحج إليه، وتهدي إليه الهدايا. وكان طول هذا البيت مأة ذراع في عرض مأة، وأكثر من مأة ارتفاعا وسدانته للبرامكة، وملوك الهند والصين يأتون إليه، فإذا وافوا سجدوا للصنم"(١).

وهار– بده

إن هذه البيانات كلها لا تدع لنا مجالا للشك في أن هذا المعبد لم يكن معبدا مجوسيا بل معبدا بوذيا يسمى "وهار". و كلمة بهار(وهي ولاية في شمالي الهند) هي صورة محرفة لهذه الكلمة.

أصل النوبهار هو "نو وهار". وكلمة وهار هذه اسم يسمى به المعبد البوذي الخاص أو الزاوية البوذية. ومثال التحريف يوجد عندنا أيضا في اسم ولاية "بهار"، التي هي أصلا وهار البوذيين، وقد غيرها المسلمون بلهجتهم الفارسية بكلمة بهار.

كانت هناك وهارات عديدة للبوذيين في السند باسم "النوبهار" نفسه في السنوات الأولي لقدوم العرب في بلاد السند، ذكر المؤرخون من أحوالها وصفاتها ما ينطبق تماما على النوبهار الواقع في بلخ.

(١) آثار البلاد و أخبار العباد ٣٣١.

يكتب البلاذري وهو مؤرخ قديم للغاية، في فتوح البلدان في وصف أحوال فتح السند:

"وكان بالديبل بد عظيم، عليه دقل طويل، وعلى الدقل راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة، وكانت تدور. والبد فيما ذكروا منارة عظيمة يتخذ في بناء لهم فيه صنم لهم أو أصنام يشهر بها، وقد يكون الصنم في داخل المنارة أيضا، وكل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد"[١].

فهل يبقى بعد هذا البيان شك في أن المعبد النوبهار الواقع في بلخ كان معبدا أو زاوية بوذية وليس معبدا مجوسيا؟.

من المستغرب أن المؤرخين الأوربيين المطلعين هم الآخرين فضلا عن المؤرخين المتقدمين لم ينتبهوا لهذه الحقائق. فوصف (وان كريمر) البرامكة بأنهم (مزدكيون) كما أن هذه الحقيقة بقيت خافية على محقق دارس مثل البروفيسور براون، فوصف هو الآخر البرامكة بالمجوس. ولكن سرني أثناء التحقيق والدراسة أن المحقق زخاؤ وصف النوبهار في مقدمة الترجمة الإنكليزية لكتاب "تحقيق ما للهند" بأن النوبهار أصله "الزاوية البوذية". ومن بين المستشرقين الأوربيين يوجد واحد على الأقل وهو دبليو بارتالد والذي أشار في سطور عديدة من مقاله في دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٦٦٣ إلى أن نوبها يبدو "نووهار" البوذيين، كما ذكر سائح صيني. وإن صفة العمارة التي وصف بها ابن الفقيه النوبهار هي الأخرى تثبت ذلك إلا أن أحدا منهم لم يقم على ما قاله دليلا آخر، ولا قدم شهادات أخرى، بالإضافة إلى ذلك، فإنهم ما زالوا يرتكبون نفس الخطأ حيث ينسبون البرامكة إلى السلالة الإيرانية وأن الإيرانيين كانوا قد حولوا النوبهار إلى بيت النار.

(١) فتوح البلدان ١/ ٦٨٥.

ولكن هذا كله مغالطات في رأيي، و أدعي أن البرامكة كانوا أتباع الديانة البوذية، وكانوا ينتمون إلى الهند انتماء أصيلا، وليس إلى إيران. صحيح أن بعض الشعراء الهجائيين أو سيئي الفهم على عهد البرامكة نسبوهم نسبة صريحة إلى المجوسية، ولكن السبب في ذلك أن العرب ما كانوا يعرفون من الأديان والملل العجمية إلا المجوسية. والسبب الآخر أن البرامكة والإيرانيين كانوا يسيرون على سياسة تقتضي منهم أن يتعاونوا ويتعاضدوا بوصفهم من الأعاجم بالرغم من أن هذا التعاون والتعاضد لم يستمر بينهم إلى نهاية المطاف، وكان ذلك هو سبب زوال البرامكة.

وعلى كل حال، يمكن أن أقيم على ما ادعيت من أن النوبهار كان معبدا بوذيا، وأن البرامكة كانوا أتباع الديانة البوذية أصلا، شهادات ودلائل تالية:

أـ أن النوبهار لم يكن اسما لمعبد مجوسي بل هو عكس ذلك اسم معروف ومشهور للمعبد البوذي. وكانت هناك معابد بوذية كثيرة بنفس الاسم موجودة حينذاك في السند نفسها[١].

بـ إن الأوصاف والهيئات التي ذكرها الجغرافيون والرحالون العرب تنطبق تماما على المعبد البوذي.

٥- ذكر رحالة صيني معروف باسم "هوانغ كنغ" من القرن السابع للميلاد هذا المعبد الواقع في بلخ[٢]، وهذا العصر ربما كان نفس العصر الذي دخل فيه المسلمون بلاد السند، أو كانوا على وشك الدخول.

٦- يقول المسعودي في بيان أحوال هذا المعبد في وصف النوبهار:

(١) ترجمة إنجليزية لججنامة ١/ ١٥٠.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٦٦٤، بحث البرامكة.

"وقد ذكر بعض أهل الرواية والتحقيق أنه قرأ على (باب) النوبهار ببلخ كتابا بالفارسية ترجمته: "قال بوداسف: "أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال: عقل وصبر ومال، وإذا تحته بالعربية " كذب بوداسف، الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه (الثلاث) الخصال أن لا يلزم باب السلطان"[(١)].

ولا شك في أن أهل العرب كانوا يسمون بد وهو نبي السمنية بوداسف[(٢)].

إذا لم يكن هذا معبدا بوذيا بل معبدا مجوسيا، فلم كان قول بوذا مكتوبا على الباب الرئيسي للعمارة؟

٧- بلخ مدينة من مدن خراسان، وكانت ديانة خراسان قبل الإسلام البوذية عند كل من المتقدمين والمتأخرين من المؤرخين، فقد ذكر ابن النديم هو الآخر إحالة إلى تاريخ خراسان القديم أن ديانة خراسان كانت البوذية قبل الإسلام[(٣)]..

٨- ذكر المؤرخون عندما ذكروا أحوال إسلام البرامكة أن الدين الذي كان يدين به سادن النوبهار هو الذي كان يدين به ملوك الهند والصين والأتراك[(٤)].

ومعروف للجميع أن الديانة السائدة في كل من الهند وكابل والصين وتركستان لم تكن المجوسية بل كانت البوذية[(٥)].

---

(١) مروج الذهب.
(٢) الفهرست ١/ ٤٨٤.
(٣) نفس المصدر.
(٤) سبق فيما ذكرنا بيانات ابن الفقية و ياقوت.
(٥) سبق وأن أوردنا بياناتهم في هذا السياق.

٩- ذكر ياقوت في كتابه نقلا عن مؤرخ متقدم عليه وهو عمر بن الأزرق الكرماني (والكرماني هذا لا بد من أنه كان في القرن الرابع لأن هذه العبارة نفسها موجودة في كتاب ابن الفقيه والذي عاش وسط القرن الرابع):

"افتُتحت خراسان في أيام عثمان بن عفّان وانتهت السدانة إلى برمك أبي خالد بن برمك، فسار إلى عثمان مع رهائن كانوا ضمنوا مالاً عن البلد، ثم إنه رغب في الإسلام فأسلم، وسمي عبد الله ورجع إلى أهله وولده وبلده، فأنكروا إسلامه، وجعلوا بعض ولده مكانه برمكاً، فكتب إليه نيزك طرخان أحد الملوك يُعْظِم ما أتاه من الإسلام ويدعوه إلى الرجوع إلى دين آبائه، فأجابه برمك: إني إنما دخلت في هذا الدين اختياراً له وعلماً بفضله من غير رَهبة، ولم أكن لأرجع إلى دينٍ بادي العوار مهتك الأستار. فغضب نيزك وزحف إلى برمك في جمع كثير، فكتب إليه برمك: قد عرفتَ حبي للسلامة وإني قد استنجدت الملوك فأنجدوني، فاصرفْ عني أعِنّة خيلك وإلا حملتني على لقائك! فانصرف عنه ثم استغرّه وبيّته فقتله وعشرة بنين له فلم يبق له سوى طفل[(١)]. والسؤال هنا لو كان النوبهار معبدا مجوسيا، ولو كان البرامكة من المجوس لما كان طرخان ملك البوذيين الأتراك يغضب ويشتاط غضبا ويتربص به وبأسرته؟

١٠- وبعد ما قتل البرمك وأولاده هربت زوجة البرمك بابنها، وكان صغيراً إلى بلاد القشمير من بلاد الهند، فنشأ هناك وتعلم علم الطبّ والنجوم وأنواعاً من الحكمة وهو على دين آبائه. ثم إن أهل بلده أصابهم طاعونٌ ووباء، فتشاءموا بمفارقة دينهم ودخولهم في الإسلام، فكتبوا إلى برمك حتى قدم عليهم فأجلسوه في مكان آبائه وتولى النوبَهار[(٢)].

---

(١) معجم البلدان لفظ النوبهار.
(٢) نفس المصدر.

فالسبب في الهروب من بلخ إلى كشمير والتعلم والتثقف فيها لا يمكن أن يكون سوى أن هذه الأسرة كانت لها رابطة وعلاقة بالهند، وكانوا يدينون ديانة البوذية، وكانت كشمير أحد مراكزها، وإلا كان لهم من السهل أن يهربوا إلى قومهم وملتهم في إيران أو يلجئوا إلى المسلمين فرارا من اضطهادات الملك التركي ومظالمه. وفوق ذلك كله، هل يمكن تعليم الطفل المجوسي وتربيته في غير بلاده ودينه؟ وما ذا كان ليتعلم هناك من تعاليم دينه؟

هذه القصة قصة علاقة هذه الأسرة بالهند هي مما كان قبل دخولها في الإسلام، وأما بعد دخولها في الإسلام فقد قوت هذه الأسرة علاقاتها بالهند وعززتها أكثر فأكثر. حيث طلبوا الحكماء والعلماء من الهند إلى العراق وأجلسوهم في بلاطهم، وطلبوا الأطباء والعلماء ربما من البوذيين في السند وعينوهم في دار الترجمة والمستشفيات عندهم، كما بعثوا الوفود إلى الهند لتعلم الطب ودراسة الديانات الهندية. يكتب ابن النديم في كتاب "الفهرست" وهو كتاب ألفه في عام ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م:

«الذي عني بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة واهتمامها بأمر الهند واحضارها علماء طبها وحكمائها»(١).

فلوكان هؤلاء الناس من المجوس الإيرانيين لكان يجب أن تكون إيران محط أنظارهم ومركز نشاطاتهم بدلا من الهند؟

١١- وأخيرا، إن كلمة "برمك" التي كانت الاسم العائلي لهؤلاء الناس واللقب المحترم لخادم النوبهار ورئيسه هي في الحقيقة كلمة "برمكه".

(١) الفهرست ص ٤٨٤.

السنسكريتية. يقول الدكتور زخاؤ وهو من البارعين والخبراء المهرة في اللغة السنسكريتية:

"إن معنى هذه الكلمة في اللغة السنسكريتية هو **الأعلى والأرفع مرتبة**".

وكذلك عندما سألت أنا أيضا أصحاب اللغة السنسكريتية وعلمائها وافقوه على صحة هذا المعنى.

١٢- إن القبة الكبرى أو المنارة الكبرى التي كانت في عمارة النوبهار، وردت أسمائها مختلفة اختلافا بسيطا في النسخ المختلفة. فقد ورد في النسخة المصرية لكتاب ياقوت أنه "استن"، وأما النسخة الأوربية فليست موجودة عندي حاليا، ولكن نسخة كتاب ابن الفقيه التي صدرت من ليدن موجودة بين يدي. وقد ورد في أصل متنه أن اسمه كان "آسبت" إلا أن الأستاذ الشهير دي خوئي الذي قام بتصحيح هذا الكتاب وطبعه جمع أسمائه المختلفة من النسخ المختلفة وهي أستن وأست وأسبت. وأري أن الكلمة الصحيحة هي "آستب"، وهي صورة عربية وفارسية للكلمة البوذية "أستوب". ومعلوم لدى الجميع أن آستوب يطلق على المعبد البوذي الخاص الذي وضع فيه رماد بوذا. وقد اكتشفت مثل هذه العمارات في مواقع عديدة من الهند أيضا، وقام قسم الآثار القديمة ببيان مواصفاتها وهيئاتها. وهنا أيضا نشأ الالتباس بسبب الكلمة الفارسية لأن كلمة "أستن" تطلق على العمود في اللغة الفارسية، ويوجد شكلها الآخر "ستون" في لغتنا الأردية أيضا، و لذلك عمد الكتاب ـ عند ما لم يفهموا لهذه الكلمة أي معنى ـ إلى أن يجعلوها من الفارسية ليكون لها شيء من المعنى. ولكن الكلمة فقدت معناها الأصيل عندما سميت القبة بالعمود.

ولقد تكلمنا طويلا في مسألة جزئية، وربما توجه إلينا تهمة التطويل في غير

موضعه. لكننا لو أخذنا بعين الاعتبار تلك الأهمية التي تتمتع بها هذه القضية في ضوء هذا التحقيق فإن ذلك يخفف من شدة جريمتي وخطئي، و يتضح تماما بعد ما تتحقق صحة ما ذهبت إليه من رأي، أن جميع النشاطات العلمية والعناية بالعلوم والفنون وتقدير الشعر والأدب ومحاولات نقل الطب والهيئة والنجوم الهندية إلى اللغة العربية والتي يمتاز بها عصر البرامكة ليست من منجزات إيران بل من منجزات الهند وهي ليست إنجازا عاديا للهند.

إن أكبر دائرة المعارف باللغة العربية هي مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لصاحبه الأستاذ فضل الله العمري المصري، وقد طبع منها المجلد الأول حاليا. تضمن هذا الكتاب تاريخ النوبهار وأحواله كما يلي:

"وسابعها بيت النُّوبَهار. بناه منوشر الهنديّ بمدينة بلخ. وكان يأتيه من الصابئة من يتقرّب بالقمر. وكان يُسمى المتولّي لسدانته "بُرمُك". وكانت ملوك الفرس تُعظمه وتعظم متوليه. وآلت ولايته إلى أبي خالد البرمكيّ، فلهذا قيل "خالد بن برمُك" ولهذا قيل "البرامكة". وكان من أعلى المباني تشييدا، وكان يُلبَّس بالحرير الأخضر، تُنشر عليه شقاق منه، طول كل شُقَّة مائة ذراع. فيُقال أن الريح حملت بعض تلك الشُّقاق فرمت به على مسيرة خمسين فرسخا. وهذا يدل على علوّه الزائد وكان قد كتب على باب النوبهار بالفارسية: "قال سوراشف الملك: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاث خصال: عقل، وصبر، ومال". ثم لما ملك الإسلام مدينة بلخ، كُتب تحت هذه الكتابة بالعربية: "كذب سوراشف. الواجب على الحرّ إذ كان معه واحدة من هذه الخصال أن لا يلزم باب السلطان".(١)

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٧٠.

إلا أن هذا المقتبس يتضمن خطأ وهو سوراشف بدل بوذاسف.

إن كلمة "الهندي" في اسم باني النوبهار هي الأخرى توفر لنا شهادة أخرى على صحة دعوانا وإن كان المعبد قد نسب في بيانه إلى عباد القمر، ولكنه ليس إلى عباد النار على كل حال. وهذا أيضا يلمح إلى الهند لأن بعض الناس يقولون إن أصل هندو إندو وهي كلمة تطلق على القمر. ولهذا سميت هذه البلاد بهذا الاسم(١).

هذه شهادات ودلائل نقدمها لإثبات دعوانا وهي التي تدلنا على حلقة مفقودة من حلقات الصلات العلمية بين العرب والهند، والتي تكمل سلسلة العلاقات العلمية بين البرامكة والهند، وينكشف لماذا كان البرامكة يكنون هذه العلاقة الخاصة بالهند وبعلومها وفنونها، ولماذا كانت لهم هذه الارتباطات الوطيدة بعلمائها وحكمائها.

مما سبق تبينت لنا العلاقات التجارية بين العرب والهند، ولكن الواقع أنه كانت هناك علاقات تبادل قد بدأت بين الهند والعرب لأغراض أخرى غير الأغراض التجارية أيضا في القرن الأول للهجرة. ولذلك عند ما وصل محمد بن القاسم عام ٩٦هـ/ ٧١٤م في قرية أثناء غزوه على السند علم أن أهلها كانوا قد بعثوا شخصين من أتباع الديانة البوذية إلى الحجاج حاكم العراق وحصلوا على كتاب المصالحة والأمان مسبقا. ثم عندما انتقلت عاصمة الخلافة من الشام إلى بغداد وحل على سدة الحكم الإسلامي العباسيون بدلا من الأمويين، نشأ بين شعبي السند والعراق اتحاد وانسجام جديدان في خليج فارس لقرب البلدين:

(١) زبدة الصحائف في سياحة المعارف، وهو مؤلف الكاتب المسيحي نوفل الأفندي ص٩٣.

جلس على مقعد الخلافة العباسية بعد السفاح الذي دامت حكومته لعدة سنوات الخليفة الثاني منصور عام ١٣٦هـ/ ٧٥٣م، وفي عام ١٤٦هـ/ ٧٦٣م اكتمل بناء العاصمة وبنيت بغداد واستعمرت، فبدأت بعده بثماني سنوات عام ١٥٤هـ/ ٧٧٠م الصلات العلمية بين العرب والهند بشكل رسمي ومنتظم.

بداية الترجمة من اللغة السنسكريتية إلى العربية

إن فكرة الترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية كانت قد نشأت منذ منتصف القرن الأول للهجرة، ولما أن عاصمة الخلافة كانت متمركزة حتى الآن في بلاد الشام فإن اللغات السريانية واليونانية هي التي كانت تنال نصيب الأسد من هذه العملية إلا أن الخلافة العباسية عند ما تحولت إلى بغداد منحت الفرص للغات الهند وإيران أن تثبت ما عندها من كنوز العلوم والحكم.

عندما انتشر الخبر عما كان منصور الخليفة العباسي يكنه من تقدير واحترام وحب للعلم والعلماء، رحل حكيم فاضل من حكماء السند في وفد يحمل معه كتابا سنسكريتيا في النجوم والرياضيات عام ١٥٤هـ/ ٧٧٠م إلى بغداد[١]، وقام بترجمته إلى اللغة العربية بأمر من الخليفة العباسي مع مساعدة رياضي من البلاط العباسي وهو إبراهيم الفزاري. وكان هذا أول يوم أدرك فيه العرب بما يتصف به أهل الهند من الذكاء والعقل والحكمة. ثم طلب هارون الرشيد أطباء الهند لعلاجه مما رسم عظمة الهند العلمية وشأنها العظيم في المجال العلمي على قلوب العرب. ثم بدأت ترجمة الكتب السنسكريتية في علوم النجوم والفلك والطب والأدب والأخلاق إلى اللغة العربية تحت إشراف البرامكة مما زاد الهند شهرة وسمعة في المجال العلمي.

(١) تحقيق ما للهند للبيروني ١١١.

منزلة الهند عند العرب

ولإثبات ما كان يكنه العرب من الاحترام والتقدير وما كانوا يعترفون لها به من علو المنزلة والمرتبة بسبب هذه الترجمات العربية العلمية أريد أن أنقل لكم شيئا مما أبدى به قدماء العرب من تقدير ورأي، وعلى رأسهم:

عمرو بن البحر الملقب بالجاحظ

وهو أديب عربي معروف وفلسفي كبير ومتكلم بارع، وكانت له علاقات وارتباطات بالهند لكونه من سكان البصرة،[١]. وتوفي هذا الشخص عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م. وقد ألف رسالة في هذا المبحث ويقول فيها:

"وأما الهند فوجدناهم يقدمون في النجوم والحساب، ولهم الخط الهندي خاصة، ويقدمون في الطب، ولهم أسرار الطب وعلاج فاحش الأدواء خاصة، ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالأصباغ تتخذ في المحاريب وأشباه ذلك، ولهم الشطرنج وهي أشرب لعبة وأكثرها تدبيرا وفطنة، ولهم السيوف القلعية وهم ألعب الناس بها وأحذقهم ضربا بها، ولهم الرقى النافذة السموم والأوجاع ولهم غناء معجب، ولهم الكنكلة وهي وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج، ولهم ضروب الرقص والخفة، ولهم الثقافة عند الثقاف، ولهم معرفة المناصفة، ولهم السحر والتدخين والدمازكية، ولهم خط جامع لحروف اللغات وخطوط أيضا كثيرة، ولهم شعر كثير وخطب طوال، وطب في الفلسفة والأدب. وعنهم أخذ كتاب كليلة ودمنة، ولهم راي ونجدة، وليس لأحد من أهل الصبر ما لهم، ولهم من الزي الحسن والأخلاق المحمودة مثل

(١) حال الجاحظ في وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٠.

الأخلة والقرن والسواك، والاحتباء والفرق والخضاب. وفيهم جمال وملح، واعتدال وطيب عرق، وإلى نسائهم يضرب الأمثال، ومن عندهم جاءوا الملوك بالعود الهندي الذي لا يعدله عود، ومن عندهم خرج علم الفكر، وما إذا تكلم به على السم لم يضر، وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة، وآدم عليه السلام إنما هبط من الجنة فصار ببلادهم"[1].

وهناك شخص آخر يعرف باليعقوبي، وكان رحالة ومؤرخا ومن أفاضل العلماء. وروي أنه زار الهند أيضا، وتوفي فيما يقارب عام ٢٧٨هـ/ ٨٩١م. ويقول في كتابه بعد ما ينقل تاريخ الهند الذي يشبه القصة والأسطورة:

"والهند أصحاب حكمة ونظر. وهم يفوقون الناس في كل حكمة، فقولهم في النجوم أصح الأقاويل، وكتابهم فيه كتاب السندهند الذي منه اشتق كل علم من العلوم، مما تكلم فيه اليونانيون، والفرس وغيرهم، وقولهم في الطب المقدم، ولهم فيه الكتاب الذي يسمى سسرد، فيه علامات الأدواء، ومعرفة علاجها، وأدويتها، وكتاب شرك، وكتاب ندان، في علامات أربعمأة وأربعة أدواء، ومعرفتها بغير علاج، كتاب سندهشان، وتفسيره "صورة النجح"،... ولهم غير ذلك من الكتب في الطب، ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في أصول العلم منها،.... ولهم كتب كثيرة يطول ذكرها ويبعد عرضها"[2].

وخلاصة القول أنه وصل عشرات من الحكماء والأفاضل من الهند إلى بغداد عند ما وجدوا العناية والتقدير من قبل الخليفتين العباسيين منصور وهارون الرشيد، وتمتعوا بما سخا به البرامكة عليهم، فاشتغلوا في الأقسام العلمية والطبية التابعة للخلافة العباسية، وقاموا بنقل كثير من الكتب

(١) رسائل الجاحظ ١/ ٢٢٣-٢٢٤.
(٢) تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٤.

السنسكريتية في العلم والحساب والنجوم والفلك والطب والأدب والأخلاق إلى اللغة العربية. ومن الأسف الشديد أن أسماء هؤلاء الحكماء والأفاضل تغيرت في اللغة العربية تغيرا بعيدا لدرجة أنه لا يمكن التلفظ بها صحيحة اليوم بعد مآت من السنين، وربما هناك سبب آخر وهو أن معظم هؤلاء الحكماء كانوا - كما أعتقد - من أتباع الديانة البوذية، وصيغ الأسماء في ذلك العصر تختلف اختلافا عن صيغ الأسماء الفيداوية الموجودة. ثم إن بعض هذه الأسماء ليست اسما بل لقبا، ولقد تغيرت أوضاع هذه الأسماء في اللغة العربية كما تتغير الأسماء العربية في اللغات الأوربية.

أسماء الحكماء والأطباء

وعلى كل حال، فإن الحكماء الذين وردت أسماؤهم في الكتابات العربية هم: بهله، منكه، وبجي كو، وقلبرقل، وسندباذ. هذه الأسماء ذكرها الجاحظ، وترك غيرهم قائلا: فلان وفلان، وقال إن هؤلاء الحكماء كان اجتلبهم يحيى بن خالد البرمكي من الهند وكانوا من الأطباء[1].

وذكر ابن أبي أصيبعه من هؤلاء الحكماء: منكه وابن بهلة الذي ربما كان قد أسلم وتسمى بصالح، كما ذكر ابن النديم اسما آخر وهو ابن الدهن. وهؤلاء الثلاثة هم الذين كانوا أطباء مشهورين في بغداد حينذاك. وذكر في موضع آخر أسماء العلماء والحكماء الذين ترجمت كتبهم إلى اللغة العربية في الطب والنجوم وهي: باكهر، وراجه، ومنكه، وداهر، وزنكل، وأريكل، وجبهر، وأندي، وجباري[2].

(١) كتاب البيان والتبيين ٦٤.
(٢) الفهرست: ذكر كتب الطب و النجوم ١/ ٣٤٢، ١/ ٣٧٨.

منكه أو منكا

ذكر ابن أبي أصيبعه في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" أن منكه الهندي كان عالما بصناعة الطب وحسن المعالجة.

"إن الرشيد اعتل علة صعبة، فعالجه الطباء فلم يجد من علته إفاقة، فقال له أبو عمر الأعجمي: بالهند طبيب يقال له منكه، وهو أحد عبادهم وفلاسفتهم، فلو بعث إليه أمير المؤمنين فلعل أن يهب له الشفاء على يده، قال: فوجه الرشيد من حمله، ووصله بصلة تعين على سفره، فقدم وعالج الرشيد فبرأ من علته بعلاجه، فأجرى عليه رزقا واسعا وأموالا كافية"(١).

ثم تم تعيينه في دار الترجمة لنقل الكتب الهندية السنسكريتية إلى العربية. فهل نفهم أن منكه هو مانك عندنا؟

صالح بن بهله

هو الآخر كان ماهرا في الطب الهندي، ذكره أيضا ابن أبي أصيبعه في عداد المهرة من الأطباء الموجودين في بغداد. وذكر قصة طريفة لمرض ابن عم الرشيد إبراهيم بن صالح الذي أصابته الغيبوبة، وحكم عليه بالموت جبرائيل بن بختيشوع وهو الطبيب اليوناني النصراني الشهير، فغسل وكفن إلى أن طلب صالح بن بهلة على مشورة جعفر بن يحي، وتدخل في الموقف، وصاح: الله الله أن تدفن ابن عمك حيا، فوالله يا أمير المؤمنين ما مات،... ثم دخل على إبراهيم وعالجه فبرأ من مرضه، وعاش بعد ذلك دهرا ثم تزوج العباسة بنت المهدي، وولي مصر وفلسطين، وتوفي بمصر وقبره بها(٢).

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٧٥.
(٢) عيون الأنباء في تاريخ الأطباء ٤٧٦ ـ ٤٧٧.

ابن الدهن

وكان ابن الدهن رئيس الأطباء في مستشفى البرامكة، وكان هو الآخر من المفوض إليهم ترجمة الكتب الهندية إلى اللغة العربية(١).

ولقد حاول المستشرق سخاو أن يحقق أصل اسم الدهن في "مقدمة الهند"، وتوصل إلى أن هذا الاسم إما إنه "دهنيا" أو "دهتن". وربما اختير له هذا الاسم لما له من شبه لفظي بدهنونتري الذي كان طبيبا للآلهة الهندوسية كما ذكر في "منو شاستر".

العلوم المنقولة إلى اللغة العربية

نذكر فيما يلي العلوم التي نقلت كتبها من اللغة السنسكريتية إلى اللغة العربية، وهي الحساب والنجوم والطب والهيئة والقصص الأخلاقية والسياسة والألعاب وما إلى ذلك.

الحساب

صرح العرب بأنهم تعلموا كتابة الأرقام من واحد إلى تسعة من الهنود(٢)، ولذلك يسمونه (الحساب الهندي أو الأرقام الهندية). وتعلم من العرب شعوب أوربا، ولذلك سميت هذه الأرقام أرقاما عربية (ARABIC FIGURES.) لا يمكن تحديد ذلك الزمن بالضبط الذي تعلم فيه العرب هذه الأرقام من الهنود، ولكن يعتقد أن الحكيم الذي ورد من السند في بلاط المنصور في بغداد

(١) الفهرست١/ ٤٢١.
(٢) تحقيق ما للهند ١٢١، ورسائل إخوان الصفاء، الفصل في معرفة بداية الحروف٣/ ١٤١ ـ ١٤٢، وكشف الظنون لشلبي ١/ ٦٦٦.

عام ١٥٦هـ/ ٧٧٢م هو الذي علم العرب هذه الطريقة. و الأصح عندي أن الكتاب (سدهانت) الذي نقل إلى اللغة العربية كان الباب الثالث عشر والرابع والعشرون من أبوابه يحتويان موضوع الحساب والأرقام. فمن هذا الكتاب تعلم العرب هذه الطريقة [1]. كان العرب يكتبون الأعداد بالألفاظ، ثم بدءوا يكتبون بالحروف على شاكلة اليونان واليهود وهي طريقة مازالت متبعة في مجال علم الفلك والنجوم نظرا لاختصارها وصحتها، و هي رائجة كذلك في الشرق في تحديد مادة التاريخ على الطريقة الأبجدية. وعلى العموم، فإن محمد بن موسى الخوارزمي أول من صاغ هذا الحساب الهندي في قالب عربي.

إن المقال في دائرة المعارف البريطانية (١٩/ ٨٦٧) بخصوص الأرقام يتضمن الأرقام الهندية والعربية الشرقية والعربية الغربية والأرقام الأوربية وأشكالها المختلفة التي اكتشفت أثناء قراءة الكتبات والآثار والكتب المخطوطة القديمة.

ونظرة واحدة في هذه الأرقام تبين كيف سافرت هذه الطريقة الحسابية من الهند إلى العرب، ثم قام بتعديل أشكالها في اللغة العربية المنجم البلاطي لمامون الرشيد وهو الخوارزمي (عام١٢٢هـ/ ٧٤٠م، ١٦٣هـ/ ٧٨٠م) وهي التي وصلت أوربا عبر الأندلس.

وإن هناك فرعا معينا من فروع الحساب في أوربا يسمى (ALGORITHM، ALGORITEMS، وALGORISM،) وهي أشكال مشوهة محرفة لكلمة الخوارزمي. وهذه هي الطريقة الحسابية التي يسميها الأندلسيون حساب الغبار، وربما ذلك لأن الهندوس ما زالوا على

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ٢١.

طريقتهم ـ كما نشاهد في المدارس القروية ـ حيث يعلمون الأطفال الحساب بالكتابة على الأرض، والأرقام الأوربية مقتبسة من نفس هذه الأرقام الغبارية.

وهناك شهادة عملية على كون هذه الأرقام غير عربية وهي أنها تكتب من اليسار إلى اليمين خلاف طريقة الكتابة في اللغة العربية، ولكن العرب عندما يقرؤونها يقرؤونها من اليمين إلى اليسار. لقد نقل ابن النديم هذه الأرقام بعنوان الخط السندي وبين طريقة الكتابة إلى الألف، وهذا أيضا يدل على أن هذه الطريقة روجها الحكماء الهندوس من السند.

والشخص الثاني بعد الخوارزمي والذي كان في بداية القرن التاسع للميلاد هو علي بن أحمد النسوي (٣٦٩هـ/ ٩٨٠م ـ ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م) الذي روج الحساب الهندي في المسلمين، وألف كتابا في الحساب سماه (المقنع في الحساب الهندي)، ثم ألفت كتب أخرى في هذا الموضوع.

والواقع أنه كان قد نقل كتاب الأرثماطيقي لليونان إلى اللغة العربية قبل هذا بكثير [1]، إلا أن الحساب الهندي مع ذلك بقي محتفظا بأهميته ومنزلته. ومن العجيب أن هذا الحساب الهندي كان قد لقي قبولا ورواجا بين عوام الناس أيضا. ومن هنا كان الحكيم والفلسفي المسلم الشهير أبو علي سينا (عام ٤٢٨هـ ١٠١٥م) تعلم هذا الحساب في طفولته من بائع البقل كما ورد في عيون الأنباء في طبقات الأطباء. وهذا نصه

(١) توجد معلومات نفيسة عن هذا الموضوع في مقال الأستاذ أيتش سوتر التي تتضمن الموسوعة الإسلامية المطبوعة عام ١٩١٦م، على ص ٣١٥، و أما باللغة العربية فإن كتاب مفاتيح العلوم لمحمد بن الخوارزمي يتضمن تفصيل الموضوع في عدد من الصفحات بعنوان "الفصل الخامس في وجود الحسابات" على ١١٢ـ١١٧.

"يجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند، وأخذ يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه"[1].

علم النجوم والفلك

سبق فيما مضى أن الوفد الذي وصل بغداد من السند عام ١٥٤هـ/ ٧٧٠م كان يضم في أعضائه عالما شهيرا هندوسيا حمل معه كتابا في الفلك، وكان الاسم الكامل للكتاب في اللغة السنسكريتية (براهمسبهطسدهانت)، والذي اشتهر في اللغة العربية باسم "السندهند" [2]. ثم نقل بعده كتاب سنسكريتي آخر إلى اللغة العربية، وعرف في العربية بـ "أرجبهذ"، وكان يتلفظ بالسنسكريتية (آريبهاطاه / آريه بهت)، ثم ترجم كتاب ثالث بالسنسكريتية إلى اللغة العربية واسمه "الأركند" أشهر من اسمه "اهرقن"، وكان اسمه السنسكريتي الأصلي (كهندا كهديك).

إن العالم الهندي الذي قام بترجمة الكتاب الأول (السدهانت) عام ١٥٤هـ/٧٧٠م، كان له تلميذان عربيان في بغداد، أحدهما إبراهيم الفزاري، والثاني يعقوب بن طارق، وقام كل منهما بنقل الكتاب "السدهانت" إلى اللغة العربية بأسلوبهما، وعلى طريقتهما.

يتأسس علم الفلك عند الهندوس على تقسيم الزمن الذي يسمى (كلب) باللغة السنسكريتية. يعني ذلك أنهم أيضا كانوا يعتقدون على شاكلة الشعوب والأقوام القديمة الأخرى أن القمر والشمس وزحل والمشتري وغيرها من

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٣٧.
(٢) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص١٩.

الكواكب والتي يسميها العرب بالكواكب السبعة، خلقت كلها معا وفي وقت واحد في نقطة الاعتدال الربيعي، و بدأت حركتها معا، وهي سائرة الآن في مسارها. وعندما تجتمع هذه الكواكب السبعة بعد مليارات السنين في نفس النقطة ينهار هذا العالم وينتهي، ثم يقوم العالم من جديد، وتبدأ الحركة. وتسمى السنون القمرية النجمية بين هاتين النقطتين بـ "الكلبا". ومدة هذا الكلبا الواحد حسب حساب براهمغوبت تمتد "لأربعة بلايين، وثلاثمأة وعشرين مليون سنة" وبها يمكن حساب الأيام. هذا هو الكلبا الذي سماه العرب "سني السند هند"، وأيامه "أيام السند هند".

وبما أن حساب المليارات من السنين كان صعبا للغاية فإن آريبهاطاه / آرية بهت قام في أواخر القرن الخامس للميلاد، بأخذ الجزء الألفي من الكلبا، وأسس الحساب عليه، وذلك طلبا للتسهيل، و سمي هذا الحساب "جوغ" و"مهاجوغ". فالكتاب الذي ألف على هذه القواعد لآريبهاطاه سماه العرب "أرجبهذ"، أو أرجبهر، و سموا جوغ "سني أرجبهذ".

أخطأ العرب في فهم المعني السنسكريتي للسند هند وأرجبهر، حيث ظنوا أنهما بمعنى الأصول، ومن هنا اعتبروا خطأ أن معنى السند هند هو "الدهر الداهر"، ومعنى أرجبهر هو الجزء الألفي.

نقل هذا الكتاب الأخير أبو الحسن الأهوازي إلى اللغة العربية.

تعلم يعقوب بن طارق عام ١٦١هـ/ ٧٧٧م من هذا العالم أو أي عالم هندوسي آخر طريقة الأركند وهو أيضا من تصانيف براهمغوبت إلا أن بعض مبادئه مختلفة عن مبادئ السند هند.

نال كتاب السند هند من بين هذه الكتب الثلاثة شهرة أكثر ورواجا أوسع

بين الفلكيين الأوائل من العرب. وبالرغم من أن كتاب المجسطي للبطليموس اليوناني هو الآخر نقل إلى اللغة العربية بعد الكتاب الأول مباشرة، وبنيت المراصد هي الأخرى على عهد مأمون الرشيد، كما ازدادت وتوسعت التحقيقات والبحوث إلا أن الفلكيين العرب من بغداد إلى إسبانيا ظلوا متمسكين بهذا الكتاب الهندي وقواعده، فلخصوه وكتبوا شروحه وصححوا أخطائه، وأضافوا فيه تعديلاتهم، واستمر ذلك إلى القرن الخامس وهو عصر البيروني.

إن الزيج الذي وضعه الخوارزمي في عهد مأمون الرشيد قام فيه الخوارزمي - بالإضافة إلى ما أضاف وأحدث تطويرات في المبادئ اليونانية والإيرانية - بالإبقاء على المبادئ والقواعد الهندية أيضا، ولذلك سمى كتابه بـ "السندهند الصغير". وكذلك قام كل من حسن بن صباح، وحسن بن خصيب، وابن الأدمي، وفضل بن حاتم التبريزي، وأحمد بن عبد الله المروزي، وأبو ريحان البيروني، في القرون الثالث والرابع والخامس بمحاولات التصحيح والتعديل والتكميل في السندهند. وظلوا يضيفون فيه من المبادئ اليونانية والبحوث الشخصية.

وأما الأندلس فوصلتها مبادئ السند هند في القرن الرابع الهجري، حيث قام مسلمة بن أحمد المجريطي (من سكان مدريد) المتوفى عام ٣٩٨هـ/ عام١٠٠٧م بتلخيص "السندهند الصغير" وهو زيج الخوارزمي، ثم قام أبو القاسم أصبغ الأندلسي المعروف بابن السمح المتوفى عام ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م بإعداد زيج كبير جدا مؤسسا على مبادئ السندهند، وظل كثير من الناس فيما بعد يقومون باستنتاج النتائج على أساس مبادئ "السند هند" بالإضافة إلى البحوث والدراسات الجديدة، وذلك إظهارا لسعة علمهم كما عمل إبراهيم

الزرقالي من الأندلس نفسها في الكتاب الذي ألفه بعنوان "الصحيفة الزرقالية"، في موضوع الإسطرلاب. وبواسطة عرب إسبانيا أنفسهم وصل كتاب "السند هند" هذا إلى اليهود ثم إلى أوربا. وبالتالي قام الأستاذ الفاضل اليهودي إبراهيم بن عزرا بإعداد زيج مؤسسا على بعض مبادئ "السندهند" في أحد تصانيفه العبرية[1].

المصطلحات الهندية في اللغة العربية

تطور علم الفلك عند العرب بفضل دراساتهم الذاتية واجتاز كثيرا من مراحل تطوره وارتقائه، إلا أن هناك مع هذه التطورات مصطلحات فلكية هندية (أحدها متروك واثنان لا يزالان في التداول والاستخدام)، تدل على الطريق الذي دخل من خلاله علم الفلك إلى العرب.

فهناك مصطلح سنسكريتي بالإضافة إلى "السدهاهند" وغيرها من الأسماء في علم الفلك العربي القديم وهو "كردجه" أصلها(كرمجيا)باللغة السنسكريتية، ووضع له فيما بعد مصطلح "الوتر المستوي" في اللغة العربية.

وأما المصطلح الآخر الذي لا يزال مستخدما في علم المثلثات والرياضيات العربية فهو كلمة "جيب" التي يخطئ الناس في فهمها فيعتبرونها الجيب العربي الذي هو عبارة عن جيب القميص.والواقع أن هذه الكلمة معربة للكلمة السنسكريتية "جيوا"، ومنها اشتق جيب التمام والجيوب المنكوسة والجيوب المبسوطة والمجيب وغيرها من المصطلحات، وصيغت في القوالب العربية بحيث لا يشك في كونها عربية.

(1) تحقيق ما للهند ٢٣٩.

واللفظة الأخيرة هي كلمة الأوج التي هي عبارة عن آخر نقطة للارتفاع في اصطلاح علم الفلك. وهي في الواقع كلمة هندية أصلها أوج التي أصبحت الآن الأوج في اللغة العربية، و قد بلغت أوج استخدامها في اللغة العربية والفارسية ثم في الأردية بحيث لا يقدر أحد حتى على الشك في كونها من الكلمات الهندية. وهذا هو السبب في أن مادة هذه الكلمة غير موجودة في القواميس العربية الخالصة، ومثالها مثال الجنس المعرب الذي (هو مصطلح من مصطلحات علم المنطق، باللغة العربية) يعود أصله إلى الكلمة اليونانية (جنس) إلا أنها دخلت القواميس العربية، وأصبحت تستخدم بمعاني المجانسة والجنس والتجنيس. والواقع أنها لا توجد في اللغة العربية القديمة إطلاقا.

وهناك كلمتان أخريان تجدران بالذكر. كان العلماء الهندوس يحسبون في حركات الكواكب والنجوم، خط نصف النهار الذي يمر بوسط المعمورة. وكان وسط المعمورة هذا في رأيهم عبارة عن "جزيرة لانكا"، والتي سماها العرب "سرنديب"، وتعرف حاليا باسم "سيلان". كان العلماء الهندوس يزعمون أنها تقع على خط الاستواء، وإن النقطة التي يتقاطع عليها خط الاستواء مع خط نصف النهار يسميها العرب بـ "قبة الأرض". وكان الجغرافيون الهنود يحسبون طول البلد من خط نصف النهار من "جزيرة لانكا" ذاتها، ولذلك سمى أوائل الجغرافيين العرب سري لانكا بقبة الأرض.

فبما أن أهل الهند كانوا يرون أن نفس الخط الذي هو خط نصف النهار في سري لانكا يمر على مدينة "أجين" من مدن مالوه، وعلى هذا تم قياس طول البلد من مدينة أجين في السندهند، فإنهم بدءوا يقيسون طول البلد من مدينة أجين نفسها، وأخذ العرب أجين نفسها، وحولوها إلى "أزين" في صورتها

العربية، واعتبروا أن "أزين" هي قبة الأرض، ثم سقطت النقطة من زاء أزين، وأصبحت "أرين". ومن هنا جاء مصطلح "الأرين" يعني محل الاعتدال في الأشياء، كما كتب الشريف الجرجاني الفلسفي الشهير في كتابه "التعريفات".

"الأرين محل الاعتدال في الأشياء وهو نقطة في الأرض، يستوي معها ارتفاع القطبين، فلا يأخذ هناك الليل من النهار ولا النهار من الليل، وقد يطلق عرفا على محل الاعتدال مطلقا"[1].

وهناك كلمة أخرى استخدمها علماء الفلك العرب القدامى وهي "بذماسة". وهذه الكلمة كلمة سنسكريتية أصلها "آدهماسا" تعني الأشهر القمرية.

يخطئ بعض الناس فيفهمون أن كلمة الهندسة التي يستخدمها العرب للرياضيات والأرقام، فالسبب في ذلك يرجع إلى أنها منسوبة إلى الهند. وأعجب من هذا أن فاضلا إنكليزيا مثل فريدرك روسين الذي قام بنشر كتاب الخوارزمي (الجبر والمقابلة) من ليدن عام ١٨٣١م هو الآخر على سعة اطلاعه ودقة علمه يميل إلى الوقوع في نفس الخطأ. والواقع أن هذه الكلمة كلمة معربة للكلمة الفارسية (أنداز)، والتي استخدمت في اللغة العربية استخداما مصدريا بشكل "هنذزه" و "هندسة"[2]. ومن خطأ المتأخرين أن استخدموها في الفارسية والأردية بكسر الهاء، وعنوا بها الأرقام.

---

(١) التعريفات للجرجاني ٣١/١.

(٢) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص١١٧.

علماء الفلك الهنود والنظريات الحالية

من بين القضايا الفلكية التي نقلها العرب من علم الفلك الهندي قضيتان تطابقان تماما مع ما جاء في الدراسات الحديثة في مجال علم الفلك. كان براهمغوبت قسم العام إلى ٣٦٥ يوما و٦ ساعات و١٢دقيقة و٩ثوان. وأما التحقيقات الجديدة فهي تقسمه إلى٣٦٥ يوما و ٦ ساعات و ٩ ١٠٠ ٢٣ ثوان. وكذلك قضية دوران الأرض وحركتها.

كان "آريابهات" وأتباعه قائلين بحركة الأرض، وقد دحض براهمغوبت الاعتراضات التي تورد على "آريابهات" في هذه القضية. وهذه هي النظرية بعينها التي يقبلها الناس هذه الأيام.

الطب

إن العلم الثالث الذي أخذه العرب من الهند هو علم الطب، كانت بعض الكتب الطبية باللغة السريانية واليونانية قد نقلت إلى اللغة العربية في عهد خلافة الأسرة الأموية نفسه[١] إلا أنه شهد تطورا كبيرا في العراق في عهد الخلافة العباسية.

وقد سبق أن هارون الرشيد طلب لمعالجته طبيبا هنديا اسمه منكه أو مانك من الهند، وشفي بعلاجه. وبالتالي حظي الطب الهندي بعناية الخلافة العباسية، وساهم البرامكة في ذلك مساهمة كبيرة، لدرجة أنهم عينوا طبيبا هنديا بوصفه كبير الأطباء في مستشفاهم[٢] ولم يقتصروا على ذلك، بل بعث يحيى بن خالد

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٢٣٢ و مختصر تاريخ الدول ـ ذكر ماسر جويه.
(٢) الفهرست ص١/ ٣٤٢.

البرمكي أحد أفراده إلى الهند لجلب العقاقير الهندية[١] كما أنه عين طبيبا هنديا في دار الترجمة ليقوم بنقل الكتب السنسكريتية في الطب إلى اللغة العربية[٢].

وكذلك بعث الخليفة العباسي الموفق بالله في القرن الثالث الهجري رجالا إلى الهند ليقوموا بدراسة الأدوية الهندية[٣]. وقد وردت هذه الواقعة في مقدمة تاريخ الهند للكاتب سخاو، ولكنني لم أجد شخصيا هذه الواقعة في كتب التاريخ العربية إلا أنني وجدت ضمن القصص الأخرى أن الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ـ/ ٨٩٢م ـ ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) كان بعث أحمد بن الخفي الديلمي الذي كان ماهرا في علم الحساب والإسطرلاب إلى الهند للتحقق من عدة أشياء،[٤] ثم إنه من المعلوم أن المعتضد بالله كانت له علاقات ووسائل العلم في السند، ولذلك عندما خسف القمر وهزت الديبل (ميناء السند) هزة عنيفة عام ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م متزامنة مع الخسوف قاضية على حياة أكثر من مئة وخمسين ألف نسمة تحت الأنقاض هرع المراسلون والكتاب إلى إرسال هذا الخبر إلى بلاط الخلافة[٥].

ترجمة الكتب الطبية

إن الكتب الطبية التي نقلت من اللغة السنسكريتية إلى اللغة العربية أشهرها كتابان أحدهما كتاب "ششرت" الذي سماه العرب "سسرد". وكان هذا

(١) أيضا ص ١/ ٤٢١.
(٢) أيضا ص ١/ ٣٤٢.
(٣) مقدمة الترجمة الإنجليزية للهند ص ٣٠.
(٤) طبقات ابن باكويه، سيرة منصور حلاج ص ٤٤.
(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٦٣.

الكتاب موزعا في عشرة أبواب، ويتضمن علامات الأمراض ومعالجاتها وأدويتها بكل تفصيل. نقله منكه إلى اللغة العربية بأمر من يحيى بن خالد البرمكي، ليكون دستورا طبيا في مستشفيات البرامكة. والكتاب الثاني هو كتاب "سيرك" الذي كان ماهرا بارعا في الطب الهندي، نقل هذا الكتاب أولا إلى اللغة الفارسية ومنها نقله عبد الله بن علي إلى اللغة العربية[١].

والكتاب الثالث ذكر اسمه ابن النديم بأنه سندستاق، واليعقوبي في متنه المطبوع بأنه سندهشان[٢]، وفي نسخة أخرى لنفس الكتاب بأنه سندهستان وربما يكون أصله في اللغة السنسكريتية سندهستان أو سنديسان. ذكر ابن النديم أن تفسيره باللغة العربية "صفوة النجح" بينما ذهب اليعقوبي إلى أن معناه "صورة النجح"[٣]. يبدو عندي أن نسخة اليعقوبي أصح. وعلى كل حال، كان ابن الدهن رئيس مستشفى بغداد نقله إلى العربية[٤].

وأما الكتاب الرابع فقد ذكره اليقوبي وسماه "ندان"[٥] ولم يذكره ابن النديم، لا يتضمن هذا الكتاب إلا علامات "أربعمأة وأربعة أدواء ومعرفتها بغير علاج"[٦].

وكان هناك كتاب آخر نقل إلى اللغة العربية تضمن بيان العقاقير الهندية،

(١) الفهرست ١/ ٤٢١.
(٢) تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٤.
(٣) تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٤.
(٤) الفهرست ١/ ٤٢١.
(٥) تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٤.
(٦) تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٤.

وذكر فيه عشرات الأسماء لكل واحد من العقاقير، نقله إلى العربية الطبيب منكه لسليمان بن إسحق[١].

وهناك كتاب آخر نقل إلى اللغة العربية، و كان يتضمن كوائف الأدوية من حيث حرارتها وبرودتها، وقوتها وتأثيرها، وتفاصيل الاختلافات التي توجد في تقسيم الفصول في العام[٢].

وذكر ابن النديم كتابا آخر في الطب الهندي اسمه (استانكر) ترجمه ابن الدهن إلى اللغة العربية.

كما نقل إلى اللغة العربية كتابان لطبيب هندي اسمه "توقشتل" كان يتضمن أحدهما بيان مئة داء ومئة دواء، بينما كان الثاني" كتاب التوهم في الأمراض والعلل". يحتوي بيان أوهام الأمراض، وأسبابها. وكذلك نقل إلى العربية كتاب لطبيبة هندية اسمها "روسا". وكان الكتاب يتضمن أمراض النسوة ومتاعبها الخاصة.

ثم كان هناك كتاب آخر في علاج الحبالى، وكتاب مختصر في وصف العقاقير الهندية وكتاب في بيان السكر[٣].

وقد تكلم المسعودي عن كتاب في الطب، فذكر اسمه وما فيه كما يلي:

"وعمل في خزانة هذا الملك الكتاب الأعظم في معرفة العلل والأدواء والعلاجات، وشكلت الحشائش وصورت"[٤].

(١) نفس المصدر ١/ ٩٤، و الفهرست ١/ ٤٢١.
(٢) تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٤.
(٣) الفهرست ١/ ٤٢١.
(٤) المسعودي ص ٨٢.

ذكر ابن النديم "الأطر" ضمن بيان الأشربة، وهو في أغلب الظن منسوب إلى طبيب كان اسمه أتري، كما ذكر طبيبا يسمى ساديرم[١]. وربما يعود أصله إلى "ستياوارمن" الذي ذكر البيروني كتابه ستيا[٢].

وبالإضافة إلى الكتب يجب أن نذكر هنا بقية الآثار السنسكريتية والهندية التي لا تزال واضحة في الطب العربي.

لا نتعرض هنا ضمن هذه الآثار لما ترتب على الطب العربي في عصر الملوك المسلمين، لأنه موضوع مستقل، بل يهمنا في هذا المقام تلك الآثار فقط التي طرأت على الطب العربي حتى القرن الرابع الهجري.

نتناول في هذا الصدد أول ما نتناول تلك الأدوية التي رحلت إلى العرب من الهند، والتي أوفد الخلفاء والبرامكة رجالا إلى الهند لدراستها وتحقيقها. إن كثيرا من هذه الأدوية أسماؤها هندية ليس فقط من حيث منشأها بل من حيث لغتها أيضا. ويوجد هناك دواء على الأقل كان اسمه معروفا ومتداولا بين العرب حتى في عصر النبي نفسه ﷺ، وهو القسط الهندي[٣]. وأما الزنجبيل (زنجابيرا) فقد جاء ذكره في القرآن الكريم نفسه. و هناك أدوية أخرى ذكرنا أسمائها في سياق الصلات التجارية بين العرب والهند.

من أعجب ما في اللغة العربية اسمان: اسم للغذاء وآخر للدواء. وأما الدواء فهو الإطريفل، وهو مشهور جدا، ويجري على لسان كل مريض وطبيب. وقد كتب محمد الخوارزمي في القرن الرابع الهجري:

(١) الفهرست ١/ ٤٢٤.
(٢) مقدمة الهند لزخاو ص٣٣.
(٣) أخرجه البخاري كتاب الطب برقم ٥٢٧٩ ومسلم في الطهارة برقم ٤٣٢ و ٤٣٣.

"إطريفل هو بالهندية "تري أبهل" أي ثلاثة أخلاط، وهي اهليلج أصفر، وبليلج، وأملج"[١].

وكذلك يوجد هناك دواء آخر من هذا النوع يسمى "أنبجات"، ويقول عنه الخوارزمي:

"الأنبج شجرة بالهند....وهي التي ربيت بالعسل من الأترج، والاهليلج ونحو ذلك"[٢]، وربما يجوز أن نسميه بالمربي.

ولكن أعجب من ذلك كله كلمة "بهطه"، التي وصفها الخوارزمي بأنه غذاء للمرضى.

يقول الخوارزمي:

"البهطة كلمة سندية، وهو الأرز يطبخ باللبن والسمن"[٣].

هل فهمتم ما حقيقة هذه البهطة؟ هي نفس البهات الهندية وقد أصبحت غذاء للمرضى عند العرب لخفتها، ويمكنك أن تسميه بالكير أو الفيرني.

البيطرة

نقل إلى العربية كتاب الحكيم الطبيب شاناق في علاج الحيوانات[٤].

(١) مفاتيح العلوم ص ١٠٤.
(٢) نفس المصدر ص١٠٤.
(٣) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ١٠٠.
(٤) مفاتيح العلوم للخوارزمي ٩٠.

النجوم والعرافة والجفر والرمل

يعرف الجميع مدى ما ترتبط هذه الأشياء بالهند. كانت هذه الأشياء قد لقيت رواجا شائعا في العرب في عصر الخليفة العباسي الثاني منصور نفسه، الذي تسلم زمام الحكم في عام ١٤٦هـ/ ٧٦٤م. وكان الخليفة العباسي منصور مولعا بمثل هذه الأشياء. ولذلك عندما بنيت مدينة بغداد بني كل شيء فيها على أساس الزيجات.. كان المنجمون الإيرانيون مسيطرين في البلاط العباسي في أول الأمر، ثم أحكم المنجمون الهندوس نفوذهم وسيطرتهم فيه، يبدو أنه في زمن منصور نفسه نقلت الكتب الهندية في هذا الموضوع إلى اللغة العربية. وأشهر هؤلاء الحكماء المنجمين الحكيم كنكه، وكان طبيبا مبرزا ومعروفا، كما ذكره ابن أبي أصيبعه حيث يقول:

"كنكه الهندي حكيم بارع من متقدمي حكماء الهند، وله نظر في صناعة الطب، وقوى الأدوية، وطبائع المولدات وخواص الموجودات، وكان من أعلم الناس بهيئة العالم وتركيب الأفلاك وحركات النجوم[١]".

وطبقا لتحقيق الأستاذ سخاو يمكن أن يكون الأصل الهندي لهذا الاسم "كنكتايا"، لأن الهند قد أنجبت فيما سبق طبيبا هنديا شهيرا بهذا الاسم يعتبر مرجعا في الأدوية الهندية.[٢]

وقد ذكر ابن النديم أربعة كتب لهذا الحكيم نقلت إلى اللغة العربية[٣].

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٧٣.
(٢) مقدمة الهند ص٣٢.
(٣) الفهرست ١/ ١٧٨.

١) كتاب النمودار في الأعمار
٢) كتاب أسرار المواليد
٣) كتاب القرانات الكبير
٤) كتاب القرانات الصغير

يروي ابن أبي أصيبعه أن هذا الكتاب الأخير موضوعه الطب[١]، إلا أن ابن النديم ذكره في النجوم نفسها. ومن الممكن أن يكون هذا الكتاب في الموضوعين في وقت واحد حيث كان الطب القديم يحتوي كثيرا من أمور النجوم. وذكر ابن أبي أصيبعه كتابين آخرين لهذا الحكيم، وهما:

٥) كتاب في التوهم
٦) كتاب في أحداث العالم و الدور في القران[٢]،

ويذكر نفس الكاتب نقلا عن المنجم أبي معشر البلخي عام ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م.

"أن كنكه هو المقدم في علم النجوم عند جميع العلماء من الهند في سالف الدهر"[٣].

كان المنجم المسلم عطارد بن محمد الذي عاش في القرن الثاني للهجرة كتب كتابا في الجفر الهندي، وعلاوة على ذلك فقد ذكر ابن النديم أسماء ثلاثة منجمين آخرين.

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٧٣.
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٧٣.
(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٧٣.

١) جودر الهندي، وكتابه كتاب المواليد

٢) نهق الهندي، واسم كتابه "أسرار المسائل"

٣) صنجهل الهندي، وكتابه كتاب المواليد الكبير و قد ذكره البيروني أيضا في المتجمين[١].

كما نقل إلى العربية كتاب من إحدى لغات الهند في قراءة الكف والترويج والعرس[٢].

وبالإضافة إلى ذلك يوجد هناك كتاب آخر اسمه زجر الهند هو في الفال[٣].

علم الحيات و الأفاعي

أهل الهند مشهورون في معرفة أجناس الحيات والأفاعي وفي معرفة الأدعية والرقى لعلاج لدغة الحيات. ويعرف هذا العلم عندهم بـ "علم الحيات". نقل كتاب للحكيم المسمى بـ "راى" الهندي في هذا الموضوع إلى اللغة العربية. ويتضمن الكتاب بيان أقسام الحيات وسمومها [٤]، كما يذكر في الكتابات العربية كتاب آخر في نفس الموضوع لحكيم هندي آخر[٥].

(١) الفهرست لابن النديم ١/ ٣٧٨.
(٢) تحقيق ما للهند ١١٠.
(٣) الفهرست ١/ ٤٣٦.
(٤) الفهرست ١/ ٤٢١.
(٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٤٧٤.

علم السموم

كان أهل الهند قد بلغوا مبلغ الكمال في هذا العلم أيضا، فقد ذكر زكريا القزويني في آثار البلاد عند ما ذكر الهند إحدى العقاقير باسم (البيش)، وأتبعها بقصة عجيبة لتقاتل الملوك فيما بينهم بواسطتها من وراء ستار الصداقة. وكلمة البيش هذه كلمة هندية، وهي "بش" معناها السم. وكان الملوك على العموم بحاجة ماسة إلى معرفة هذا العلم لحماية أنفسهم، والحفاظ عليها.

يقول زكريا القزويني:

"من عجائبها البيش وهو نبت لا يوجد إلا بالهند، سم قاتل، أي حيوان يأكله منه يموت. ويتولد تحته حيوان، يقال له فأرة البيش، يأكل منه ولا يضره، ومما ذكر أن ملوك الهند إذا أرادوا الغدر بأحد عمدوا إلى الجواري إذا ولدن، وفرشوا من هذا النبت تحت مهودهن زمانا، ثم تحت فراشهن زمانا ثم تحت ثيابهن زمانا ثم يطعمونهن في اللبن، حتى تصير الجارية إذا كبرت تتناول منه ولا يضرها، ثم بعثوا بها مع الهدايا إلى من أرادوا الغدر به من الملوك فإنه إذا غشيها مات[١]".

إن كتاب شاناق العربي الذي يدور حول فن الحرب، وقد سبق ذكره فيما مضى، يحتوي بابا وهو الباب الأخير من هذا الكتاب، عنوانه "الطعام والسم". يبدو أنه كان له بالإضافة إلى ذلك كتاب آخر باللغة العربية في موضوع السم حتى القرن السابع للهجرة، ذلك أن ابن أبي أصيبعه(٦٦٨هـ ١٢٧٠م) وصف ذلك الكتاب كما يلي:

(١) آثار البلاد و أخبار العباد ١٢٩.

"ولشاناق من الكتب كتاب السموم، خمس مقالات، فسره من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي منكه الهندي، وكان المتولي لنقله بالخط الفارسي رجل يعرف بأبي حاتم البلخي فسره ليحيى بن خالد ابن برمك، ثم نقل للمأمون (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه [1]".

و ذكر ابن النديم كتابا نقل إلى العربية من الهندية في نفس موضوع السم إلا أنه لم يذكر المؤلف [2].

الموسيقى

سبق فيما مضى بيان الجاحظ (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) الذي مدح فيه الموسيقى الهندية، وذكر الكنكلة بصفة خاصة. إن التصانيف والمؤلفات التي تمت وظهرت في بغداد لم يوجد فيها أي كتاب في الموسيقى الهندية.

لكن المؤرخ الأندلسي للعلوم القاضي صاعد الأندلسي (عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) كتب أنه وصل إليهم من الهند "كتاب نافر" في الموسيقى الهندية، ومعناه اللغوي "ثمار الحكمة" وتضمن الكتاب بيان النبرات والأصوات.

يقول صاعد الأندلسي:

"ومما وصل إلينا من علومهم في الموسيقى الكتاب المسمى بالهندية (نافر)، وتفسيره ثمار الحكمة، وفيه أصول اللحون وجوامع تأليف النغم" [3].

ولا غرو إذا كان هذا الاسم كلمة فارسية(نوبر)، ومعناها الثمرة الجديدة.

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٤٧٤.
(٢) الفهرست ١/ ٤٣٦.
(٣) طبقات الأمم ٢٠.

ويكون قد نقل إلى العربية عن طريق الفارسية، إلا أن صديقا لي هندوسيا يقول: إن نافر يمكن أن تكون "ناد" التي تعني الصوت باللغة السنسكريتية.

المهابهارتا

في تاريخ الهند القديم يوجد كتاب فارسي بعنوان مجمل التواريخ في مكتبة باريس، وهو يتضمن كثيرا من قصص المهابهارتا. لقد ورد في مقدمة هذا الكتاب أن أبا صالح بن شعيب نقله من الهندية/ السنسكريتية إلى العربية، ثم قام بترجمته إلى العربية عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م أبو الحسن على الجبلي الذي كان مدير مكتبة الأمير الديلمي. قد أورد خلاصته الأستاذ ايليوت بإيجاز[1].

السياسة والاستراتيجية الحربية

نقل إلى العربية في هذا الموضوع كتب لفاضلين هنديين باللغة البالية أو السنسكريتية. يسمي العرب أحدهما شاناق والثاني باكهر أو باجهر. و"أما موضوع كتاب شاناق الهندي فهو في أمر تدبير الحرب وما ينبغي للملك أن يتخذ من الرجال وفي أمر الأساورة والطعام والسم، وكتاب باجهر الهندي عبارة عن معرفة السيوف ومحاسنها وعلاماتها" [2].

ونقل كتاب آخر من اللغة السنسكريتية، وسمي بالعربية "أدب الملك". ويتضمن هذا الكتاب اسم المترجم وهو أبو صالح بن شعيب، ولكن لم يحدد عصره. ولا يوجد الآن لهذا الكتاب إلا ترجمته الفارسية، التي كان قام بها أبو

(١) تاريخ الهند ١/ ١٠٠.
(٢) الفهرست ١/ ٤٣٦.

الحسن بن علي الجيلي عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م وكان مديرا لمكتبة الأمير الديلمي(١).

الكيمياء

أيا ما كانت حقيقة الكيمياء القديمة إلا أن هذه المادة لم تحرم عناية الهنود. فقد ذكر ابن النديم أن كتابا نقل من الهندية إلى العربية في هذه المادة أيضا، كما أن كتابا باسم "خاطف" لعالم الكيمياء العربي الشهير جابر بن حيان هو الآخر مشهور ومعروف بهذه النسبة الهندية نفسها(٢)، غير أن هناك غموضا شديدا يكتنف اسم الكاتب.

حدود المنطق

يذكر ابن النديم (٣٧٧هـ/ ٩٨٧م) في كتابه كتابا عربيا بعنوان "كتاب حدود منطق الهند"، نقل من الهندية إلى العربية إلا أن اليعقوبي الذي سبقه بقرن ذكر هذا الكتاب ضمن كتب المنطق والفلسفة بعنوان "طوفا في علم حدود المنطق"(٣).

والسؤال الذي يطرح هنا أيراد بالمنطق المنطق الاصطلاحي في علم المنطق أم يراد به المعنى اللغوي وهو النطق والكلام؟ ويكون الكتاب عبارة عن قصص وروايات وأدب وأخلاق، تهدف تعليم الإنسان طريقة الكلام وأسلوب الحديث؟ وقد ذكره ابن النديم هذا الكتاب تحت عنوان " أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث" مما يدل على أنه لم يكن في فن المنطق.

(١) تاريخ الهند ايليوت ١/ ١١٢.
(٢) الفهرست ١/ ٤٩٧.
(٣) اليعقوبي ١/ ٩٤.

المعاني و البيان

كتب الجاحظ (عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) في كتابه "كتاب البيان والتبيين":

"قال معمر أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندي - أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند مثل منكة وبازيكر وقلبرقل وسندباذ وفلان وفلان - ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها، قال أبو الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة الترجمة فإذا فيها"(١).

ثم لخص الجاحظ الكتاب في صفحة تتناول ما يجب أن يتصف به الخطيب من صفات وما يتحلى به الكلام من أساليب بيان.

الشعبذة والسحر والرقى

وهي من الفنون الشهيرة القديمة في الهند، وقد اهتمت معظم الكتب العربية التي تحدثت عن الهند وخصائصها بالحديث عن شعبذتها وسحرها ورقيها، يقول ابن النديم:

"وللهند اعتقاد في ذلك وأفعال عجيبة" ثم يقول: "وللهند خاصة علم التوهم ولها في ذلك كتب قد نقل بعضها إلى العربي"(٢).

والمقصود بعلم التوهم ربما هو ما يسمونه اليوم بـ "التنويم" حيث يذكر اليعقوبي:

"وكان كيهن قد استعمل الفكر، فكان أول من قال بالتوهم. وإن الطبيعة

(١) كتاب البيان و التبيين للجاحظ ٦٤.
(٢) الفهرست ١/ ٤٢٩.

تتصرف إلى ما تتوهمه، فما توهمت أنه ينفعها نفعها وإن كان ضارا»[١].

وكان كيهن ملكا من ملوك الهند، رجلا ذكيا، حكيما، أديبا.

يذكر ابن النديم مصنفا هنديا، لم يستطع حتى المحقق قراءة اسمه فخط خطا في موضعه وتركه، و يبدو أنه "ميسه الهندي" ثم يذكر ابن النديم:

" وهو من القدماء ومذهبه في النيرنجات مذهب الهند وله كتاب سلك فيه مسلك أصحاب التوهم»[٢].

القصص والحكايات

نقلت كتب عديدة من الهندية إلى العربية في هذا الموضوع، اثنان منها باسم "كتاب سندباد الحكيم ". ولهما نسختان كتاب سندباذ الكبير وكتاب سندباذ الصغير. وذهب البعض بالنسبة لهذا الكتاب إلى أنه من كتب أهل فارس، إلا أن ابن النديم يرى أنه من الكتب الهندية.

ومن الممكن أنه كمثل الكتب الأخرى نقل إلى الفارسية أولا ثم ترجم منها إلى العربية مما أوهم الناس أنه من الكتب الفارسية.

توجد قصتان ضمن قصص "ألف ليلة وليلة" منسوبتان إلى السند باد البري والسند باد البحري، إحداهما تتضمن المشاهدات العجيبة والأحداث الغريبة التي واجهها تاجر بحري اسمه سندباد في جولاته البحرية، والقصة الأخرى تتضمن نفس الشيء مما واجهه السندباد في سياحته البرية. وكلمة السندباد هذه حدت ببعض الناس إلى الاعتقاد [٣] بأنها هي تلك القصة الهندية إلا أنه غير

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ٨٧.

(٢) ابن النديم ١/ ٤٣٤.

(٣) رسائل شبلي ص ٧٦٣.

صحيح، لأن هذه القصص ـ في المقام الأول ـ قصص سندباذ الحكيم [١]، وأما التي وردت في "ألف ليلة وليلة" قصص تاجر. ومن جهة أخرى، فإن قصص السندباد التي تتضمنها قصص "ألف ليلة وليلة" لا تنسجم وتتفق مع الذهنية والأوضاع الهندوسية. وعلاوة على ذلك، فقد ذكر المسعودي شخصيات هذه القصة على نحو:.

"دون له كتاب" الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك" وهو الكتاب المترجم بالسندباد[٢]".

وهذا لا ينطبق على سندباد المذكور في ألف ليلة وليلة.

بالإضافة إلى ذلك، توجد هناك قصص عديدة أخرى نقلها العرب إلى لغتهم، أحدها قصة "ديك الهندي" وهي "كتاب دبك الهندي في الرجل والمرأة".

وهناك قصة أخرى، وهي "كتاب الهند في قصة هبوط آدم إلى الأرض"[٣]، ما أدري إلى أية قصة أسطورية تشير هذه القصة؟.

وكذلك توجد هناك قصة ملك تتحدث عن الحرب والسباحة وهي "كتاب ملك الهند القتال والسباح"، وقصة أخرى تتحدث عن هنديين أحدهما جواد والآخر بخيل، وعن المناظرة التي جرت بينهما في الجود والبخل، ثم حكم الملك في المناظرة[٤]، كما نقل كتاب آخر إلى العربية في "خدع النساء"، وورد اسم مؤلفه كوش الملك[٥].

---

(١) الفهرست و تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٣.

(٢) مروج الذهب ١/ ٨٢.

(٣) الفهرست١/ ٤٢٤.

(٤) الفهرست ١/ ٤٢٤.

(٥) تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٣.

كما يوجد ذكر لكتاب آخر وهو علم الهند، نقل إلى النثر العربي أولا، ثم نظمه الشاعر أبان بن عبد الحميد بن لاحق الرقاشي [١] باللغة العربية بالإضافة إلى القصص والأساطير المتعددة التي توجد الإشارة إليها في رسائل إخوان الصفا.

الأخلاق و الحكم

كان من عادة الحكماء القدامى أنهم كانوا يبينون للناس و يعلمونهم أمور الأخلاق والمواعظ بأسلوب قصصي وتمثيلي، وعلى لسان الحيوانات من كلاب وفيران وقطط وغربان. وهناك كتاب باللغة السنسكريتية نال شهرة خاصة عظيمة في اللغتين الفارسية والعربية هو كتاب "كليلة ودمنة" الذي كان اسمه (بنج تنتر) بالسنسكريتية حسب ما جاء في كتاب البيروني.

نقل هذا الكتاب قبل الإسلام إلى الفارسية على عهد الملوك الساسانيين في إيران، ثم ترجمه عبد الله بن المقفع بعد الإسلام إلى اللغة العربية وسط القرن الثاني للهجرة. وقد نال هذا الكتاب في اللغة العربية من الشهرة والقبول والتقدير من قبل الأمراء والسلاطين ما جعله يترجم من العربية إلى الفارسية ومنها إلى العربية ومن شكله المنظوم إلى شكله المنثور وبالعكس. وظل الشعراء والمترجمون والكتاب يستعرضون مقدرتهم على ترجمته في النظم والنثر، ويتلقون جوائزهم ومنحهم من الملوك والأمراء المسلمين. وعندما قام الشاعر العربي أبان بن عبد الحميد بترجمته شعرا إلى اللغة العربية، وتقدم به في أواخر القرن الثاني الهجري إلى جعفر البرمكي وزير الخليفة هارون الرشيد أنعم عليه

(١) الفهرست ١/ ٤٢٤.

الوزير جعفر البرمكي ووهب له مئة ألف درهم [١]. ثم نقل من اللغة العربية إلى جميع لغات العالم، فلم تبق لغة متحضرة في العالم من أوربا إلى آسيا وإفريقيا إلا ونقل إليها هذا الكتاب. وله تاريخ مستقل في ترجماته ونسخه.

كان الأستاذ سيد علي البلجرامي قدم بحثا محققا مفصلا باللغة الأردية حول هذا الموضوع في جلسة المؤتمر التعليمي للمسلمين الذي عقد في علي جراه عام ١٨٩١م. وهناك مقال آخر كتبه كاتب هذه السطور في نفس الموضوع ونشرته مجلة عليجراة الشهرية ربما في عام ١٩٠٥م أو فيما تقدم أو تأخر قليلا.

يذكر أن اسم مؤلف هذا الكتاب كان الحكيم "بيدبا"، واسم الملك الذي ألف له هذا الكتاب "دابشليم".

ويعلّم هذا الكتاب ما يحتاج إليه الملوك من أمور عن طريق قصص الحيوانات وحكاياتها في عشرة أبواب. ويظهر أن الملك الذي ذكر اسمه "دابشليم" كان ملك الكجرات، ذلك أن الرحالة العربي ابن حوقل وهو من القرن الرابع للهجرة وصف ملك الكجرات "بلهرا" بأنه صاحب "كتاب الأمثال"[٢]، وكتاب الأمثال في اللغة العربية هو كتاب "كليلة ودمنة".

يكتب اليعقوبي:

"ومن ملوكهم دبشليم، وهو الذي وضع في عصره كتاب كليلة ودمنة، وكان الذي وضعه بيدبا حكيم من حكمائهم، وجعله أمثالا يعتبر بها، ويتفهمها ذوو العقول، ويتأدبون بها"[٣].

(١) كتاب الوزراء، و الكتاب للجهشياري ص ٢١١.
(٢) كتاب صورة الأرض ٢٧٧.
(٣) اليعقوبي ١/ ٨٨.

وقد ورد في تاريخ فرشته أن الملك الذي تم خلعه عند غزو السلطان محمود لمملكة الكجرات كان لقب سلالته دابشليم.

خطأ البروفيسور سخاؤ

ذكر الأستاذ سخاو في مقدمة تاريخ الهند "كتاب بيدبا في الحكمة" وهو يحيل ذلك إلى ابن النديم. وبين في تحقيقه أن بيدبا في الأصل فيدفياس الذي كان مؤسس "الفيدانت". فالمراد بـ "كتاب بيدبا في الحكمة" فيدانت، وهذا قياس باطل. وقد بنى الأستاذ على هذا القياس الباطل قياسه بأن نظرية وحدة الوجود ما جاءت في المسلمين إلا بعد ترجمة الفيدانت لفيد فياس (١).

لا ننفي تأثر الصوفية من المسلمين بالفيدانت، ولكننا ننفي اطلاع المسلمين والعرب على الفيدانت في ذلك العهد الساحق في القدم مهما كانت نوعية الاطلاع، بل تأثر الصوفية الأوائل من المسلمين بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية. ومهما كان الأمر، فإن تاريخ هذه القضية لا يهمنا هنا بل هدفنا إزالة الوهم الذي وقع فيه الأستاذ الفاضل بسبب فقرة ابن النديم.

من المعروف أن المواعظ والنصائح التي يتم تعليمها بواسطة الأمثال والحيل تسمى "الحكمة"، فالمراد بكتاب بيدبا في الحكمة هو نفس كتاب "كليلة ودمنة"، الذي سمي صاحبه بالحكيم "بيدبا" في بداية الترجمة الفارسية، والذي موضوعه تعليم العقل والحكمة ممثلة في القصص والأمثال. وهذا هو السبب في أن ابن النديم ذكر "كتاب بيدبا في الحكمة" ضمن كتب القصص والأمثال وليس ضمن كتب الفلسفة.

(١) مقدمة الهند ص ٣٣.

وعلى كل حال، فإن هذا هو الكتاب المهم الذي أنتجه الذهن الهندي، وسار إلى جميع أنحاء العالم بالمجهودات العربية.

يكتب البيروني:

"وبودي إن كنت أتمكن من ترجمة كتاب بنج تنتر وهو المعروف عندنا بكتاب "كليلة ودمنة" فإنه تردد بين الفارسية والهندية ثم الفارسية والعربية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله ابن المقفع في زيادته باب برزويه فيه قاصدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين، وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية"(١).

يبدو أنه لم يسنح للبيروني أن يقوم بترجمة الكتاب، وقد صار هذا الكتاب العربي مقبولا، وهو مدرج حتى يومنا هذا في المقررات الدراسية للأطفال في بعض الأمكنة.

والكتاب الثاني من كتب الحكمة الهندية عبارة عن كتاب "بوذاسف وبلوهر"، وإن كانت شهرته أقل من "كليلة ودمنة". ولكن مما لا شك فيه أن أهميته وعظمته تفوق كتاب كليلة ودمنة بكثير، وقد ذكر ابن النديم هذا الكتاب في القصص والحكايات الهندية التي نقلت إلى اللغة العربية.

لاشك أن المقصود بـ بوذاسف هو "بوذا"، لأنهم كانوا يقلبون الدال ذالا في الفارسية القديمة، ولذلك أصبح الاسم بوذاسف بدلا من أن يكون بوداسف. وأما كلمة سف الملحقة بالاسم فهي عبارة عن "ستو" حسبما ذهب إليه الأستاذ سخاو، فصارت "بودي ستو" "بوذاسف"، حيث قلبت الواو فاء

(١) تحقيق ما للهند ١١١.

كما تقلب V الرومانية إلى الفاء في اللغة العربية. وأما أصل بلوهر فيذهب الأستاذ سخاو إلى أنه "بروهيتامبر" الكلمة التي تعني المعلم المربي.

يتضمن هذا الكتاب قصص ولادة بوذا وتربيته وتعليمه، وزهده في الدنيا لما فوجئ به من حادث، وقدوم فقير إليه متلبسا بلباس تاجر من سرانديب عند بلوغ هذا الخبر إليه، والمناقشة والمناظرة الطويلتين بين الأستاذ والتلميذ حول المسائل المتعلقة بالكون وأسراره الخفية المستعصية على الحل بأسلوب التمثيل والإشارة والتلميح، وما تبودل بينهما من أسئلة وأجوبة شافية.

نقل هذا الكتاب من اللغة العربية إلى كثير من اللغات المختلفة ولقي رواجا وقبولا بين الأوساط الدينية لدرجة أن النصارى نسبوه إلى أحد قديسيهم، وتبنت طائفة (الشيعة) من المسلمين جزءا كبيرا من هذا الكتاب ونسبوه إلى إمام من أئمتها. وأما كتاب "إخوان الصفا" الذي هو كتاب شبه فلسفي وشبه ديني، ويتمتع بأهمية خاصة من حيث إنه قامت بإعداده جمعية سرية وبطريقة سرية، مؤسسا على مذهب فكري خاص، في القرن الرابع للهجرة، وكان يحتل مكانة الصحيفة الدينية عند فرقة مذهبية من المسلمين، فهو أيضا يتضمن أبوابا مختلفة من كتاب (بوذاسف و بلوهر).

قبل ثلاثين عاما، قام بترجمته السلسة باللغة الأردية الأستاذ عبد الغني الوارثي البهاري رحمه الله. وأتذكر جيدا أنه عند ما طبعت هذه الترجمة الأردية ووصلت نسخته إلى مشرفي "عزيز"، وكنت حينذاك في بداية معرفتي باللغة العربية، أبديت له عن رغبتي في رؤية هذا الكتاب، فمنعني من ذلك قائلا بأنك "لو تقرأ هذا الكتاب تزهد في الدنيا وترغب عن التعلم والدراسة". وهذه الفقرة أججت نار الشوق في قلبي وحملتني على "ارتكاب الجريمة". فلما نام في

الليل اختلست الكتاب من طاولته وأنهيت قراءته ثم رجعته على طاولته قبل أن تطلع الشمس.

ومنذ ذلك اليوم، لا يزال هذا الكتاب في نظري من الكتب العديدة في العالم، التي تفعل فعلها حتى في القلوب المذنبة المجرمة. فقد تضمن هذا الكتاب من الأمثلة ما نجده اليوم في كلام المسيح عليه السلام أيضا، ولا يمكن لنا أن نقول من عمق أي بحر استخرجت هذه اللآلي أولا؟.

وقبل أن نختم هذا الفصل يجب أن نخص بالذكر عالمين مسلمين وفدا إلى الهند ليس لغرض من أغراض السياحة ومتعة السفر، بل للاستقاء من بحر العلوم والفنون والارتواء من منبع الحكمة والعقل في هذه البلاد.

التنوخي

أحد هذين الفاضلين محمد بن إسماعيل التنوخي، وربما كان في القرن الثالث للهجرة، وكان عالما مشهورا في علوم الفلك والنجوم. زار الهند وتلقى معلومات نادرة جمة في موضوعه ورجع.[١]، يقول عنه صاحب طبقات الأمم:

"ومنهم محمد بن إسماعيل التنوخي المنجم الذي دخل إلى الهند وصدر عنها بغرائب من علم النجوم، منها حركات الإقبال والإدبار"[٢].

ومن الأسف أننا لا نعرف كثيرا من ترجمته، فلو أن المؤرخ المسلم الأندلسي القاضي صاعد لم يذكره فلعلنا لم يكن بمقدورنا أن نعرف حتى اسمه.

---

(١) طبقات الأمم للقاضي صاعد.

(٢) طبقات الأمم ٨٨.

البيروني

والشخصية الثانية هي شخصية أبي ريحان البيروني وكان حكيما ورياضيا مشهورا، ومن سكان خوارزم. وكان له ولع شديد بمعرفة المعتقدات والأفكار والقضايا الخاصة بالأقوام و الشعوب المختلفة في العالم. ولذلك ربما لا يوجد من مؤلفاته ما يخلو من دلائل تدل على رغبته هذه.

لا شك أنه كان مطلعا قبل أن يزور الهند، على أحوالها وعلومها وحضارتها من خلال كتب المتقدمين عليه، حيث كانت العلوم العربية والتحقيقات العلمية للمسلمين حتى عصره قد اجتازت مراحل متقدمة وبلغت أوجها، وكانت العلوم التي تعلموها من الهنود والفرس واليونان قد ارتقوا بها رقيا ملموسا، قد عدلوا ما كان منها يحتاج إلى التعديل وكملوا ما كان يتطلب التكميل. ولذلك لم يكن هناك أي سبب لحمل البيروني على اكتساب علوم الهند مباشرة غير حبه للتجديد.

وعلى كل حال، فمن غير الواضح متى وصل البيروني الهند، وكم مكث هنا، وما هي الأمكنة التي جاب فيها. ولكن من المعلوم أنه كان دخل غزنين من خوارزم عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، وأنهى كتابه "كتاب تحقيق ما للهند" عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م. وكان السلطان محمود قد توفي قبله بثلاث سنوات عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، فالمدة التي قضاها البيروني في الهند يمكن أن تكون ما بين ١٢ و ١٣ سنة[١].

وهناك كتاب باللغة الفارسية بعنوان "درة الأخبار" في تاريخ الحكماء والفلاسفة، وهو أصلا عبارة عن ترجمة "تتمة صنوان الحكمة" الذي كتبه علي

(١) تحقيق ما للهند ٩.

بن زيد البيهقي المتوفى عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م. وجاء في هذا الكتاب "أنه (البيروني) قضى في الهند أربعين عاما". إذا كانت هذه المدة صحيحة فكأنه دخل الهند لأول مرة عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م، حينما لم يكن للغزنويين أي تواجد على أرض الهند، إلا أننا عند ما نجمع بين تواريخ حياة البيروني يتبين لنا أن وصوله الهند في هذه الفترة غير صحيح. وبالرغم من أن دخوله وجولاته في الهند لم تتجاوز بلاد السند والبنجاب[١] إلا أن جغرافية الهند التي جمعها في كتابه "كتاب تحقيق ما للهند" شملت جميع أنحائها، كما أنه أدرج في كتابه الثاني "القانون المسعودي في الحياة والنجوم " الذي ألفه بعد هذا الكتاب بعدة سنوات، طول البلد وعرضه لجميع مدن الهند الكبيرة.

وعلى كل حال، فإنه دخل الهند عند ما كانت الهند تئن تحت حملات متواصلة قام بها السلطان محمود الغزنوي. غير أنه في نفس الوقت كان هناك سلطان آخر وهو سلطان العلم والثقافة منصرفا وحده إلى الانتصارات العلمية في الهند بكل هدوء وطمأنينة، وكان يحترق في قلبه على هذه الحروب والمعارك، والاضطرابات السياسية[٢].

إنه منح المسلمين بكتابه "تحقيق ما للهند" مفخرة كما يقول الدكتور سخاو "بأن فردا منهم كتب كتابا وحول به ما كان كتبه السفراء اليونان والرحالون الصينيون عن الهند إلى تقويم قديم، هذا من جهة. و من جهة أخرى، أحسن إلى الهند بهذا الكتاب إذ حافظ به على علومها ومعتقداتها وحضارتها القديمة وخلدها للأبد.

(١) كتاب الهند ص١١.

(٢) تحقيق ما للهند مقدمة.

يجدر بالذكر ما قاله البيروني عن غطرسة الهند العلمية في ذلك الوقت، يقول البيروني:

"ذلك أنهم يعتقدون في الأرض أنها أرضهم، وفي الناس أنهم جنسهم، وفي الملوك أنهم رؤساؤهم، وفي الدين أنه نحلتهم، وفي العلم أنه ما معهم، فيترفعون ويتبظرمون، ويعجبون بأنفسهم فيجهلون، وفي طباعهم الضن بما يعرفونه، والإفراط في الصيانه له عن غير أهله منهم فكيف عن غيرهم، على أنهم لا يظنون أن في الأرض من غير بلدانهم وفي الناس غير سكانها، وأن للخلق غيرهم علما حتى أنهم إن حدثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجهلوا المخبر ولم يصدقوه، للآفة المذكورة، ولو أنهم سافروا أو خالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم، على أن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة، فهذا براهمر أحد فضلائهم حين يأمر بتعظيم البراهمة يقول: "إن اليونانيين وهم أنجاس، لما تخرجوا في العلوم وأنافوا فيها على غيرهم وجب تعظيمهم فما عسى نقوله في البرهمن إذا حاز إلى طهارته شرف العلم.....

يضيف البروني:

"إني كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم وقصوري عما هم فيه من مواضعاتهم. فلما اعتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل وأشير إلى شيء من البراهين وألوح لهم الطرق الحقيقية في الحسابات فانثالوا علي متعجبين، وعلى الاستفادة متهافتين يسألون عمن شاهدته من الهند حتى أخذت عنه؟ وأنا أريهم مقدراهم وأترفع عن جنبتهم مستنكفا، فكادوا ينسبونني إلى السحر، ولم يصفونني عند أكابرهم بلغتهم إلا بالبحر"[١].

(١) تحقيق ما للهند ٢٠ ـ ٢١.

من أكبر منجزات البيروني أنه عمل سفيرا علميا بين الهندوس والمسلمين. فقد أطلع العرب والإيرانيين على علوم الهندوس وأطلع الهندوس على تحقيقات العرب والإيرانيين. ونقل الكتب السنسكريتية إلى اللغة العربية لأهلها، والكتب العربية إلى السنسكريتية لأهلها، وبهذا أدىّ الدين الذي كان للهند على اللغة العربية وعلومها وثقافتها منذ أمد بعيد.

ألف البيروني كتبا عن الهند من ثلاث نواح:

(١) نقل الكتب العربية إلى السنسكريتية،

(٢) نقل الكتب السنسكريتية إلى العربية

(٣) الدراسة والتحقيق في المسائل والعلوم الهندية.

فإن الكتب التي كتبها البيروني للهندوس هي كما يلي:

١) إجابات على أسئلة منجمي الهند

٢) إجابات على عشرة أسئلة لحكماء كشمير الهندوس وإزالة شبهاتهم.

٣) رسالة في الاصطرلاب

٤) ترجمة كتاب المجسطي للبطليموس

٥) مقالات في إقليدس

٦) كتاب في الفلك

وفيما يلي كتب ألفها لأهل اللغة العربية

١) كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، وهو خلاصة معتقدات الهندوس وعلومهم وتحقيقاتهم.

٢) ترجمة القواعد الخمسة لبراهمغوبت إلى اللغة العربية (السندهند).

٣) ترجمة قواعد براهم لبراهمغوبت

٤) ترجمة التحقيقات الهندية في الكسوف والخسوف

٥) كتاب في الأرقام والحساب الهندية

٦) كيفية رسوم الهند في تعلم الحساب

٧) ترجمة الأربعة المتناسبة الهندية

٨) ترجمة سانكيه (الفلسفة)

٩) ترجمة بتنجل

١٠) ترجمة كتاب "لغو جاتكام" لصاحبه "وراه مهره" في المواليد

١١) رسالة في عودة فاسوديف إلى العالم

والكتب من النوع الثالث هي:

١) تصحيح ما وقع من أخطاء في ترجمة الكتب السنسكريتية أمثال السندهند وأرجبهذ، و كهند إلى اللغة العربية في علم الفلك الهندي.

٢) جوامع الموجود بخواطر الهنود وهو كتاب في ٥٠٠ صفحة حول السندهند بصفة خاصة.

٣) رسالة في أن طريقة كتابة الأرقام في اللغة العربية أحسن وأصح منها في الهندية.

٤) في الإرشاد إلى تصحيح المبادئ على النمودارات، وهو كتاب يتضمن تصحيحات بعض مبادئ التنجيم على الأصول الهندية". قد ذكر البيروني في المقال الخامس من القانون المسعودي خطوط طول البلد وعرض البلد لمدن

الهند التالية.[1] وهي لوهارو(لاهور) وأوستان (أوستهان) وكانت عاصمة كاشمير، والنيبال(وقال عنها بأنها مرصاد بين الهند والتبت) ويهند (وكانت مدينة هندية خاصة في وادي السند) وسيالكوت ومولتان وتيز (ميناء بلوجستان) وسومنات ونهلواله، وكهنبايت، ووهار،(مالوه) وأوزين(أجين) والبروص وفي وسط الهند ككالنجار وماتهوره، وقنوج وغيرها من المدن.

وهناك إنجاز كبير آخر أحوزه البيروني في الهند، وهو قياس دوران الأرض. كان مأمون الرشيد من العرب الذي أمر بقياس دوران الأرض في أوائل القرن الثالث للهجرة، وكان قد مضى عليه قرنان.

كان البيروني مولعا وحريصا على إجراء هذا البحث، ولكن لم يحصل له ميدان من هذا النوع في خوارزم أو أفغانستان، فصادفه ميدان من هذا النوع في الهند، كان على جانبه جبل من جهة أيضا، فقام بإجراء قياس دوران الأرض مؤسسا على قاعدته الهندسية في نفس الميدان..[2].

إن الدين الذي كان على المسلمين للغة السنسكريتية والثقافة الهندية في مجال علم الفلك والنجوم قام بأدائه المسلمون حق أداء على عهد الإمبراطور أكبر، والملك محمد شاه، حيث أمر الإمبراطور أكبر بنقل "زيج ألغ بيكي" الذي كان عبارة عن مجموعة مشاهدات وتجارب جديدة أجريت في المرصد التيموري الواقع في مراغة، وعن بحوث علم الفلك الإسلامي إلى اللغة السنسكريتية،[3]. وعندما قام الملك راجه سنغ على عهد الملك محمد شاه

(١) القانو ن المسعودي في الهيئة والنجوم.

(٢) كتاب القانون المسعودي في الهيئة والنجوم، استفاد المؤلف من مخطوطته وقدد طبع فيما بعد من حيدرآباد في الهند.

(٣) آئين أكبري.

بإقامة المراصد في مدينة دلهي وبانارس وجاج فور، أمر بترجمة كتب علم الفلك والنجوم العربية إلى اللغة السنسكريتية[1].

الألعاب الجادة

إن المصطلحات العلمية والفنية الجادة الجافة ربما تكون قد أدخلت عليكم شيئا من السآمة والملل، ولذا يجب أن أنهي كلامي هذا بذكر الألعاب ليكون ذلك تسلية لبعض الوقت لكل من القائل والسامع.

من ألعاب العالم لعبتان مشهورتان، وهما الشطرنج والنرد (الطاولة) وكلتاهما من نتاج العقل الهندي. وأحسن ما كتبه العرب في هذا الموضوع بان اليعقوبي، فقد بين اليعقوبي[2] أنهما ليستا مجرد لعبتين فحسب، بل إنهما مؤسستان على مسائل دقيقة من مسائل علم الفلك والنجوم، ثم قام اليعقوبي بشرح هذه المسائل، حيث أن رقعة هاتين اللعبتين هو أصلا عبارة عن صروف الدهر. إن مربعات رقعة النرد(الطاولة) عبارة عن البروج السماوية وهي ٣٦٠ يوما، و ٢٤ ساعة لكل يوم، و ١٢ ساعة للنهار، و ١٣ ساعة لليل، كما أن لعبة الشطرنج عبارة عن ٦٤ مربعا ثم ٣٢ مربعا ثم ١٦ مربعا ثم ٨ مربعا ثم ٤ مربعات.

إلا أن الأمر ـ علاوة على مسائل الرياضيات والحساب ـ الذي ما لقي من الاهتمام والتأمل إلا قليلا هو أن هاتين اللعبتين تعبران عن مذهبين فلسفيين هنديين أو مدرستين فكريتين هنديتين.

(١) سبحة المرجان في آثار هندوستان

(٢) اليعقوبي.

إن لعبة النرد(الطاولة) يثبت أن الإنسان مجبر محض، وأن الكواكب وحركاتها هي التي تتحكم فيه كما تشاء، حيث لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة بإرادته أونيته. فإن هناك قوة أخرى تجبره على فعل ما يفعل. وعلى عكس ذلك تعبر لعبة الشطرنج عن المذهب القائل بأن كل ما يوجد في العالم هو نتيجة لما يقوم به الإنسان من محاولات، وأن انتصاراته وهزائمه ونجاحه وفشله كل ذلك يرجع إلى عقله وفكره، وجهده وعمله.

وخلاصة القول أن هاتين اللعبتين حلان عمليان لمسائل لا تنحل في العالم. ذكر اليعقوبي أن لعبة النرد (الطاولة) قام بإختراعها أحد الحكماء وأهداها للملك وعلمه بها مسائل الجبر. ثم قام حكيم آخر بإيجاد لعبة الشطرنج وقدمها للملك وأثبت فيها الاختيار. وقد أثبتت كلتا اللعبتين أن الإنسان كما لم يقدر على حل مسائل الجبر والاختيار بدلائله المنطقية والفلسفية لا يقدر كذلك على اكتشاف لعبة القدر بدلائل لعبته العملية.

إن الجائزة التي طلبها مخترع الشطرنج من اللملك باراني (توجد روايتان) هي أيضا لعبة حسابية محيرة، فقد طلب من الملك كما ذكره اليعقوبي:

"فقال: أسال أن أعطى قمحا بعدد بيوت الشطرنج، أعطي في البيت الأول حبة، وفي الثاني اثنتين، ثم يضعف ذلك لي في البيت الثاني على الثالث، ثم على هذا الحساب إلى آخرها.

قالت: وما مقدار هذا؟ ثم أمرت بالحنطة أن تحضر، فلم يقم لذلك شيء حتى أنفذت قموح البلد، ثم قوم القمح بالمال حتى فنى المال، فلما كثر ذلك قال: لا حاجة لي به، إن قليل الدنيا يكفيني" [1].

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٠ ـ ٩٣ ومروج الذهب ١/ ٨١.

وذكر اليعقوبي ما حصل بالتفصيل غير أن إثبات ذلك يحول رقعة اللعبة إلى درس في الحساب والرياضيات.

كانت هاتان اللعبتان قد وصلتا العرب من إيران في القرن الأول للهجرة نفسه. وكانت لعبة النرد من بينهما قدوصلت قبل الثانية بكثير، حيث يوجد ذكرها في الأحاديث النبوية، بينما وصلت لعبة الشطرنج فيما بعد في القرن الثاني للهجرة، وربما في العصر العباسي لأننا لا نجد رأيا فيها للعلماء المجتهدين إلا في القرن الثاني للهجرة.

يدعي الإيرانيون بالنسبة لكلمة الشطرنج أنها ملكهم، وأصلها عبارة عن "هشت رنج" [1] حيث يوجد فيها ٨ مربعات، إلا أن هذه الدعوى باطلة لأن كلمة الشطرنج هندية في أصلها وهي "تشترنج"، ومعناها ذات أربعة أعضاء[2]، ثم وإن كان الإيرانيون قد احتلوا جميع قطعها بنصب شاه(الملك) وفرزين (الوزير) وبيادة (الجنود المشاة) إلا أن هناك أمرين يشكلان شهادة لا تنسخ ولا تنقض على أنها من ممتلكات الهند، وهما الفيل والرخ. أما الفيل فهو لا شك من علامات الهند، ولكن مركب الرخ (وهو "رته ـ" في الهندية) هو الآخر لا يمكن أن يوجد خارج الهند. وقد ذهب المحققون إلى أن ذكر الشطرنج موجود في راماين وغيره من الكتب[3].

وبالإضافة إلى الإيرانيين ادعى اليونان والروم والمصريون والبابليون وغيرهم من الأقوام والشعوب القديمة ملكية الشطرنج إلا أن محكمة التحقيق

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ٩٠.

(٢) سواء السبيل في معرفة المواليد والدخيل.

(٣) الموسوعة البريطانية.

والدراسة رفضت جميع الدعاوى غير دعوى الهند. وعلاوة على ذلك، يجب أن تتذكروا أن اسمها سواء كان "هشت رنج" في إيران أو "تشترنج" في الهند إلا أن ما سماها به العرب بعد القلب والتصحيف هو الاسم لهذه اللعبة الآن في إيران وفي الهند أيضا.

الباب الرابع

الصلات الدينية

أما المعلومات المتضمنة في هذا الفصل فقد اعتمدنا في استخراجها - بالإضافة إلى ما سبق ذكره من الكتب - على كتب أربعة جديدة وهي:

١) "موسوعة الديانات الهندية" التي كان أمر بإعدادها يحيى بن خالد البرمكي[١] في القرن الثاني للهجرة، وأورد خلاصتها ابن النديم في كتابه الفهرست[٢]. وهذه الخلاصة هي التي تتوفر الآن في مكتبات العالم.

٢) كتاب "البدء والتاريخ" لمطهر بن طاهر المقدسي[٣] (٣٣٥هـ/٩٤٦م)،

---

(١) هو يحيى بن خالد البرمكي أبو الفضل. الوزير السري، سيد بني برمك. تولى الوزارة لأبي العباس السفاح بعد مقتل أبي سلمة الخلال. نال عند المهدي مكانة عظيمة وعهد إليه بتأديب ابنه الرشيد وأرضعته زوجته مع ابنها الفضل بن يحيى، فكان الرشيد يدعوه (يا أبي). لما تولى الرشيد الخلافة قلده أمر الرعية ودفع إليه خاتمه، فنهض بأعباء الدولة على أحسن ما يكون. كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال. في نكبة البرامكة قبض عليه الرشيد وسجنه في الرقة إلى أن مات.

المراجع

الأعلام ٩/ ١٧٥. وفيات الأعيان ٦/ ٢١٩ . البداية والنهاية١/ ٢٠٤ . الكتاب والوزراء ص/ ١٧٧. مروج الذهب ٢/ ٢٢٨. تاريخ بغداد ١٤/ ١٢٨ . ابن الأثير٦/ ١٧٥-١٨٠. معجم الأدباء ٧/ .

(٢) الفهرست ص ٤٨٤.

(٣) هو مطهر بن طاهر المقدسي. عاش في مدينة (بست) بسجستان. وضع سنة ٣٥٥هـ كتابا سماه (البدء والتاريخ) وقدمه إلى أحد وزراء الدولة السامانية. ذكر فيه ابتداء الخلق وقصص الأنبياء وأخبار الأمم وتواريخ الملوك والخلفاء إلى زمانه. وقد تضمن كتابه فصلا في صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الخلق، ويلي هذا الفصل وصف للمساجد المشهورة ووصف للطريق من العراق إلى مكة ووصف للثغور الإسلامية والرباطات.=

وكان عالما كبيرا وفيلسوفا بارعا، ومتكلما قادرا ومؤرخا دقيقا، من سكان بيت المقدس، طبع هذا الكتاب عام ١٨٩٩م من باريس في ٦ مجلدات، يشتمل أحد أبوابه على ديانات الهند أيضا.

٣) كتاب "الديانات" لأبي العباس الإيرانشهري والذي - وإن لم يكن أصله موجودا في هذا الوقت - توجد مقتبسات منه في كتاب "تحقيق ما للهند" للبيروني. وكان يحوي هذا الكتاب أحوال البوذيين بصفة خاصة.

٤) أهم الكتب بعد ما ذكر كتاب "الملل والنحل" لعبد الكريم الشهرستاني[2] (٤٦٩ـ٥٤٩هـ/ ١٠٧٦ـ١١٥٤م) وقد طبع هذا الكتاب مرات عديدة من أوربا ومصر وبومباي الهند.

= وفي كتابه رد على ما كان يتداوله الناس من خرافات وأساطير وحكايات القصاص التي كانوا يستحوذون ويتكسبون فيها على الناس غرائب العجائب مما لا يقبله عقل، وقد أراد من تلك حماية الإسلام ممن يشحنون صدور العامة بترهات الأباطيل ويحسبه من المشكلات التي لا يؤمنون بشيء.

المراجع

تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ٢٢٥. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٣٣٠.

(٢) هو محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني أبو الفتح من فلاسفة الكلام على مذهب الأشعري ومن أهل العلم بعقائد الفرق وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة يلقب بالأفضل. ولد في شهرستان بين نيسابور وخوارزم وانتقل إلى بغداد سنة ٥١٠هـ فأقام بها ثلاث سنين ثم عاد إلى بلده وفيها توفي عن ثمانين عاما. صنف كتبا كثيرة منها: (نهاية الإقدام في علم الكلام) وكتاب (الملل والنحل) وكتاب (طبقات الحكماء) و (الإرشاد إلى عقائد العباد) و (تلخيص الأقسام لمذاهب الأنام) و (المبدأ والمعاد) و (تفسير سورة يوسف) فسرها بأسلوب فلسفي.

المراجع

وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٣ ـ شذرات الذهب ٤/ ١٤٩ ـ الوافي بالوفيات ٣/ ٢٧٨ ـ كشف =

بالإضافة إلى المقالات والبحوث المتفرقة من كتاب "الفرق بين الفرق" لعبد القاهر البغدادي[1] (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، ومن كتاب "المعتزلة" لمرتضى الزيدي الذي قام بطبعه ونشره الأستاذ آرنولد من دائرة المعارف في حيدر آباد.

الفرق بين الفاتحين العرب والفاتحين الأتراك والأفغان والمغول

وقبل أن ندخل في صميم الموضوع يجب أن نشير إلى نقطة هامة جدا، وهي أن الفاتحين الأتراك والأفغان والمغول الذين دخلوا الهند بما أنهم كانوا ينتمون إلى الدين الإسلامي فإن الإسلام حُمّل مسؤولية كل ما قاموا به من أعمال، وما صدر منهم من تصرفات. والواقع أنه يجب علينا جميعا أن نعرف أن الفاتحين الأتراك الذين دخلوا الهند لم يكونوا في جملتهم يمثلون الإسلام إلا بعض الضباط وأصحاب المناصب، كما أن نظام حكومتهم لم يكن يمت بصلة إلى النظام الإسلامي والمبادئ الإسلامية للحكم، وكان معظم الضباط

= الظنون ص/ ١٠٩٧ تاريخ الأدب في إيران ص/ ٤٥٩ ـ زيدان ٣/ ١٠٨ ـ معجم البلدان (مادة: شهرستان) ـ الأعلام ٧/ ٨٣.

(١) هو عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الإسفراييني. أبو منصور. أحد الأئمة في الأصول والفروع في عصره، كان ماهرا في فنون كثيرة من العلوم، منها الحساب والفرائض، وكان ثريا، أنفق ماله كله على أهل العلم. ولد ونشأ في بغداد ورحل إلى خراسان فاستقر في نيسابور وفارقها على إثر فتنة التركمان (السلجوقيين)، ومات في إسفرايين، من أعمال نيسابور. صنف ودرس في سبعة عشر علما، ومن تصانيفه: الفاخر في الأوائل والأواخر. أصول الدين، تفسير أسماء الله الحسنى، فضائح القدرية، فضائح المعتزلة، الإيمان وأصوله، الفرق بين الفرق، نفي خلق القرآن، وغير ذلك.

المراجع

وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٣. البداية والنهاية ١٢/ ٤٤. طبقات السبكي ٣/ ٢٨٣. الأعلام ٤/ ١٧٣.
دائرة المعارف الإسلامية: (البغدادي عبد القاهر).

الأتراك من العبيد الذين دخلوا الإسلام حديثا، ولم تكن لهم كذلك معرفة بقوانين الإسلام للحرب و السلم والمصالحة.

إن المنطقة التي قامت فيها الحكومة الغزنوية كانت أقصى حدود مناطق الحكم الإسلامي، ولم يكن الإسلام قد أرسى تعاليمه فيها بشكل كامل، وكان الجنود المجندون في جيش السلطان محمود الغزنوي مؤلفين من قبائل مختلفة غزنية وخلجية وتركية وأفغانية، كما كان الهندوس أيضا مجندين في هذا الجيش.[١] .... وأما القبائل التركية فلم يكن معظمهم مسلمين، بل كانوا يباعون ويشترون كعبيد في آلاف مؤلفة، فكان السلاطين والأمراء يشترونهم ويدخلونهم في الإسلام ويجندونهم في جيش المسلمين، أو كانوا هم يدخلون البلدان الإسلامية بأنفسهم متسللين من وسط آسيا طمعا ورغبة في النهب والسلب، ويتجندون في جيوش السلاطين والملوك المختلفين مدعين ومتظاهرين بإسلامهم، ويحتلون فيما بعد مناصب عالية في الجيش و البلاط الملكي. فلم يكن ألبتكين و سبكتكين وهما من مؤسسي الحكومة الغزنوية إلا من هذا النوع من العبيد، و كان أيلتمش و غيره من خلفاء السلطان الغوري عبيدا من نفس هذه الطبقة، والأتراك السلاجقة الذين أسسوا السلطنة السلجوقية العظيمة فيما بعد بعدة سنوات، لم يدخلوا في الإسلام إلا في هذا العصر نفسه بعد ما دخلوا البلدان الإسلامية، ونفس هذا ينطبق تماما على جيش السلطان محمود الغزنوي، حيث كان انضم إلى جيشه متطوعون أتراك[٢]...... من تركستان وبلاد ما وراء النهر و كان معظمهم حديثي العهد بالإسلام.[٣]

---

(١) التاريخ الكامل لابن الأثير ٩/ ١٣٥، طبعة بريل ليدن عام ١٨٦٢م.
(٢) تاريخ فرشته ١/ ٢٩، ٣٢.
(٣) تاريخ فرشته ١/ ٢٤.

وأما المغول فلم يكونوا قد دخلوا في الإسلام حتى الآن، وكانوا يعتبرون من الكفار حتى القرن السابع للهجرة، حتى في عصر السلطان علاء الدين الخلجي (٧١٦هـ/ ١٣١٦م) لم يكن المغول يجندون في الجيش إلا بعد إدخالهم في الإسلام، وكانوا يشتغلون فيه كالعمال والخدم. وقد قتل ما يتراوح بين ١٤ و ١٥ ألفا من جنود المغول الذين كانوا دخلوا الإسلام حديثا دفعة واحدة، بأمر من السلطان علاء الدين الخلجي[١].

وبالرغم من أن الإسلام كان قد دخل في كبرى مدن أفغانستان إلا أن الأفغان أنفسهم لم يكونوا قد اعتنقوه حتى الآن، وما كانوا يعتبرون إلا من الكفار أنفسهم[٢]، و إن كان ملك كابل بالتحديد أظهر إسلامه في بداية القرن الثالث نفسه، يعني قبل الغزنويين بقرن كامل[٣]، لكن معظم القبائل الأفغانية ما بدءوا يدخلون في الإسلام إلا في عصر السلطان محمود الغزنوي....[٤].

وعلاوة على ذلك، فإن القبائل الغورية لم تكن دخلت في الإسلام حتى منتصف القرن الرابع يعني حتى بعد ميلاد الغزنويين[٥]، ثم لم تنشأ هناك قبل السلطان محمود الغزنوي مدارس إسلامية في هذه النواحي من الدولة الإسلامية، كما أنه لم يكن هناك رواج لتعاليم الإسلام ولا انتشار لعلماء المسلمين.

---

(١) تاريخ فرشته ١/ ١٢٠.
(٢) الكامل لابن الأثير ٩/ ٣١٨.
(٣) فتوح البلدان للبلاذري ١/ ٦٣١.
(٤) الكامل لابن الثير ٩/ ٢١٨٩.
(٥) كتاب صورة الأرض ص ٣٧١، الكامل لابن الأثير٩/ ١٥٦ و تاريخ البيهقي ص١٢٧

ونظرا لهذه وغيرها من الأسباب لا يصح أن تسمى عادات هذه الشعوب الاجتماعية ومبادئها الحربية وطرق حياتها بالإسلام.

وعلى عكس ذلك، كان الفاتحون العرب الذين كانوا قد وصلوا بعد ما تخطوا حدود بلاد الشام، إلى إسبانيا عن طريق مصر وأفريقيا الشمالية من جهة في غضون قرن واحد، ومن جهة أخرى كانوا قد وصلوا إلى خراسان عن طريق العراق، كما وصلوا بعد ما طووا بلاد إيران وتركستان إلى كاشغر في جانب وإلى السند في جانب آخر، كانوا من الذين رسخت فيهم التعاليم الإسلامية حية وكانت قوانين الحرب الإسلامية نافذة، وكان بينهم في بعض الأمكنة رجال تشرفوا بصحبة النبي الكريم ﷺ. وأما الذين لقوا الصحابة ﵃ واستفادوا منهم فكانوا كثيرين، ولذلك كانت عاداتهم وسلوكهم و مبادئ حكمهم ونظام حكومتهم مختلفة تماما عما كان عليه الشعوب الداخلة من جبال خيبر.

فتح قتيبة سمرقند في عام (٩٣هـ/ ٧١١م) وكان السكان فيما جاورها من المدن أتباع البوذية حينذاك، و عندما رأى قتيبة من اللازم - وربما لصعوبات اقتصادية - أن يحرق التماثيل التي كانت عندهم ليستخرج ما فيها من ذهب، لم يقم بكسرها عنوة، وإحراقها رغم أنفهم، بل كان قد أدرج بكل صراحة ضمن بنود اتفاقية الصلح أن هذه التماثيل تكون تحت تصرف المسلمين، فرضي بذلك الطرف الثاني ووافقوا عليه، و لكن حينما حان موعد إحراق التماثيل قام ملك الأتراك وقال:

«إن فيها أصناما من حرقها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدي، فجاء فجثا بين يديه وقال: أيها الأمير إن شكرك علي واجب، لا تعرض لهذه الأصنام، فدعا قتيبة بالنار وأخذ شعلة بيده وخرج فكبر ثم أشعلها وأشعل الناس

فاضطرمت، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال»[١].

«وكانت الأعاجم تقول: إن فيها أصناما من استخف بها هلك، فلما حرقها قتيبة بيده أسلم منهم خلق»[٢].

إن العرب لم يمسوا بأذى أي معبد من معابد الشعوب التي أبرموا معها اتفاقية الصلح أو عقدوا أية معاهدة معها في عصر الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام ﵃ أجمعين، إلا في بعض الوقائع الاستثنائية أثناء الحرب، فكانت نيران المجوس مشتعلة كما كانت، وكانت النواقيس مدقوقة رنانة حسب السابق في الكنائس المليئة بالتماثيل والأصنام في مصر والعراق وبلاد الشام في الوقت الذي لم يكن ولن يكون فيه هؤلاء الفاتحون الأتراك المسلمون الجدد أشد منهم تصلبا في الدين والعقيدة وأكثر منهم حماية واتباعا للشريعة الإسلامية.

إذا كان العرب يأخذون الجزية من غير المسلمين فلم يكونوا يأخذون منهم بالإضافة إلى ذلك غير خراج المحاصيل، بينما كان الأتراك والأفغان والمغول الذين كانوا يأخذون الجزية من رعاياهم من غير المسلمين بدافع من دينهم، كانوا يأخذون معها ضرائب أخرى عديدة من رعاياهم من المسلمين وغيرهم، لكن نظام الحكم الذي شرعه الإسلام والذي حافظ عليه العرب واستمروا عليه لمدة طويلة، لم يفرض على رعاياه إلا نوعين من الضرائب، الزكاة والعشر على المسلمين، والجزية والخراج على غيرهم من الرعايا.

والأصل في ذلك أن الإسلام صنف جميع شعوب العالم في تصنيفات أربعة:

(١) وردت هذه الوقائع مفصلة في تاريخ الطبري ٤/ ١٦ و الكامل لابن الأثير ٤/ ٤٠٤.

(٢) فتوح البلدان ١/ ٦٦١.

١) المسلمون

٢) أهل الكتاب (وهم الذين يتبعون أحد الكتب السماوية التي ذكرها القرآن الكريم)

٣) شبه أهل الكتاب (وهم الذين يدعون اتباعهم لأحد الكتب السماوية و لكن لم يذكرهم القرآن الكريم فكونهم من أهل الكتاب ليس بدرجة اليقين بل بدرجة المظنون)

٤) الكفار(وهم الذين ليسوا متبعين لأي كتاب من الكتب السماوية)

قرر الإسلام للمسلمين جميعا حقوقا مساوية من غير تمييز بينهم على أساس الوطنية والقومية. وأما أهل الكتاب فهم أيضا متساوون مع المسلمين في جميع الحقوق بعد أداء الجزية، فيحل للمسلمين أكل ذبائحهم، والتزوج بنسائهم وتقع على عاتق الحكومة الإسلامية مسؤولية الحفاظ على معابدهم وأموالهم وأرواحهم. وكذلك شبه أهل الكتاب إلا في أكل ذبائحهم والتزوج بنسائهم، فهم متساوون مع أهل الكتاب بل المسلمين أنفسهم في الحقوق المدنية. وعلى هذا الأساس فإذا تقوم للمسلمين حكومة إسلامية في أي شعب من الشعوب غير المسلمة يجب على المسلمين أول ما يجب، أن ينظروا في أي تصنيف من التصانيف الأربعة المذكورة أعلاه يمكن أن يكون فيه هذا الشعب المعين.

ولكن الفاتحين القادمين من جبال خيبر مع الأسف الشديد لم يستطيعوا أن يقرروا ذلك حتى اللحظات الأخيرة، فبينما كانوا يصرون على أخذ الجزية من الهندوس والتي لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب أو شبههم من جهة، فمن جهة أخرى ما كانوا يقطعون الوعد للحفاظ على معابدهم، الأمر الذي يتوجب على

المسلمين بعد أخذ الجزية. و فوق ذلك كله لم يستطيعوا حتى عصر السلطان علاء الدين الخلجي (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) أن يقرروا أي تصنيف من التصانيف الأربعة يوضع فيه الهندوس؟."[1] ......

وكل هذا الاضطراب والفوضى في النظام كان نتيجة مباشرة لنفس هذه الازدواجية. ولكن العرب لم يتأخروا ولا لحظة واحدة عندما دخلوا السند في تقرير تصنيف الهندوس في ظل الحكومة الإسلامية.

الهندوس في رأي الفاتحين العرب

عند ما وصل القائد العظيم محمد بن قاسم وهو يفتح السند إلى مدينة الرور الشهيرة قاوم أهلها هؤلاء الغزاة مقاومة شديدة لعدة أشهر، ثم نزلوا عند الصلح، واشترطوا فيه شرطين:

الأول: "لا يقتل أحد من أهل المدينة.

الثاني: أن لا يتعرض لمعابدهم بأي أذى"

وعند ما قبل محمد بن القاسم هذين الشرطين قال:

"ما البد إلا ككنائس النصارى واليهود و بيوت نيران المجوس"[2].

وقد وردت هذه القصة في ترجمة فارسية لأقدم تاريخ عربي للسند على نحو ما يلي:

" ثم أعطى محمد بن القاسم الأمان لعوام الناس في مدنية برهمناباد في ممارسة طقوسهم الدينية، كما يؤديها اليهود والنصارى والمجوس في العراق

---

(١) تاريخ فيروز شاهي لضيا باراني ٢٩٠-٢٩١ و تاريخ فرشته ص١١٠.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ١/ ١٩٠.

والشام، وأعطوهم الإجازة في ذلك وأطلقوا على رأس زعمائهم اسم رانه".(١)

هذا تصريح مهم صدر من لسان فاتح عربي يقرر منح الهندوس حق التمتع في الحكومة الإسلامية بنفس الدرجة والحيثية التي يتمتع بها في الأغلب أهل الكتاب أو شبههم في القانون الإسلامي، وأعطى لمعابدهم نفس الدرجة التي أعطاها الإسلام لمعابد أهل الكتاب. ويتبين من تاريخ الفتوحات في السند أن الفاتحين العرب بقوا على عهدهم وحافظوا على شروطهم بشكل كامل، فقد أشار أتباع البوذية على الملك الهندوسي بجهرا بن جندر في مناسبة ما:

"نحن نعلم بأوامر دار الخلافة، والأمير الحجاج القائل: "من طلب الأمان أعطوه الأمان، وإذا وافقت ورأيت من المصلحة أن تكون واسطة خير بينكم، وتأخذ منهم المواثيق بالأمان، ونحن نعلم أن العرب أهل الوفاء، ويفعلون ما يقولون بلسانهم"(٢).

كانت الديبل أول محطة من السند غزاها العرب، وكانت أكبر العمارات وأرفعها فيها عبارة عن معبد البوذيين. أطلق محمد بين القاسم منجنيقه على منارة المعبد التي كانت جد عالية وشاهقة تترائى من بعيد، لإجبار المحصنين من أهل المدينة على فتح البوابة، ولكن عندما فتحت له بوابة المدينة لم يقم بهدم معبد الأصنام وتدميره، بل بقي هذا المعبد حتى بعد فناء البوذيين، إلى القرن الثالث للهجرة، واستخدم جزء منه (٣) كسجن في عصر الخليفة العباسي المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٢٤١م). وأنشأ محمد بن القاسم نفسه

(١) فتح السند(جحنامة)١٩٤.
(٢) فتح السند (جحنامه) ١٢٠.
(٣) البلاذري ١/ ٦٨٨.

مسجدا للمسلمين في المدينة كما أنه عندما فتح مدينة نيرون أقام مسجدا له قبالة المعبد الهندوسي"(١).

الصنم في الملتان

وكذلك ظل معبد الأوثان العظيم في الملتان سالما ومحميا حتى بعد فتح المدينة، بل استمر على حاله خلال القرون الثلاثة التي حكمها العرب، وظل مركز ومحط أنظار السياح العرب واهتمامهم. وآخر من ذكره البشاري، وقد رآه حوالي عام ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥م، وقد استغل العرب وجود هذا المعبد من ناحيتين: ناحية سياسية وناحية مالية، أما الناحية السياسية فهي أن أي ملك كلما أراد أن يغزو الملتان، وأعد العدة لها، كان يخوفه الأمير ويهدده بتدمير المعبد إذا توجه نحو الملتان، فكان الغزاة يرتدعون عن إرادتهم، وأما الناحية الاقتصادية فهي أن كثيرا من الزوار كانوا يحجون إليه من الهند بجميع أنحائها، ويقدمون له النذور والقرابين، وكان الأمير العربي يخزن هذه الأموال في مخازن المعبد، ومنها كان يصرف نفقات المعبد ورواتب القائمين بأعماله(٢).

وقد ذكر الرحالون العرب أوضاع هذا المعبد وتفاصيله. وكان هذا المعبد يزخر بالذهب والفضة، وكانوا يرسلون له العود بقيمة ما يقارب ٢٠٠ دينار لإحراقه فيه، إلا أن سدنة المعبد كانوا يبيعونها للتجار العرب، وكان الصنم هو الآخر ثمينا جدا، كما يقول البشاري المقدسي:

(١) فتح السند ص١١٩، إلا أن البيان الذي أورده مترجم الكتاب (جحنامه) مختلف عما استشهد به المؤلف رحمه الله، إذ ذكر المترجم ما يدل على أنه هدم معبد الأوثان في نيرون.
(٢) معجم البلدان لياقوت: كلمة الملتان.

"وهو تحت القبة على صورة رجل متربع، على كرسي من جص وآجر، وقد ألبسوه جلدا يشبه السنجاب الأحمر لا يتبين منه غير عينيه، وهما جوهرتان وعلى رأسه إكليل ذهب"(١).

وخلاصة القول إن هذا المعبد كان سالما ومحفوظا إلى ما يقارب عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م في ظل حكومة العرب بل كان يحتفظ ببهائه ورونقه، إلا أن أبا ريحان البيروني عندما زار الملتان بعد عام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وجد في مكان المعبد جامعا، وأرجع سبب هذا التغير إلى أنه:

"وكان محمد بن القاسم بن المنبه لما افتتح الملتان نظر إلى سبب عمارتها والأموال المجتمعة فيها فوجد ذلك الصنم إذ كان مقصودا محجوجا من كل صوب، فرأى الصلاح في تركه بعد أن علق لحم بقر في عنقه استخفافا به(٢) وبنى هناك مسجدا جامعا، فلما استولت القرامطة على الملتان كسر "جلم ابن شيبان" المتغلب ذلك الصنم، وقتل سدنته وجعل بيته وهو قصر مبني من الآجر على مكان مرتفع جامعا بدل الجامع الأول، وأغلق ذلك بغضا لما عمل في أيام بني أمية، ولما أزال الأمير المحمود رحمه الله أيديهم عن تلك الممالك أعاد إلى الجامع الأول، وأهمل هذا الثاني، فليس الآن إلا بيدار لصبر الحنا"(٣).

وفي هذا الصدد كتب البلاذري الذي عاش في أواخر القرن الثالث للهجرة ما يدعو إلى الاستغراب، حيث يقول:

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٨٣ـ ٤٨٤.

(٢) كتاب الهند للبيروني ص٨١، ولا توجد هذه القصة في كتب فتوحات السند. ما أدري من أين أخذ ها البيروني.

(٣) تحقيق ما للهند ٨١.

«كان بد الملتان بدا تهدى إليه الأموال، وينذر له النذور، ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم، ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي»..(١).

الحقوق والمكرمات

وبعد ما فتحت السند جاء وفد من طبقة البراهمة إلى محمد بن القاسم وطلب إليه أن يجعلهم أعلى طبقات المجتمع في الهندوس حسب الدستور الهندوسي، فأقرهم على ذلك بعد التحقق من الأمر، وعينهم في جميع المناصب، فتقدم البراهمة بشكر خاص له، وتغنوا بمكارم حاكمهم وهم يطوفون في القرى والأرياف وتحدثوا بما حصل لهم من حقوق(٢).

الجزية

أعلن الأمير العربي أن من أراد أن يسلم فليسلم وينضم إلينا كإخوان، ومن أراد أن يبقى على دينه فليبق على دينه وليؤد الجزية، فكان أن أسلم بعض الناس وبقي بعضهم على دينه، ولقد ورد في فتح السند (ججنامه):

"فمن تشرف بعز الإسلام ترك ليمضي في سبيل حاله وله ماله وعياله وضياعه، وأما الذين لم يؤمنوا بالإسلام دينا فقد فرضت عليهم الجزية، وكانوا ثلاثة أفواج حسب مستوياتهم المالية والاجتماعية، فكان الفرد من الفوج الأول الرفيع المستوى يدفع أربعين درهما(٣)، والفوج الثاني أربعة وعشرين درهما،

(١) البلاذري ١/ ٦٩٠.

(٢) فتح السند (ججنامة) ص ـ١٩٢.

(٣) ملحوظة: يوجد فرق فيما ذكره المؤلف وما جاء في هذه الترجمة كما سيظهر.

والثالث اثني عشر درهما، وقيل لهم اذهبوا الآن، ومن يسلم منكم بعد اليوم فلا جزية عليه ومن أراد البقاء على دين آبائه وأجداده فعليه أن يستمر في دفع الجزية فبقي بعضهم على دينهم وأسلم بعضهم الآخر فلم تؤخذ منهم الجزية ولم تؤخذ منهم ضياعهم وخيلهم وأموالهم»[1].

فمن أسلم منهم سلم من الرق والجزية، وغيرها، ومن بقوا على دينهم صنفوا إلى ثلاث طبقات:

الطبقة العليا وهم الأثرياء، وأخذ منهم ٤٨ درهما.

الطبقة المتوسطة و أخذ منهم ٢٤ درهما

الطبقة السفلى وأخذ منهم ١٢ درهما

فأما الذين أسلموا تم إعفائهم من الجزية و الذين بقوا على دين آبائهم أدوا الجزية التي كانت عليهم، ولم تؤخذ منهم أراضيهم وممتلكاتهم بل بقيت في تصرفهم كما كانت[2].

وإذا حسبنا ذلك طبقا للحساب الذي عندنا الآن نجد أن الذي أخذ من الأثرياء لم يكن ليزيد على عشر روبيات هندية. وما أخذ من الطبقة المتوسطة لم يكن يزيد على خمس روبيات، وما أخذ من الطبقة السفلى وهم الفقراء فلم يكن إلا روبيتين ونصف روبية. وكانت النسوة والأطفال و العجائز ورجال الدين والرهبان والمعوقون قد أعفوا عن ذلك كله حسب القاعدة الإسلامية. وأخذ من المسلمين العشر من المحاصيل الزراعية، والزكاة بنسبة ٢.٥٪ بدلا من الجزية.

(١) فتح السند ١٩٠.

(٢) فتح السند ١٨٢.

وأما غير المسلمين فكانوا يؤدون الخراج المفروض عليهم، ولم تكن هناك أية ضريبة أخرى في حكومة العرب.

المساجد والهندوس

وترك هذا التسامح من قبل العرب أثرا طيبا على نفوس الهندوس، فعندما انتهى الحكم العربي في منطقة ما في القرن الثاني للهجرة واستولى عليها الهندوس، لم يمسوا مساجد المسلمين بأذى، وظل المسلمون يؤدون فيها صلواتهم، ويصلون الجمعة، ويخطبون باسم خليفتهم في خطبة الجمعة.[1]......

وعلاوة على ذلك، فقد ذكر الرحالون العرب مثل الاصطخري وابن حوقل أن المناطق ما بين كنبايه إلى الصيمور، وإن كانت تحت سيطرة ملوك الهندوس المختلفين إلا أن المسلمين ساكنون في كل أنحاء المدينة، ولهم مساجد يؤدون فيها صلواتهم جماعة. وسوف نذكر قصة طريفة لهدم مسجد جامع وإعادة بنائه من جديد في مدينة كنبايه على عهد الملوك الهندوس.

دراسات الديانة الهندوسية

وكان من نتيجة هذا الاختلاط والاحتكاك بين المسلمين والهندوس أن نشأت رغبة عند العرب في دراسة الديانات الهندوسية. فبعث يحيى البرمكي الذي دامت وزارته ما بين ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م و ١٩٠هـ/ ٨٠٥م رجلا إلى الهند ليقوم بدراسة الديانات والمعتقدات الهندية، ويكتب له هذه الدراسات. وكانت بغداد حينذاك معركة جميع الديانات والعقائد في العالم، حيث كان تعقد جلسات الحوارات الدينية في بلاط الخلفاء العباسيين وأمرائهم المتفلسفين،

(١) البلاذري ١/ ٦٩٧.

وكان مسموحا لأهل الديانات والمعتقدات المختلفة أن يدللوا على دياناتهم ومعتقداتهم، ويعترضوا على الإسلام ويجدوا الرد على اعتراضاتهم. وكان المتكلمون المسلمون في الطليعة في هذه المجالس والندوات، وكانت الأسرة البرمكية بصفة خاصة تقوم بالإشراف على هؤلاء والعناية بهم. و ليس من المستبعد أن يكون هذا هو السبب في نشوء الحاجة إلى معرفة الديانات والمعتقدات الدينية الهندية.

إن الشخص الذي بعث إلى الهند لتحقيق هذا الغرض ربما لم يبق لنا أصل بيانه، إلا أن ابن النديم الذي ألف كتابه بعد هذا الحدث بـ٧٠ أو ٨٠ عاما، أحال في كتابه إلى مخطوطة خطها أحد الفلاسفة العرب المشهورين يعقوب بن إسحاق الكندي بيده، وكان مؤرخا عليها عام ٣٤٩هـ-٩٦٠/م، وقد تضمنت خبر إيفاد يحيى البرمكي شخصا إلى الهند لدراسة دياناتها ومعتقداتها، وكان عليه عنوان " ديانات الهند ومعتقداتها" وتحته سيرة مختصرة، مما يدل على أن هذا ربما مختصر بيان نفس ذلك الشخص.

يتضمن هذا الكتاب أولا أوضاع ومواصفات المعبد الهندوسي في مهانكر(المانكير) عاصمة حكومة الملك البلهرا في مملكة الكجرات حيث ذكر أن هذا:

"في هذا البيت من البدد نحو عشرين ألف بد من أنواع الجوهر مثل الذهب والفضة والحديد والنحاس والصفر والعاج وأنواع الحجارة المعجونة مرصع بالجواهر السنية، والملك يركب في كل سنة إلى هذا البيت بل يمشي من داره ويرجع راكبا.... وفيه صنم من ذهب ارتفاعه ١٢ ذراعا على سرير من ذهب، و في وسط قبة من ذهب، مرصع ذلك كله بالجوهر الأبيض الحب و الياقوت

الأحمر و الأصفر و الأزرق و الأخضر و يذبحون لهذا الصنم الذبائح و أكثر ما يقربون نفوسهم في يوم من السنة معروف عندهم"

ثم ذكر معبد مولستان (ملتان) و أحوال صنمه فيقول:

"وبيت بالملتان ويقال إن هذا البيت أحد البيوت السبعة وبه صنم"(١)

ثم ذكر أحوال الأصنام الأخرى، وذكر عددا من الطوائف الدينية الهندية وأحوال أصنامها،

١) سمى الطائفة الأولى بالمهاكاليه، وهؤلاء يعبدون "مهاكال" يقول:

"لهم صنم يقال له مهاكال، وله أربع أيد ولونه أسمانجوني، كثير شعر الرأس سبطه كاشر الأسنان كاشف البطن، على ظهره جلد فيل، يقطر منه الدم، قد عقد بجلد يدي الفيل بين يديه، وبإحدى يديه ثعبان عظيم، فاغر فاه، وبالأخرى عصا وبالثالثة رأس إنسان، واليد الرابعة قد رفعها، وفي اليسرى حيتان كالقرطين، وعلى جسده ثعبانان عظيمان، قد التفا عليه وعلى رأسه إكليل من عظام القحف وعليه من ذلك قلادة"(٢).

٢) وأماالفرقة الثانية فهي الدينكيتية، يقول:

"منهم أهل ملة الدينكيتية وهم عباد الشمس، و قد اتخذوا لها صنما على عجل، و قوائم العجلة أربعة أفراس، و بيد الصنم جوهر على لون النار، و يزعمون أن الشمس ملك الملائكة يستحق العبادة، فهم يسجدون لهذا الصنم، و يطوفون حوله بالدخن و المزاهر و المعازف، ولهذا الصنم ضياع وغلات،

(١) الفهرست ١/ ٤٨٥.
(٢) الفهرست ١/ ٤٨٨.

وله سدنة وقوام، يقومون بمصلحته و مصلحة ضياعه، و عبادته في النهار ثلاث دفعات، لهم فيها ضروب من الأقاويل، و يأتيه أصحاب السقام و الجذام و البرص و الزمانة و غير ذلك من الأمراض الفظيعة، و يقومون عنده و يسجدون و يتضرعون و يسألونه أن يبرئهم و لا يأكلون و لا يشربون و يصومون له فلا يزال المريض كذلك حتى يرى في منامه كأن قائلا يقول له قد برئت و بلغت المراد و يقال إن الصنم يكلمه في منامه فيبرأ و يرجع إلى حال الصحة"[1].

٣) و الفرقة الثالثة هي فرقة الجندريهكتية وهم عباد القمر،.. ومن سنتهم أن يتخذوا له صنما على عجل يجر العجل على أربعة بطوط/ بطون وبيد ذلك الصنم جوهر، يقال له جندركيت، من دينهم أن يسجدوا له و يعبدوه و أن يصوموا النصف من كل شهر، و لا يفطروا حتى يطلع القمر، ثم يأتون صنمه بالطعام و الشراب و اللبن و يرغبون إليه و ينظرون إلى القمر، و يسألونه حوائجهم، فإذا كان رأس الشهر وهل الهلال صعدوا على السطوح و نظروا إلى الهلال، و أوقدوا الدخن، و دعوه"[2].

٤) والفرقة الرابعة هي الفرقة البكرنتينية يعني المصدفين أنفسهم بالحديد ومن سنتهم أنهم يحلقون رؤوسهم و لحاهم، و يعرون أجسادهم ما خلا العورة،... و يأمرون من يدخل دينهم بالصدقة للتواضع بها"[3].

٥) الفرقة الخامسة هي الفرقة الكنكاياتره " و أهل هذه الملة متفرقون في جميع بلاد الهند، ومن سنتهم أن الإنسان إذا أذنب ذنبا عظيما أن يشخص من

(١) الفهرست ١/ ٤٨٨.
(٢) الفهرست ١/ ٤٨٨.
(٣) الفهرست ١/ ٤٨٩.

بعد أو قرب حتى يغتسل في نهر الكنك فيطهر بذلك"[1].

٦) الفرقة الثالثة هي الفرقة الراجبوتية/ الراحمرتية وهم شيعة الملوك ومن سنتهم في دينهم معونة الملوك"[2].

٧) الفرقة الثالثة يقول عنهم: ومنهم أهل ملة من سنتهم أن يطولوا شعورهم و يفتلونها على جوانب رؤوسهم مغشوا الشعر على نواحي الرأس بالسواء، ومن سنتهم أن لا يشربوا الخمر، و لهم جبل يحجون إليه فإذا انصرفوا من حجهم لم يدخلوا العمران في طريقهم، إذا انصرفوا، و إن رأوا امرأة هربوا منها"[3].

وقد فصل فيه القول المتكلم العربي مطهر المقدسي وهو معاصر لابن النديم أو قريب عصره(٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) في كتابه:

"وقد ذكر قوم أن في الهند تسع مأة ملة مختلفة، وأن الذي عرف منها تسعة وتسعون ضربا، يجمع ذلك اثنان وأربعون مذهبا، مدارها على أربعة أوجه، ثم يرجع إلى اسمين: البراهمة و السمنية، فالسمنية هي التي معطلة و البراهمة ثلاثة أصناف، منهم يقولون بالتوحيد، و الثواب والعقاب و يبطلون الرسالة، و صنف يقولون بالثواب و العقاب على التناسخ، ويبطلون التوحيد، والرسالة"[4].

ثم يذكر الكاتب مكانة الهند العلمية بإيجاز، ويذكر طرق إدلاء الشهادة

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر ١/ ٤٩٠.
(٤) كتاب البدء و التاريخ ٤/ ٩، ١٠.

القديمة الرائجة في الهند القديمة لإثبات الدعوى في القضايا مثل لحس الحديد الحامي، وما إلى ذلك، ثم يضيف:

"والمسلمون عندهم نجس لا يمسونهم، ولا يمسون ما يمسونه، ولحم البقر عندهم حرام ن وحرمة البقر عندهم كحرمة أمهاتهم ن و جزاء من ذبح بقرة القتل، لا يعفى عنه، والزنا حلال عندهم للزاب لئلا ينتقص النسل و يتعاقب المحصن منهم إذا زنى، ومن ارتد منهم إذا سباه المسلمون لم يقتلوه حتى يزكوه، ويطهروه، بأن تحلق كل شعرة عليه من رأسه وجلده ثم يجمع أبوال البقر و أختاثها وسمنها و لبنها فيسقي منها أياما ثم يذهب به إلى البقرة فيسجد لها، ولا ينكحون في الأقارب ألبتة،... وشرب الخمر عند البراهمة حرام وكذلك ذبيحة أهل ملتهم"(١).

ثم ذكر بالتفصيل الآلهة الهندوسية وعبادها المختلفين، ووصف صورة كل إله من هذه الآلهة، ثم بين أحوال وكوائف العبادة لكل من مهاديو، وكالي و مهاكال و عبادة العضو المخصوص (الذكر). وعقب ذلك بذكر طائفتين جديدتين إحداهما (الجلبهكتية) وهي التي تعبد الماء و الثانية (الأكنيهوطرية) التي يقول عنها إنها تعبد النار. وذكر "الرشيين" وبين أن هؤلاء هم الذين يبلدون حواسهم الظاهرة ويعطلونها بكثرة ممارسة عملية المراقبة، و يعتقدون أنهم بقدر ما يبتعدون عن المادية تأتي إليهم الروحانية، فهؤلاء يبقون مغمضين عيونهم دائما فلا يفتحونها، و ذكر في النهاية أحوال الزهاد المنعزلين (جوكي) والمنتحرين.

وكتب عن البراهمة أنهم يزعمون أن الله "أمر بعبادة البقر و أن تتخذ صنما

(١) البدء و التاريخ ص ١١ ـ ١٢.

على مثاله، تعبده، و أمرنا أن لا نجوز نهر كنك فإنه لا دين لمن جاوزه من البراهمة، وان الدين حسب لمن قبله و لذريته من بعده، ولايجوز لمن لم يكن منهم الدخول في دينه....."(١).

و يضيف في النهاية:

"وكل من لا يؤمن بالرسالة والآخرة فإنه يؤمن بالثواب، والعقاب في الانتقال والتناسخ واعتل عبدة الأصنام بأن البارئ جل جلاله في النهاية القصوى في كل ما يدرك ويعلم ويحس ويوصف ولا بد لكل متقرب إلى من يعظمه ويعبده إذا كان غائبا عن حواسه من واسطة ووسيلة فجعلنا هذه المتوسطات من الأجرام العلوية و السفلية إلى عبادته و قربة لديه"(٢).

ثم جاء المحقق الشهير لديانات العالم أجمع وهو عبد الكريم الشهرستاني، الذي يتراوح زمانه ما بين (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م ـ ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م). ونقل بيان مطهر المقدسي بتفصيل أكثر، كما أنه ذكر طائفة جديدة وهي (البركسهيكية) التي تعبد الأشجار(٣).

ذكر أبو ريحان البيروني في الباب الحادي عشر من كتابه كتاب تحقيق ما للهند جميع معتقدات الهندوس ودياناتهم، وصور فيه جميع الآلهة وذكر مواصفاتها، كما ناقش فلسفة الوثنية بالذات، وأضاف أن الوثنية في الهند هي ديانة عوام الناس وجهلائهم فقط، وأما المتعلمون والمثقفون من الهندوس فلا يدينون بهذه الوثنية، حيث يقول البيروني:

(١) البدء و التاريخ ٢/ ١٣.
(٢) البدء والتاريخ ٢/ ١٨ ـ ١٩.
(٣) الملل و النحل للشهرستاني ٢/ ٢٦٠.

"ليتحقق ما قلنا من أن هذه الأصنام منصوبة للعوام الذين سفلت مراتبهم و قصرت معارفهم فما عمل صنم قط باسم من علا المادة فضلا عن الله تعالى، و ليعرف كيف يعبد السفل بالتمويهات"

ثم نقل مقتبسات من كيتا،

يقول:

«ولذلك قيل في كتاب غيتا «إن كثيرا من الناس يتقربون في مباغيهم إلى بغيري ويتوسلون بالصدقات والتسبيح والصلاة لسواي فأقويهم عليها وأوفقهم لها وأوصلهم إلى إرادتهم لاستغنائي عنهم».

ثم نقل إحدى خطب كرشنا التي أبدى فيها عن تبرمه وامتيائه ممن يعبدون الشمس والقمر وما إلى ذلك[1].

ثم انظروا إلى ما يقول الكاتب العربي من وراء البحار وهو القاضي صاعد الأندلسي (المتوفى عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م). يقول الكاتب في كتابه "طبقات الأمم" الذي ذكر فيه تاريخ العلوم والثقافة لجميع الأقوام المتحضرة في العالم:

" فكان(الهند) عند جميع الأمم على ممر الدهور وتقادم الأزمان، ينبوع العدل والسياسة، وأهل الأحلام الراجحة، والآراء الفاضلة،.......وأما العلم الإلهي فإنهم مجمعون على التوحيد لله عز وجل، والتنزيه له عن الإشراك به.....ثم هم مختلفون في سائر أنواعه فمنهم براهمة، ومنهم صابئة.

فأما البراهمة وهي فرقة قليلة العدد فيهم، شريفة النسب عندهم، فمنهم من

(١) تحقيق ما للهند ٨٥.

يقول بحدوث العالم، ومنهم من يقول بأزله، إلا أنهم مجمعون على إبطال النبوءات، وتحريم ذبائح الحيوان، والمنع في إيلامه......

ثم يقول:

" ولبعد الهند من بلادنا واعتراض الممالك بيننا وبينهم قلت عندنا تآليفهم، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم، ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم، فمن مذاهب الهند في علم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عنهم، وهو مذهب "السندهند"، ومذهب "الأرجبهر"، ومذهب "الأركند" [1].

إن الأوضاع الدينية في الهند، التي ذكرها الرحالون العرب، معظمها يختص بما كان في ملتان والسند من الأصنام والمعابد الهندوسية، من أن الصنم الكبير الشهير كان مصنوعا من الخشب، وكان جسمه مكسوا بسختيان أحمر، وكان في عينيه ياقوتتان حمراوان، وعلى رأسه تاج من ذهب،[2]... قال البيروني إنه كان صنما باسم الشمس الإله، و لذلك سمي "آدت" وهو الشمس.[3]....

والشيء الثاني الذي ذكره هؤلاء الرحالون العرب باشمئزاز شديد هو أوضاع المعبد الهندوسي حيث كانت توجد فيه الراهبات الهندوسيات. ولقد جاء ذكر المعابد الهندوسية من هذا النوع في بيانات الرحالين الذين جابوا في جنوبي الهند بشكل أكبر حيث وصفهم السيرافي بقحاب البد[4]، ولكن

(١) طبقات الأمم ١٦ ـ ١٩.

(٢) آثار البلاد و أخبار العباد ١٢٢، أحسن التقاسيم ص٤٨٣.

(٣) تحقيق ما للهند ٨١.

(٤) رحلة السيرافي ٨٤.

المقدسي الذي زار البلاد في عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، ذكر تواجد هذا النوع من المعابد في السند أيضا.

يقول البشاري:

"الخدام يأكلون من جدر الزناة، وعليه أوقاف من الزناة كثيرة، ومن أراد أن يكرم ابنه جعلها وقفا عليه فهما فتنة[1]".

والشيء الثالث الذي كثيرا ما ذكره هؤلاء الرحالون هو ذكر المنتحرين، و ذكروا من أحوالهم ما تقشعر له الجلود، وأما قتل النفس بإغراقها في نهر الكنغ، وإحراق المرأة نفسها مع جثمان زوجها، فذلك أقل رعبا وقشعريرة.

يقول أبو زيد السيرافي:

«في مملكة بلهرا وغيره من ملوك الهند من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ و تمكنه في قلوبهم وزوال الشك فيه عنهم... وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك فاستأذن، ثم دار في الأسواق وقد أججت له النار في حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابا، ثم يعدو، وبين يديه الصنوج دائرا في الأسواق، وقد احتوشه أهله وقرابته، وبعضهم يضع على رأسه إكليلا من الريحان يملؤه جمرا، ويصب عليه السندروس، وهو مع النار كالنفدن ويمشي وهامته تحترق وروائح لحم رأسه تفوح، وهو لا يتعثر في مشيته، ولا يظهر منه جزع، حتى يأتي النار فيثب فيها فيصير رماداً.

فذكر بعض من حضر رجلا منهم يريد دخول النار، أنه لما أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقه بيده إلى عانته، ثم أدخل يده اليسرى

(١) أحسن التقاسيم ٤٨٣.

فقبض على كبده، فجذب منها ما تهيأ له وهو يتكلم ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت وصبرا على الألم ثم زج بنفسه في النار إلى لعنة الله»[1].

وأفجع المشاهد هو ما صوره لنا ابن الفقيه القزويني فقد قال:

"إن رجلا من الهند أتى هذا الصنم و قد اتخذ لرأسه تاجا من القطن ملطخا بالقطران، ولأصابعه كذلك وأشعل النار فيها، ووقف بين يدي الصنم حتى احترق"[2].

البراهمة والسمنية ـ إبراهيم و خضر

قسم مطهر المقدسي(عام ٣٣٥هـ/٩٤٦م) جميع الطوائف الهندوسية إلى قسمين: البرهمنية والسمنية، ولكن الذي يبعث على الاستغراب هو أن التشابه اللفظي بين البرهمنية وإبراهيم حدا ببعض المؤلفين العرب إلى اعتقاد أن البراهمة أتباع إبراهيم عليه السلام أصلا، ولذلك سموا بالبراهمة، إلا أن الشهرستاني قام بدفع هذا الاعتقاد الباطل وبين أن البرهمنية نسبة إلى براهم[3] وليس إلى إبراهيم. وأما السمنية فهي اسم للطائفة البوذية المعارضة للبراهمة في اللغة العربية،(وسنتكلم فيما بعد عن هذا البحث) ويعتقد أتباع البوذية في ظهور بوذا في شكل إنساني بين فينة وأخرى، وهذا هو السبب في أن بعض الناس اعتقدوا أن بوذا هو من يسميه المسلمون خضر عليه السلام.

(١) رحلة السيرافي ٧٨ ـ ٧٩.
(٢) آثار البلاد للقزويني ١٢٢.
(٣) الملل و النحل ٢/ ٢٥٠.

يُحتاج إلى التطبيق بين شعبين عند ما ينشأ بينهما تفاهم واتحاد، وهذان المثالان هما ذكرى نفس ذلك العصر الذي كان فيه بينهما تفاهم واتحاد.

الملك الهندوسي المتأدب مع نبينا ﷺ

عندما أراد أولوا الهمة من السادات العلويين في عصر الخليفة منصور العباسي (عام ١٤٧هـ/ ٧٦٤م) أن يقيموا حكومتهم، دبرت لها ترتيبات في السند أيضا، ولكن انقلب الأمر عليهم، ولم يقدر للعلويين نجاح فيما أرادوا، فكانوا حينئذ بحاجة ماسة إلى ملجأ يلتجئون إليه. كان الوالي المسلم في الهند يكن ميلا وحبا للعلويين فواساهم، وقال لهم لا تخافوا، إن هناك ملكا في الهند يكن في قلبه احتراما شديدا للنبي ﷺ، فاذهبوا إليه. فذهبوا إليه فاحتفى بهم و أحسن مثواهم[1].

السمنية

سبق وأن ذكرت الفرقة السمنية في السطور السابقة، وقيل إنها كانت اسما عربيا أطلقه العرب على البوذيين، وتوصلت إلى هذه النتيجة بعد مدة طويلة قضيتها في جمع المعلومات والأدلة في هذا الموضوع.

وأول ما رأيت هذه الكلمة كان في كتاب "الفرق بين الفرق" لعبد القادر البغدادي الذي توفي عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م عندما تكلم عن إمام كبير للطائفة المستنيرة العقلانية من المسلمين وهم المعتزلة واتهمه بأنه أخذ قضية إنكار النبوة من البراهمة، وقضية "تكافؤ الأدلة" (وهي أن التمييز بين الحق والباطل مستحيل حيث توجد دلائل قوية لكلا الجانبين) من السمنية، ثم قرأت في كتاب

(١) الكامل لابن الأثير حوادث عام ١٤٧.

مرتضى الزيدي «المنية والأمل في شرح الملل والنحل» «باب ذكر المعتزلة» (و كان عند الملك رجل من السمنية وهو الّذي حمله على هذه المكاتبة) «...ووجهتني هذه الفقرة إلى أن هذه الفرقة لها علاقة بالهند، ثم صادفتني كلمة السمنية مرة بعد أخرى في دراسة أوضاع السند، ووجدت الأستاذ ايليوت يقول نقلا عن الأستاذ مولر وغيره إن المراد بالسمنية البوذيون. وأصلها السنسكريتي "سرمن" وهي كلمة تدل على معنى الفقير الديني، كما أن أيليوت يضيف بأن الرحالين والمؤرخين اليونان هم الآخرون ذكروها باسم سرامينس وسرمينيا وسيموني،"[1] ..... وهذا دفعني خطوة إلى الأمام في طريق الدراسة والتحقيق، ثم جاء كتاب الفهرست لابن النديم وحل هذه المعضلة واطمأننت إلى دراستي، وعلمت أيضا كيف جاء هذا الاسم عند اليونان.

تحقيق السمنية

إن حمزة الأصفهاني [2] الذي ألف كتابه "تاريخ ملوك الأرض" فيما

(١) الهند إيليوت ١/ ٥٠٦.

(٢) هو حمزة بن الحسن الأصفهاني، مؤرخ، أديب من أهل أصفهان. زار بغداد عدة مرات وكان مؤديا. صنّف لعضد الدولة البويهي كتابه (الخصائص) و (الموازنة بين العربية والفارسية) وفيه تعصب للفارسية. من كتبه: تاريخ أصفهان، كتاب الأمثال وقد نقل عنه الميداني في مجمع الأمثال وأبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال، وكتاب التماثيل في تباشير السرور وسمي (فصول التماثيل) ونسب إلى ابن المعتز وكتاب (التنبيه على حدوث التصحيف) و (التنبيه على حروف المصحف) وكتاب (سنيّ ملوك الأرض والأنبياء) وقد أعيد طبعه باسم (تاريخ ملوك الأرض). توفي عن ثمانين عاما.

المراجع

إنباه الرواة ١/ ٢٢٥. كشف الظنون ١/ ١٦٨ ، ٢٨٢. الأعلام ٢/ ٣٠٩. معجم الأدباء ٦/ ٢٨٩. بروكلمان ٣/ ٦٠.

يقارب عام(٣٥٠هـ/ ٩٦١م) والذي يعتبر مرجعا موثوقا به في تاريخ إيران وخراسان كتب في مقدمة كتابه[١]: ....**تاريخ ملوك الأرض**

مما يدل على أن العرب سمعوا هذا الاسم للبوذيين من أهل خراسان، وهو الذي شاع عندهم، أضف إلى بيان الأصفهاني ما كتبه ابن النديم في كتابه:

" قرأت بخط رجل من أهل خراسان قد ألف أخبار خراسان في القديم، وما آلت إليه في الحديث، وكان هذا الجزء يشبه الدستور، قال نبي السمنية بوداسف: وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الإسلام وفي القديم، ومعنى السمنية منسوب إلى سمنى، و هم أسخى أهل الأرض والأديان، وذلك أن نبيهم بوداسف أعلمهم أن أعظم الأمور التي لا تحل و لا يسع الإنسان أن يعتقدها و لا يفعلها قول لا في الأمور كلها فهم على ذلك قولا وفعلا وقول لا عندهم من فعل الشيطان، ومذهبهم دفع الشيطان"[٢].

هذه البيانات تنطبق على البوذيين حرفا حرفا، وقد سبق أن أصل بوذاسف عبارة عن " بودهي ستو" كما هو من المعلوم أيضا أن الديانة في آسيا الوسطى قبل الإسلام لم تكن إلا البوذية، وبعد هذه البيانات والتحقيقات لا يوجد هناك شك في أن السمنية والبوذية شيء واحد.

بعض مبادئ السمنية

تعرض عبد القادر البغدادي (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) لبعض مبادئ السمنية(البوذية) ضمنا، وهو بالتحديد "تكافؤ الأدلة" بالاصطلاح العربي، وهو قريب

(١) تاريخ ملوك الأرض ص٧.
(٢) الفهرست ١/ ٤٨٤.

نوعا ما من مبادئ الفرقة اللاأدرية (الغنوصية)، ويعني ذلك أن الحق والباطل في العالم متداخلان فيما بينهما لدرجة أنه يمكن أن يكون لكل شيء وجهان نفيا وإثباتا، ولا يمكن الحكم بصحة أحد الوجهين و ببطلان الآخر. و لا شك أن هذا المبدأ يكمن في بعض تعاليم بوذا إلا أنه أظهر ما يكون في تعاليم الفرقة الجينية.

والمبدأ الثاني من مبادئ بوذا الذي تقوم عليه السمنية هو التخلص من الآلام في الحياة أو العالم و مصائبه أو مساوئه، وهذه الآلام والمصائب هي التي عبر عنها ابن النديم بالشيطان الذي هو محور الشر، و قال: "مذهبهم دفع الشيطان" يعني الخلاص من الصائب والآلام.

إن الشهرستاني الذي هو من أواخر القرن الخامس للهجرة (القرن الحادي عشر للميلاد) استخدم كلمة "بد" بدلا من كلمة السمنية، ويبدو أنه كان يعرف البوذية معرفة جيدة.

يقول الشهرستاني:

"ومعنى البد عندهم شخص في هذا العالم لا يولد، و لا ينكح، و لا يطعم، و لا يشرب، و لا يهرم، و لا يموت"[١].

وكأنه يذكر الدرجة التي بعد الخلاص ثم درج الشهرستاني على ذكر تعاليم ومبادئ بوذا وهي الابتعاد والاجتناب عن عشرة آثام، والقيام بعشرة واجبات أخلاقية، وتناول كل تعليم من هذه التعاليم و كتب أنه:

(١) الملل و النحل ٢/ ٢٥٢.

"ولم يكن بينهم اختلاف في ما ذكر عنهم من ازلية العالم، وقولهم في الجزاء على ما ذكرنا"(١).

وقد نقل مطهر بن طاهر عن كتاب جغرافي يسمى كتاب المسالك (و هو غير كتاب ابن خرداذبة، ولكن لا بد أنه ألف في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع) قائلا:

"وقرأت في كتاب المسالك أن السمنية فرقتان، فرقة يزعم أن البد كان نبيا مرسلا، وفرقة يزعم أن البد هو البارئ تراءيا للناس في تلك الصورة ونعوذ بالله"(٢).

ونقل ابن النديم عن كتاب غير كتاب الكندي نقلا صحيحا، يقول ابن النديم:

"اختلف أهل الهند في ذلك فزعمت طائفة أنه صورة الباري تعالى جده، و قالت طائفة صورة رسوله إليهم"(٣).

إن هذا تعبير في الحقيقة عن الاختلاف الذي دار حول: هل للإله وجود في البوذية؟ تنكر فرقة من البوذيين بوجود يسمى إلها، بينما تعتقد فرقة أخرى في وجوده.

والواقع أن بوذا نفسه جعل هذه القضية معقدة بدون حل، يقول محمد الخوارزمي في أواخر القرن الرابع للهجرة:

(١) الملل والنحل لشهرستاني ٢/ ٢٥٢.
(٢) كتاب البدء والتاريخ ٤/ ١٩.
(٣) الفهرست ص٤٨٧.

"السمّنية هم أصحاب سمن، وهم عبدة أوثان، يقولون بقدم الدهر، و بتناسخ الأرواح، وأن الأرض تهوي سفلا أبدا.....وبقايا السمنية بالهند والصين،... والكلدانيون......يزعمون أن نبيهم بوذاسف الخارج في الهند"(١).

يكتب المسعودي (٣٣٣هـ-٩٤٤م) وهو المؤرخ العالم و الرحالة العربي الشهير في أحوال الصين(٢):

ودينهم دين مَنْ سلف، وهي ملة تدعى السمنية، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الإسلام: يعبدون الصور، ويتوجهون نحوها بالصلوات، واللّبيب منهم يقصد بصلاته الخالق، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قِبْلَة، والجاهل منهم ومَنْ لا علم له يشرك الأصنام بإلهية الخالق، ويعتقدهما جميعاً، ...... تاريخ المسعودي

شكل بوذا

إن شخصية بوذا هي الشخصية الوحيدة من شخصيات زعماء العالم التي حفظ شكلها في العالم عبر القرون من خلال التماثيل والأصنام، وقد انتشر الآن في جميع أنحاء العالم عن طريق المتاحف. وكان العرب أيضا مطلعين على شكل بوذا حيث صوره ابن النديم بألفاظه كما يلي:

"فأما صفة البد الأعظم فإنسان جالس على كرسي لا شعر بوجهه مغموس الذقن، في الفقم ما هو مشتبه بكساء كالمبتسم عاقد بيديه اثنين و ثلثين"(٣).

(١) مفاتيح العلوم ٢٥.
(٢) مروج الذهب ١/ ٢٩٨.
(٣) الفهرست ص٤٨٧.

وكان تمثال من تماثيل بوذا وصل بغداد أيضا وكان ابن النديم رآه بأم عينه، وكان عليه لوحة، يقول ابن النديم:

«رأيت صنما صفرا في دار السلطان أنه صورة البد وهو شخص على كرسي قد عقد بإحدى يديه ثلاثين وعلى الكرسي كتابة»[1].

انتشار البوذية و شيوعها

كان العرب يعرفون جيدا الأمكنة والبلاد التي كانت البوذية منتشرة و شائعة فيها. وقد سبق قبل قليل ما ذكره ابن النديم من أن ديانة خراسان وبلاد ما وراء النهر يعني آسيا الوسطى قبل الإسلام لم تكن إلا البوذية، كما أنه كانوا يعرفون أن الصين هي الأخرى توجد فيها الديانة البوذية نفسها، ووصلت إليها من الهند. و قد ذكر ذلك معظم الرحالين العرب، و أولهم سليمان التاجر الذي توجد رحلاته بين يدي (عام ٢٣٧هـ/ ٨٥١م)، يقول في رحلاته:

«وليس لأهل الصين علم، وإنما أص دياناتهم من الهند، وهم يزعمون أن الهند وضعوه لهم البددة، ووأنهم هم أهل الدين، وكلا البلدين يرجعون إلى التناسخ ويختلفون في فروع دينهم»[2].

كما كانوا يجدون آثار هذه الديانة البوذية في جنوبي الهند وجزائرها كذلك.

بهكشو (الراهب البوذي)

ومن هنا يذكر أبو زيد السيرافي الذي كتب أحوال جنوبي الهند والجزر والصين في أواخر القرن الثالث للهجرة الرهبان البوذيين، ويسميهم

(١) ابن النديم ص٢٧.
(٢) رحلة السيرافي ص٥٠.

"البيكرجين" الكلمة التي ربما هي شكل محرف لكلمة بهكشو، ذلك أن معنى هذه الكلمة بالإضافة إلى صورتها لا تنطبق بشكل كامل إلا عليهم. يقول السيرافي:

«وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب إذ كانت لا تقص إلا ما ينكسر منها، وهم على سبيل سياحة، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الإنس، فإذا اشتد بهم الجوع وقف بباب بعض الهنود فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة فإذا أشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلا في وقت حاجته»[1].

كان بزرك بن شهريار الربان رأى أمثال هؤلاء الرهبان وهو يمر بسرنديب عام ٣٠٠هـ/ وهو الآخر صورهم على هذا الشكل نفسه، و سماهم (بيكور) وقال:

"منهم البيكور، وأصلهم من سرنديب وهم يحبون المسلمين، ويميلون إليهم ميلا شديدا، وهم في الصيف عراة حفار لا يسترون بشيء، وربما جعل الواحد منهم على سوأته خرقة أربع أصابع في مثل ذلك مشدودة بخيط في الوسط، ويتشحون بالحصر الحشيشة. ومنهم من يلبس الإزار مرقعا من كل لون على لون المرقعة للشهرة، ويلوثون أبدانهم برماد عظام الموتى من الهند الذين أحرقوا، ويحلقون رؤوسهم وينتفون لحاهم وشواربهم ولا يحلقون شعر العانة ولا شعر الإبطين، في الأكثر يقصون أظفارهم، ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت يأكل فيه ويشرب على سبيل الاتعاظ بذلك والتواضع"[2].

(١) رحلة السيرافي ص ٨٤.
(٢) عجائب الهند ٢/ ١٣١.

(لكن البيروني سمى أمثال هؤلاء الفقراء والرهبان بعباد مهاديو حيث كانت أشكالهم مشابهة لهم، و كانوا يعلقون في أعناقهم عقدا) [١]..كتاب الهند

الرهبان و الزهاد

لقد تضمنت هذه الكتب وقائع الرهبان و الفقراء الزهاد وأحوالهم، إلا أن أغرب ما في هذه الوقائع هو ما كتبه سليمان التاجر في وسط القرن التاسع للميلاد اعتمادا على مشاهدته،يقول سليمان التاجر:

"وببلاد الهند من ينسب إلى السياحة في الغياض والجبال وقل ما يعاشر الناس، ويأكل أحيانا الحشيش وثمر الغياض، ويجعل في إحليله حلقة حديد لئلا يأتي النساء، ومنهم العريان ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عرياناً، إلا أن عليه شيئا من جلود النمور، فقد رأيت رجلا منهم كما وصفت، ثم انصرفت وعدت بعد ست عشرة سنة، فرأيته على تلك الحال، فتعجبت كيف لم تسل عينه من حر الشمس"[٢].

السمنية والإسلام

تبدأ العلاقات بين المسلمين والسمنية من خراسان وتركستان وأفغانستان، وتصل بشكل تدريجي إلى الهند، فلم يتردد كثيرا في اعتناق الإسلام لا سدنة نوبهار البرامكة الواقع في بلخ، ولا عامة البوذيين في تلك البلاد. ونجد نفس المشهد في السند، فقد اعتنق الإسلام كثير من الملوك في بلاد السند عندما بعث الخليفة المتدين التقي الورع من بني أمية وهو عمر بن عبد العزيز في أواخر

(١) كتاب الهند ٥٨.

(٢) رحلة السيرافي ٤٧.

القرن الأول بدعوة يدعو الناس في السند إلى الإسلام بعد فتحها بعدة سنوات فقط. كما ورد في فتوح البلدان:

"وكانت خلافة عمر بن عبد العزيز بعده، فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلم حليشة والملوك وتسموا بأسماء العرب" [١].

وكذلك نجد في مليبار وجزيرة المالديف والجزر الأخرى نفس هذه المشاهد. و قد ذكرت مثل هذه الأحداث والوقائع بتفصيل وإسهاب في سلسلة من مقالاتي بعنوان " الإسلام في الهند" فلا حاجة هنا لإعادتها.

السمنية والحصرية

سبق وأن ذكرنا في موضع ما أن الفيلسوف الشهير والمتكلم المعروف نظام المعتزلي الذي كان في أواخر القرن الثاني للهجرة وكان معلم الخليفة العباسي مأمون الرشيد اتهمه بعض أعدائه بتهم منها أنه صحب المجوس والسمنية قبل الإسلام، وتعلم قضية تكافؤ الأدلة من السمنية، و تعلم قضية فلانية من شخص فلاني إلى آخره، وكانت هناك قائمة طويلة للتهم الموجهة إليه. وعلى كل حال، فهذه العبارة موجودة في جميع الكتب على السواء، إلا أن هناك كلمة حصلت تحريفات جديدة فيها في كل موضع.

وأقدم كتاب وجدت فيه هذه العبارة هو كتاب "الفرق بين الفرق" لعبد القادر البغدادي (المتوفى عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م). وردت هذه الكلمة "سمتيه" (السمنية) في هذا الكتاب، غير أن محدثا ومؤرخا ثقة آخر وهو السمعاني (المتوفى عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) نقل هذه العبارة كاملة، إلا أنه كتب "حصرية"

(١) فتوح البلدان فتح السند ١/ ٦٩٤.

بدلا من "سمنيه" كما هو موجود في النسخة القديمة لكتابه (كتاب الأنساب) التي قامت بطبعها مطبعة جب التذكارية في لندن كما كان بواسطة الزنكوغراف عام ١٩١٢م، وبما أنه لا تعرف أية فرقة تسمى الحصرية فقد حولها أحد ما إلى الدهرية كما يوجد في العبارة المنقولة في علم الكلام للأستاذ شبلي النعماني، غير أنه تحريف صريح، فقد تأملت في الاختلاف بين الكلمتين السمنية والحصرية تأملا طويلا إلى أن توصلت ولله الحمد إلى نتيجة واقتنعت بها.

والواقع أن الذي ورد في نسخة السمعاني ليس حصرية بل سقطت نقطتان من حرف خ وض. لأن هذه الكلمة في الحقيقة "خضرية" وما ساعدني على الوصول إلى هذه النتيجة هو رأي الشهرستاني وهو الفيلسوف و المحدث المعاصر للإمام السمعاني حيث يقول:

"وليس يشبه البد على ما وصفوه إن صدقوا في ذلك إلا بالخضر الذي يثبته أهل الإسلام"[1].

يتبين من هذا أن الناس كانوا يسمون أتباع البوذية بالخضرية بعدما افترضوا أن بوذا هو خضر عليه السلام. وهذه هي الفرقة التي ذكرها السمعاني في أحوال نظام المعتزلي. وعلى هذا، فالمراد بسمنية البغدادي و خضرية السمعاني واحد.

المحمرة

والاسم الثالث للبوذيين في الكتب العربية هو الفرقة المحمرة[2]. ولعل

(١) الملل و النحل ٢/ ٢٥٣.

(٢) تحقيق ما للهند ١١٠.

المراد بالمحمرة هو اللون الزعفراني، وكان هذا اللون شارة الزعماء الدينيين عندهم.

بد والصنم

وبهذه المناسبة يجب أن أشير إلى كلمة أخرى وهي كلمة بت (الصنم) و منها اشتقت بت برست (عابد الأصنام) وبت خانه(دار الأصنام). تعرف هذه الكلمة عموما بكونها فارسية. وواقع الأمر أنها محرفة من بد وهي بذاتها شكل محرف لبوده ـ وبما أن تمثال بوذا كان يعبد، فهذه الكلمة نفسها صارت تدل على معنى بت في اللغة الفارسية وهو الصنم، ولذلك تطلق في اللغة العربية كلمة (بد) على هذا الصنم و جمعها أبداد و بددة.[1].

صنم صقلية في الهند

كان العرب يعرفون جيدا أن زبائن التماثيل والأصنام معظمهم من الهنود، ولذلك ولاشك تستغربون إذا سمعتم أن الأمير معاوية (٤٦هـ/ ٦٦٦م) رضي الله عنه عندما غزا إيطاليا وحصلت له هناك تماثيل وأصنام من ذهب، فأراد أن يستلم قيمة تشكيلة الصنم وصنعته بالإضافة إلى قيمة الذهب الحقيقية، فحاول أن يرسل هذه التماثيل والأصنام إلى الهند ليبيعها، ذهب بعض المؤرخين إلى أن المسلمين عارضوا هذا الرأي فلم يطبق"[2]،...... إلا أن البيروني ذكر أنها حملت إلى الهند و بيعت.

(١) الفهرست ١/ ٤٨٧ و رحلة السيرافي ص ٥٠، و ص٨٤ كتاب البدء والتاريخ ٤/ ١٩ والملل والنحل ٢/ ٢٥٢.

(٢) نهاية الأرب ٥٢٦.

يقول البيروني:

"وإلى السبب الأول ذهب معاوية في أصنام سقلية لما فتحت في سنة ثلاث و خمسين في الصائفة و حمل أصنام الذهب مكللة مرصعة بالجواهر فبعث بها إلى السند لتباع هناك من ملوكهم فإنه رأى أن يبعها قائمة أثمن الدينار دينارا"(١)

وربما اعتمد البيروني في بيانه هذا على رواية الواقدي التي نقلها البلاذري أيضا في فتوح البلدان(٢).

هذه الصلات الدينية بين الهند والعرب فعلت فعلها على كل حال، وسنحت الفرص لكل من الطائفتين أن يختلطوا بالآخر. ومما لا شك فيه أنهم تعرفوا على ديانة الآخرين إلى حد ما. وأرى أن الديانة المسيطرة في الهند حينذاك كانت البوذية وهم الذين تأثروا بدين العرب أكثر، ونجد هذه الآثار أول ما نجد في الخطوط التي كانت ممرات العرب التجارية، وهي من المعبر و المليبار و كولم إلى كتش و مملكة الكجرات في جانب، و من السند إلى كشمير في جانب آخر.

كانت الصلات أقوى وأوسع بين بلاد العرب وجنوبي الهند والجزر الجنوبية. و السبب في ذلك يعود ـ بالإضافة إلى التجارة ـ إلى ما كان يجذبهم من زيارة أثر القدم الواقع في سرنديب.

(١) تحقيق ما للهند ٨٧.

(٢) البلاذري ١/ ٣٧٧.

المقام المقدس المشترك للعرب والهنود

مشهور أن هناك أثرا للقدم على جبل من جبال سرانديب أو سيلون أو لانكا سموها ما شئتم، والله يعلم منذ متى أصبح هذا الأثر محطة حب الناس ومركز عقيدتهم. ولكن أعجب من ذلك كله أن هذا الأثر كان مركز مشتركا لحب العرب المسلمين والبوذيين وعامة الهندوس، وهذا أمر لا يمكن أن يوجد له نظير في عالم الديانات.

يعتقد المسلمون أنه أثر قدم أبيهم آدم عليه السلام ويحترمونه، بينما يعتقد البوذيون أنه أثر قدم "شاكيه موني" بينما يؤمن الهندوس بأنه أثر قدم "شيو"، ويعظمونه. ويفد الناس لزيارته من أمكنة بعيدة. كان الرحالون والسياح المسلمون العرب و صوفية العراق يحملون شوقا و رغبة شديدة لزيارة هذا الأثر، فقد ذكره جميع الرحالين تقريبا الذين جاءوا عبر الخطوط البحرية. وإن الشوق لزيارة هذا الأثر هو الذي جذبهم إلى ذلك المكان، وأصبح ذلك في النهاية سببا في كثرة تردد الفقراء الصوفية من المسلمين على ذلك البلد. وبسبب هذه الرحلات رسخت قدم الإسلام فيه.

وكان ملك هذا البلد في عصر ابن بطوطة هندوسيا إلا أنه كان هناك مغارة الخواجة خضر عند الجبل الذي كان فيه أثر القدم، وكذلك كان في موضع آخر منه مغارة البابا طاهر أيضا. كانت منطقة سالايم كثيرة الفيل، لكنها لم تكن تؤذي أحدا من الناس، وذلك بسبب بركة دعاء الشيخ الولي عبد الله الخفيف الشيرازي المتوفى عام ٣٣١هـ/ ٩٤٢م. و لذلك منذ ظهرت كرامة هذا الشيخ في هذا المكان يتأدب الهندوس والوثنيون أيضا مع المسلمين ويحترمونهم وينزلونهم في بيوتهم بين أولادهم وعائلاتهم. ولا يزال الناس يحترمون الشيخ عبد الله الخفيف حتى هذا العصر (عصر ابن بطوطة).

الإسلام في الهند

على كل حال، أدت هذه الصلات التجارية و الاجتماعية و السياسية إلى أن بدأ الإسلام يخطو خطوة إلى الأمام بشكل تدريجي، في كل من السند ومملكة الكجرات و المعبر والمالديف و سرانديب و ياوه. وكانت البوذية قد انتشرت في هذه الجزر بما كان للهندوس من جهة و الصينيين من جهة أخرى من أثر، ولكن القراءة في كتب الرحلات والجغرافية التي ألفت قرنا بعد قرن، تخبرنا بأن الإسلام ظل يوسع آثاره ونطاقه في هذه البلاد من غير حرب وقتال وبكل هدوء وأمن وسلام. وكان كل من الشعبين يجد فرص التفاهم والتعارف فيما بينهم. نختم هذا الفصل ببيان عدد من الأحداث المتفرقة من ذلك العصر.

إسلام ملك البنجاب أوالسرحد

يذكر البلاذري وهو مؤرخ من القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد)

"أن بلدا يدعى العسيفان بين قشمير والملتان وكابل كان له ملك عاقل، وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنما، قد بني عليه بيت، وأبدوه فمرض ابن الملك، فدعى سدنة ذلك البيت فقال لهم: أدعو الصنم أن يبريء ابني، فغابوا عنه ساعة، ثم أتوه فقالوا: قد دعوناه، وقد أجابنا إلى ما سألناه، فلم يلبث الغلام أن مات، فوثب الملك على البيت فهدمه، وعلى الصنم فكسره، وعلى السدنة فقتلهم، ثم دعا قوما من تجار المسلمين فعرضوا عليه التوحيد، فوحد وأسلم، وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله رحمه الله." مابين ٢١٨هـ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣م ـ ٨٤١م[1].

(١) فتوح البلدان للبلاذري ١/٢٠١.

المناظرة الدينية بين الهندوس والعرب

وكانت هذه الصلات قد توطدت لدرجة أن كانت تعقد المناظرة الدينية الاستعراضية بين العرب المسلمين والهندوس وحتى البوذيين. ومن أحداث عصر هارون الرشيد (أواخر القرن الثاني) أن ملكا من الهند طلب إلى هارون الرشيد أن يبعث له واحدا من علماء دينه، لقد جاء في كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل:

قال القاضي عبدالجبّار:

«لمّا منع الرّشيد من الجدال في الدين وحبس أهل علم الكلام، كتب إليه ملك السند: إنّك رئيس قوم لا ينصفون و يقلّدون الرجال و يغلبون بالسيف، فإن كنت على ثقة من دينك فوجّه إليّ من أناظره، فإن كان الحقّ معك تبعناك، وإن كان معي تبعتني. فوجّه إليه قاضياً، و كان عند الملك رجل من السمنية وهو الّذي حمله على هذه المكاتبة، فلمّا وصل القاضي إليه أكرمه ورفع مجلسه، فسأله السمني فقال: أخبرني عن معبودك هل هو القادر؟ قال: نعم، قال: أفهو قادر على أن يخلق مثله؟ فقال القاضي: هذه المسألة من علم الكلام وهو بدعة، وأصحابنا ينكرونه.

فقال السمني: من أصحابك؟ فقال: فلان وفلان وعدّ جماعة من الفقهاء، فقال السمني للملك: قد كنت أعلمتك دينهم وأخبرتك بجهلهم و تقليدهم و غلبتهم بالسيف، قال: فأمر ذلك الملك القاضي بالانصراف، وكتب معه إلى الرشيد: إنّي كنت بدأتك بالكتاب وأنا على غير يقين ممّا حكي لي عنكم، فالآن قد تيقّنت ذلك بحضور هذا القاضي ـ وحكى له في الكتاب ما جرى.

ترجمة القرآن الكريم بالهندية قبل ألف عام

اليوم بدأ الناس ينقلون معاني القرن الكريم إلى اللغة الهندية، ولكن الذي يدعو إلى الاستعجاب الشديد أن تسمع عن ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة السندية أو الهندية بأمر من ملك هندوسي. وقد ذكر بزرك بن شهريار:

" أن ملك الراء وهو أكبر ملوك بلاد الهند والناحية التي هو بها بين قشمير الأعلى وقشمير الأسفل، وكان يسمى مهروك بن رائق كتب في سنة سبعين ومأتين إلى صاحب المنصورة وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يسأله أن يفسر له شريعة الإسلام بالهندية، فأحضر عبد الله هذا رجلا كان بالمنصورة أصله من العراق حد القريحة، حسن الفهم، شاعرا قد نشأ ببلاد الهند وعرف لغاتهم على اختلافها، فعرفه ما سأله ملك الراء فعمل قصيدة وذكر فيها ما يحتاج إليه، وأنفذها إليه، فلما قرئت على ملك الراء استحسنها، وكتب إلى عبد الله يسأله حمل صاحب القصيدة فحمله إليه، وأقام عنده ثلاث سنين، ثم انصرف عنه، فسأله عبد الله عن أمر ملك الراء فشرح له أخباره وأنه تركه وقد أسلم قلبه ولسانه، وأنه لم يمكنه إظهار الإسلام خوفا من بطلان أمره وذهاب ملكه "[1].

العدالة الدينية الفريدة لملك من ملوك مملكة الكجرات

في أواخر القرن السادس للهجرة، عندما كان شمس الدين ايلتمش يحكم في دهلي بعد سلطان الغوري وناصر الدين القباجة في السند، جاء عالم من بخارى يسمى محمد عوفي[2] إلى الهند، وأغلب الظن أنه خرج من أحد

(١) عجائب الهند ١/ ٤٨.

(٢) مؤرخ وأديب من أهل خراسان استمد نسبه (العوفي) من اتصال نسبه بالصحابي عبد الرحمن=

سواحل السند ربما من المنصورة أو الديبل، وجاب في الخليج الفارسي والسواحل العربية، وموانئ مختلفة من الهند إلى أن وصل إلى كنبايه أيضا أثناء سفره. وله كتابان لا يزالان موجودين، أحدهما تذكرة الشعراء الإيرانيين، ويسمى "لباب الألباب" وقد أهداه إلى وزير ناصر الدين القباجه. وطبع في مجلدين من لندن ضمن "سلسلة غب".

والكتاب الثاني وهو أكبر من الأول اسمه "جامع الحكايات ولامع الروايات"، وقد أورد فيه المصنف قصصا مما شاهد وسمع وقرأ في الكتب الأخرى من الوقائع والأحداث تحت عناوين مختلفة، و أهداه إلى قوام الدين الجنيدي وزير السلطان شمس الدين التمش، و لا يزال هذا الكتاب ينتظر النور. و توجد له نسخة مخطوطة في مكتبة دار المصنفين بأعظم جراه الهند أيضا.

= بن عوف أمضى طفولته في بخارى وتنقل بين مدن ما بين النهرين وأقام زمنا في خوارزم ونيسابور ثم غادرها إلى الهند والتحق بخدمة سلطان البنجاب (ناصر الدين قباجة) ولما هلك بعد استيلاء شمس الدين القطبي، سلطان دلهي على البنجاب التحق بخدمة هذا السلطان. اشتهر بكتابه (لباب الألباب) و (جوامع الحكم) وكلاهما مؤلف بالفارسية، وقد صنف الأول في بلاط سلطان البنجاب وأهداه إلى وزيره، وصنف الثاني في بلاط سلطان دلهي وأهداه إلى وزيره. فأما (لباب الألباب) فإنه يشتمل على تراجم شعراء الفرس ويعتبر من أهم الكتب في تاريخ الأدب الفارسي، وأما (جوامع الحكايات) فهو مجموعة قصص تاريخية ويعتبر أهم مصنف باللغة الفارسية فيما يتعلق بمادة الجغرافية، ففي أحد فصوله يتكلم عن عجائب البحر والبر وطبائع الحيوان وعن معلومات عن بعض الشعوب التي تقطن أقاليم مختلفة وفيه يقسم العالم إلى سبعة أقاليم، وفي هذا يتفق، في كثير أو قليل، مع الجغرافيين السابقين كالمسعودي (ت: ٣٤٦هـ) والقزويني (ت: ٦٨٢هـ). لا يعرف تاريخ وفاته ولكنه عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري لذلك جعلنا وفاته سنة ٦٤٠هـ على وجه التقريب.

المراجع

تاريخ الأدب في إيران ص / ٣٢٦ ـ ٣٢٨ ـ تاريخ الأدب الجغرافي ص / ٦٠٦.

فقد كتب محمد عوفي في الباب الثاني من هذا الكتاب بعنوان " في بيان ملوك الطوائف وأحوالهم " قصة غريبة تدل على كيفية الصلات بين الهندوس والمسلمين في هذه البلاد على عهد العرب، وكيف كان الملوك الهندوس يعاملون رعاياهم من المسلمين.

كان محمد عوفي سافر قبل عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م. فالقصة التي حكاها لا بد أن يرجع تاريخها إلى ما قبل هذا التاريخ، وهذا عصر لم تكن فيه مملكة الكجرات قد تعرضت إلا لغارة واحدة من قبل السلطان محمود، ثم حملات سريعة قام بها السلطان قطب الدين الأيبك بعده بقرنين، ولم يكن فيها للحكومة الإسلامية وجود.

يقول محمد عوفي: اتفق لي ذات مرة أن أذهب إلى كنبايه وهي مدينة على ساحل البحر، ويسكن فيها جماعة من المسلمين الملتزمين، تقوم باستضافة الضيوف وتكرم وفادتهم. وهذه المدينة تقع في سلطة مدينة النهرواله وهي قرية من مملكة الكجرات، ويسكنها عدد من المسلمين ومعارضيهم، وعندما سافرت إليها سمعت قصة تشابه قصة نوشيروان السابقة الذكر، وهي أنه كان هناك مسجد للمسلمين على عهد الملك "جاتاك" ترتفع منارته، التي كان المؤذن يصعدها ويؤذن من فوقها.

أوقع المجوس ضغينة بين المسلمين والهندوس ونشبت بينهم حرب قام فيها الهندوس بتدمير المسجد فقضوا عليه مع المصلين، مما أدى إلى استشهاد ٨٠ مسلما، فهرب إمام المسجد الذي كان اسمه "عليا" إلى النهرواله، واستعطف الوزراء والمسؤولين، فلم يسمع له أحد. ولما رأى الإمام هذه الحالة خرج من هناك، وقال قصيدة باللغة الهندية، وربما باللغة الكجراتية، وضمنها

الحدث بكامله. وبدأ يستعلم متى يخرج الملك للصيد، ولما حانت رحلة الملك للصيد، ذهب واختفى في طريقه متسترا بشجيرات كثيفة الأغصان، وعندما مر موكب الملك ظهر أمامه متظلما ومستعطفا، و توسل إليه أن يسمع قصيدته هذه.

أوقف الملك الفيل، واستمع إلى طلبه المنظوم، و تأثر به تأثرا شديدا، وأخذ منه القصيدة وسلمها إلى أحد ضباطه، ليعرضها عليه عند الفراغ، رجع الملك للفور من رحلة الصيد، واستدعى الوزير وأخبره بأنه يبقى في القصر لثلاثة أيام ويستريح، وأمره بألا يعرض عليه شيئا من الأعمال في هذه المدة، وأن يباشر هو جميع أعماله.

دخل الملك في القصر ثم ركب في ظلمة الليل على ثور قوي سريع، ورحل بمفرده إلى كنبايه وهي تبعد عن النهرواله ٤٠ فرسخا إلا أن الملك استطاع أن يقطع هذه المسافة الطويلة في ليل ويومه، ووصل إليها متزيا بزي التاجر، وطاف في الأزقة والمحلات، وحقق وتأكد من الحدث، وأنصت إلى حديث المارة، وسمع من على ألسنة جميع الناس أن المسلمين مظلومون ومضطهدون وقتلوا من غير جريمة ارتكبوها.

وعندما تأكد من الحدث بجميع أجزائه، ذهب إلى البحر وملأ أبريقا بمائه، وحمله معه إلى عاصمته على ثوره في رحلة استغرقت ٢٤ ساعة.

وفي اليوم التالي عقد مجلسه وسمع إلى مرافعات الناس ومظلماتهم، وطلب معهم إمام المسجد، وأمره بأن يرفع قضيته، فلما رفع الإمام قضيته كذبه الأمراء والوزراء الهندوس، واتهموه بتزوير القضية. فأمر الملك بإحضار الإبريق وطلب منهم جميعا أن يشربوا منه شربات، فالذي اغترف منه غرفة لم يستطع أن يستسيغه، وأعلن أن الماء ماء البحر العجاج. فقال الملك بما أنني ما كنت أثق

بأي واحد في هذه القضية لما يوجد من أثر لاختلاف الدين في مثل هذه القضايا فإني سافرت بنفسي وقمت بالتحقق من الأمر، وقد ثبت لي أن هؤلاء المسلمين مضطهدون ووقع عليهم الظلم، ولا يمكن أن يقع مثل هذا الظلم على أي جماعة تعيش في ظل حكومتي. ثم أمر بمعاقبة من ارتكب هذه الجريمة من البراهمة والمجوس وبتعويض المسلمين مئة ألف بالوترا (وكانت عملة مملكة الكجرات) ليقوموا بإعادة بناء المسجد ورفع منارته، و خلع على الإمام خلعا كثيرة. ومن ثم بني المسجد مجددا، ووضعت هذه الخلع والهدايا في المسجد تذكارا لهذه الواقعة وهي تعرض على الجمهور يوم العيد كل سنة.

يقول محمد العوفي:

"ما زالت هذه الأشياء موجودة حتى الآن (عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) كما كان المسجد القديم ومنارته قائما إلا أنه لم يمض إلا قليل على أن هجم جيش بالو (أو بالا) على منطقة مملكة الكجرات فدمر المسجد، فقام سعيد بن شرف (أحد من التجار العرب) ببناء المسجد على نفقته، وبنى أربع قبب ذهبية على جوانبه الأربعة، ولا يزال هذا التذكار الإسلامي قائما في هذا البلد الهندوسي".

فكرة وحدة الوجود في المسلمين

كانت فكرة وحدة الوجود موجودة بشكل أو بآخر في كل شعب من الشعوب. كان بعض الفلاسفة اليونان يعتنقون هذه الفكرة كما كانت الفرقة الأفلاطونية الجديدة المتواجدة في الإسكندرية تقول بها، وكانت اليهود والنصارى القدماء هم الآخرون يؤمنون بهذه الفكرة. وأما فيدانت الهندوسية فهي قائمة بأكملها على نفس هذه الفكرة كما أن الدعوة المتحمسة إليها توجد

عند بعض الصوفية المسلمين أيضا وإن كانت فكرة وحدة الوجود نفسها تحمل كثيرا من المعاني وأوّلت تأويلات كثيرة إلى أن أصبحت حسب بعض تأويلاتها تطابق وترادف معنى التناسخ والحلول.

وعلى كل حال، فنحن لا نتعرض لحقيقة القضية هنا بل لا يهمنا منها إلا أن نتكلم عنها من الناحية التاريخية.

فكثيرا ما طرح السؤال من أين دخلت هذه الفكرة على المتصوفة من المسلمين؟ أما ما استطعنا أن نحقق في هذا الموضوع فهو أننا لم نجد دليلا على ثبوت ترجمة الفيدانت الهندوسية إلى اللغة العربية بالرغم من أن هذه الفكرة موجودة في المسلمين منذ أواخر القرن الثالث أي من عصر حسين بن منصور الحلاج[1]، ويبدو أنها استكملت عناصرها منذ عصر محي الدين بن عربي في القرن الخامس للهجرة.

(١) هو الحسين بن منصور بن محمى، الملقب بالحلاج. أبو مغيث. فيلسوف متصوف، بعض المؤرخين يعده من الزهاد المتعبدين، وبعضهم يعده من الزنادقة الملحدين، ولكل منهم فيه أقوال. كان جده محمى مجوسيا وأسلم. أصله من مدينة (البيضاء) بفارس، ونشأ بواسط وانتقل إلى البصرة وحج وأقام بمكة مدة ثم عاد إلى بغداد ومنها انتقل إلى مدينة (تستر) بالأهواز. ظهر أمره سنة ٢٩٩هـ فاتبع بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان، ثم كان يتنقل من بلد إلى بلد وينشر طريقته سرا. وكانت تروى عنه أمور تعد من الخوارق. يقول الذهبي في كتابه (العبر في خبر من غبر): إن الحلاج صحب سهل التستري والجنيد وأبو الحسين النوري، وهم من أئمة الصوفية، ثم فتن فسافر إلى الهند وتعلم السحر، فحصل له حال شيطاني وهرب منه الحال الإيماني، ثم بدا منه كفر أباح دمه وكسر صنمه. وقال عنه أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي في كتابه (المنتظم): أفعال الحلاج وأقواله وأشعاره كثيرة، كان يتكلم بكلام الصوفية فتبدو كلمات حسان، ويدعي أنه يحيي الموتى وان الجن يخدمونه وأنهم يحضرون إليه ما يشتهي. ولما رفع أمره إلى الخليفة المقتدر أمر أبا الحسن علي بن أحمد الراسبي، ضامن خراج=

ولا شك أن المتصوفة من المسلمين تأثروا بفكرة فيدانت الهندوسية بعدما دخلوا الهند[1] و لكن التصوف الإسلامي يبدو متأثرا بهذه الفكرة من ذي قبل، علما بأن محي الدين بن عربي هو أول شخص دعا إلى هذه الفكرة، ودافع عنها بكل حماس وعاطفة، وكان من أهل الأندلس ولم يسنح له أبدا أن يطلع على الفلسفة الهندوسية. ولذلك يعتقد أنه لم يكن متأثرا بالفيدانت الهندوسية بل بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة.

= الأهواز، أن يأتيه به فقبض عليه مع غلام له وحمله إلى بغداد سنة ٣٠١هـ، فصلب على جذع شجرة، ثم سجن وظل مسجونا ثماني سنين، ثم عقد له مجلس من القضاة والفقهاء، فشهد عليه أناس بما يدينه بالزندقة والإلحاد فصدر الحكم بقتله وإحلال دمه، كانت عقيدته الصوفية تقوم على (وحدة الوجود) أي أن الإنسان، وهو خلق الله تعالى مندمج في ذات الله، فهو والله شيء واحد. ولا يمكن للإنسان أن يرى صورة الله في نفسه إلا بمحبته محبة العاشق للمعشوق، وهو حب روحي ووجداني، لا يرقى إليه الإنسان ولا ينعم به إلا إذا تخلى عن لذاته وشهواته المادية، فإذا بلغ هذه المرتبة انكشفت له الحجب ورأى ما لا يراه المبصرون.. كتب عدة مصنفات ذكرها صاحب الفهرست ومنها كتاب (طاسين) أو (الطواسين) وكتاب (الظل الممدود والماء المسكوب) وكتاب (خلق الإنسان والبيان) وكتاب (التوحيد) وكتاب (النجم إذا هوى) وكتاب (مدح النبي) وكتاب (الصلاة والصلوات) وكتاب (اليقين) وغير ذلك من الكتب.

المراجع

ابن الأثير ٨ / ١٢٦ ، ١٢٩. الفهرست ص / ٢٦٩ ، ٢٧٢. البداية والنهاية ١١ / ١٣٢ ، ١٤٤. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع عشر ٢ / ٤٦ ، ٥٣. طبقات الصوفية ص / ٣٠٧. وفيات الأعيان ٢ / ١٤٠. العبر ٢ / ١٣٨. المنتظم ٦ / ١٦٠ ، ١٨٩. النجوم الزاهرة ٣ / ١٨٢ ، ٢٠٢. شذرات الذهب ٢ / ٢٣٣. تاريخ بغداد ٧ / ١١٢ ، ١٤١. الأعلام ٢ / ٢٨٥. تكملة تاريخ الطبري ص / ٣٣ ، ٣٨. دائرة المعارف الإسلامية: (الحلاج).م كتاب جوك بشت إلى الفارسية على عهد دار بعنوان "السر الأكبر".

(١) تمت ترجمة كتاب "أمرت كند" السنسكريتية على يد مسلم جديد و عالم صوفي في القرن الثامن باللغة العربية بعنوان عين الحياة، ثم نقل منها إلى الفارسية و منها إلى الأردية، كما ترجم كتاب جوك بشت إلى الفارسية على عهد دار بعنوان "السر الأكبر".

وأما حسين بن منصور الحلاج فيمكن أن يقال بأن فكرة وحدة الوجود التي كان يعتقدها ويدعيها ليست فكرة وحدة الوجود التي كان يحملها المحتاطون من المتصوفة المسلمين، بل كان هو أصلا يقول بعقيدة التناسخ الهندوسية كما جاء مفصلا فيما ذكره القدماء ممن كتبوا في أحواله وكما يثبت من كتابه هو أيضا (كتاب الطواسين) كما أنه من الثابت أيضا أنه جاء إلى الهند ليتعلم السحر والشعوذة الهندية - أو كما يقول بعض الناس - ليقوم بنشر مذهبه و الدعوة إليه، و لذلك لا يستغرب أن يكون قد حمل هذه الفكرة من الهند إلى العراق[1].

الوحدة التنزيهية عند الهندوس

وعلى عكس ذلك توجد دلائل و قياسات يثبت منها أن فكرة الوحدة التنزيهية والنفور من الوثنية عند الهندوس هي من آثار الإسلام. وهذا الموضوع بذاته يحتاج إلى فصل مستقل، ولا يمكن أن نتعرض له ونؤدي حقه حق أداء ضمن موضوع آخر.

خاتمة

ففي هذه الصورة التي قدمناها للعلاقات الدينية بين العرب والهندوس في هذه الصفحات القليلة هل تجدون فيها شيئا يفسد الود بين الشعبين رغم كونهما متعصبين لأديانهما؟ ألا يمكن أن يحدث الآن ما حدث فيما سبق من الأزمان.

(١) قام بنشر كتاب الطواسين لحسين بن منصور الحلاج الصوفي المستشرق لوي ميسنيون عام ١٩١٤م من باريس، و ألحقه بمجلد مستقل بأحواله وسيرته، و هذا هو الكتاب الذي يحتوي على سفر حسين بن منصور إلى الهند، فيما نقله من مقتبسات كتاب ابن باكويه للصوفي الشيرازي.

الباب الخامس

المسلمون في الهند (قبل الفتوحات)

اعتمدنا في استخراج هذه المعلومات بالإضافة إلى الكتب التي سبق ذكرها على الكتب الفارسية في تاريخ السند أيضا، وهذه الكتب مع الأسف الشديد ما زالت مخطوطة، ولم تر النور حتى الآن، مطوية في المكتبات المختلفة، إلا أن السيد أيليوت قد أورد مقتبسات لازمة منها في المجلد الأول من تاريخه، وهي التي أمامي، وهذه الكتب تلي أسماؤها فيما يلي:

ججنامة:

وهو أقدم كتاب في تاريخ السند باللغة العربية، وكان يسمى "تاريخ السند والهند"، وقد نقله إلى الفارسية محمد علي بن حامد بن أبي بكر الكوفي في عصر ناصر الدين قباجة وذلك عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، أثناء إقامته في السند. وأما الأصل العربي لهذا الكتاب فقد أكلته صروف الدهر[1]، غير أن معظم ما جاء في هذا الكتاب تؤيده الكتب التاريخية العربية القديمة إلا ما ورد عن وفاة محمد بن القاسم واعتقال بنت الملك داهر فهو قصة لا أساس لها من الصحة والواقع.

تاريخ المعصومي:

هذا كتاب في تاريخ السند قام بتأليفه المير محمد المعصوم على عهد الإمبراطور المغولي أكبر عام ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م.

---

(١) سبق أن ذكرنا أن هذا الكتاب الفارسي نقل إلى اللغة العربية مرة ثانية بعنوان فتح السند.

تاريخ الطاهري:

هذا أيضا كتاب في تاريخ السند قيده المير طاهر بن سيد حسن القندهاري أثناء إقامته بالسند عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م.

بيغ لارنامة:

تم تأليف هذا الكتاب وأهدي إلى الملك قاسم خان بن سيد قاسم بيغ ما بين ١٠١٧هـ - ١٠٣٦هـ/ ١٦٠٨م - ١٦٢٦م.

تحفة الكرام:

وهذا آخر كتاب ألفه السيد علي شير ما بين ١١٨١هـ/ ١٧٦٧م).

إن المعلومات التي تتضمن هذه المحاضرة يجب أن نذكر بصددها كتابين بصفة خاصة باللغة الأردية أيضا.

١) تاريخ السند للسيد العلامة عبد الحليم شرر اللكنوي، والذي قام بتأليفه العلامة عام ١٩٠٩م، وضمنه معلومات من المجلد الأول لتاريخ السند للسيد أيليوت وما توصل إليها من معلومات من خلال تحقيقاته الشخصية، وهو كتاب مبسط في مجلدين في تاريخ السند الإسلامية. يتضمن هذا الكتاب جميع المعلومات الضرورية إلا أنه يحتاج إلى ترتيب جديد. ثم اعتمد العلامة في كتابه هذا على السيد أيليوت أكثر من اللازم، وقاس في حل بعض المشاكل أقيسة لا تصح عندي كما سيجيء فيما بعد. كما أنه لم يورد في الإحالات أرقام الصفحات والمجلدات والأبواب، ولذلك أصبح من الصعب جدا توثيق المعلومات والتصديق بالوقائع.

٢) الكتاب الثاني الذي يجدر بالذكر هو الترجمة الأردية التي قام بها السيد

بير زاده محمد حسين الدهلوي للمجلد الثاني لرحلات ابن بطوطة والذي يتضمن معلومات عن الهند. وأهم ما في هذا الكتاب تعليقات المترجم على الأمكنة والأشخاص التي ذكرها ابن بطوطة، وهي مبنية على الترجمة الإنجليزية والتحقيقات الشخصية.

إن كتب تاريخ الهند التي يتم تدريسها في المدارس والكليات عندنا إنما تدرس خدمة لغرض معين. وتحقيقا لنفس الغرض تؤلف الكتب في تاريخ الهند باللغة الإنجليزية.

يعرض تاريخ الهند القديمة في هذه الكتب كأنه جزء من تاريخ الفاتح الإسكندر وخلفائه. فبهذه الغزوة تغيرت أوضاع الهند، ودخلت في عالم العلم والثقافة، وجعل لها مكان في عالم التاريخ. فكأن التاريخ القديم للهند ليس إلا البحث والاستكشاف عن الطرق - واحدا بعد آخر - التي دخل منها الإسكندر وقام منها بحملاته على الهند، وتصحيح الأسماء اليونانية المشوهة، وترتيب ما تفوهوا بها من بيانات مشوهة موضوعة وتقديمها وتنسيقها. ولكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم عندما يقومون بتأريخ العلاقات بين الهند والإسلام فلا يتجاوزون سطورا. يكتبون أحوال العرب الوحشيين في سطور، ثم يذكرون النبي المتعطش للدماء (نعوذ بالله من ذلك)، والهجمات المتواصلة التي يقوم بها خلفاؤه، لكي يصلوا في صفحة أو صفحتين إلى غزنة مباشرة من البلاد العربية، حيث يجدون جيش السلطان محمود جاهزا، وقد استكمل استعداداته للجهاد ضد الهند، فينزلون به فورا في البنجاب والسند ومملكة الكجرات، حيث يقوم الجيش بالسلب والنهب والقتل والدمار ويعود إلى قاعدته، ثم يعودون بشهاب الدين الغوري بعد قرن ونصف إلى الهند، ومنذ ذلك الوقت يبدؤون تاريخ الهند في القرون الوسطى.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بشدة هو أن حدود اليونان تتصل بالهند رغم هذا البعد الشاسع والمسافة الطويلة بين البلدين، ولكن ألم تكن تتصل الحدود بين الهند وأفغانستان من جهة، و بين السند ومكران من جهة أخرى رغم هذا القرب الشديد والمسافة القصيرة؟ ألم تقم بين هذه البلدان أية علاقات للحرب والمصالحة والسلم؟ ألم تكن هذه العلاقات موجودة قبل دخول القبائل الحدودية في الإسلام؟ أليس من الضروري أن نحقق فيها ونربط السلاسل المقطوعة بعضها ببعض ونتوصل إلى الاستنتاج؟

يبدو من دراسة هذه الكتب والنظر في هذه التواريخ أن أي فرد من المسلمين "الأنجاس" لم يضع قدمه على هذه الأرض "الطاهرة" قبل دخول الملك محمود الغزنوي، ولم يكن بين الهندوس والمسلمين أي نوع من العلاقات ولا التعارف ولا التواصل فيما بينهم. والواقع أن الذي قرأ الصفحات السابقة يعلم علم اليقين أنه كانت هناك علاقات متعددة ومتنوعة بين الشعبين في مجالات ومناح مختلفة.

كانت بين الهند و بلاد ما وراء جبال خيبر علاقات مستمرة للحرب والسلم منذ الأبد. وكانت الأوضاع في هذه البلدان قبل الإسلام على نحو أنه كلما حصلت القوة للملك كابل شاه استولى على "ويهندار" إلى "بيشاور"، وكلما سنحت الفرصة لراى لوهاور وسع حدوده إلى كابل وقندهار. وكانت هذه هي الحال من جهة السند. كان الإمبراطور الفارسي يستولي على مكران إلى نهر السند أحيانا كما كان ملك السند يستولي على بلوشستان ومكران إلى أن يصل حدوده بحدود إيران أحيانا أخرى، واستمر الوضع على هذا المنوال حتى القرن السابع للميلاد.

وعندما بدأت الفتوحات الإسلامية تتقدم إلى هذه الجهة وبدأت القبائل والشعوب في هذه البلاد يدخلون في الإسلام، قامت فيها أول حكومة إسلامية وهي السلطنة السامانية التي اتخذت من بخارا عاصمة لها، إلا أنه لم تتجاوز الفتوح حتى في هذا العهد حدود كابل. ثم خلفتها الحكومة الصفارية التي قامت لمدة قصيرة جدا، وتقدمت قليلا، وجاوزت كابل وقندهار، وإليها كانت الخلافة العباسية قد سلمت حكومة السند التي كانت حكومة اسمية، ثم قام ألبتكين وهو ضابط تركي من ضباط الحكومة السامانية بتأسيس حكومة مستقلة بعيدا عن حدود الحكومة السامانية ليكون بمنجى من هجمات مولاه العسكرية، وعقابه في هذه المنطقة البعيدة النائية، وكان ذلك في أواسط القرن الرابع للهجرة. و هذه هي الحكومة الغزنية التي صار السلطان محمود رئيسها الثاني أو الثالث، وقام خلال مدة حكومته التي امتدت لثلاثة وثلاثين عاما بهجمات وغزوات عسكرية متتالية غير متناهية في جميع ما جاور غزنين من بلاد وحكومات، سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة، وأجبرها على الخضوع والانصياع لحكومته الصغيرة التي ورثها. وهكذا أسس حكومة عظيمة وإمبراطورية كبيرة، فقام بإخضاع حكومة كاشغر الإيلخانية المجاورة لغزنين من جهة، والحكومة السامانية وهم كانوا أولياءه من جهة أخرى، وحكومة الديالمة، وحكومة آل زيار في طبرستان من جهة ثالثة، وأراضي الغوريين في الشرق، والذين لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام حتى الآن ولا خضعوا لحكومة ما، ثم الحكام العرب في السند والملتان من جهة الشرق ثم بعض الملوك في لاهور والهند وأدخل كلها في الحكومة الغزنوية. وكانت كل هذه الحكومات المفتوحة تابعة للمسلمين غير حكومتي الهند وغور.

وبما أن التفاصيل لا تدخل فيما أنا بصدده فإنني أكتفي بما سردت من بيان موجز لربط الكلام، و أدعو مؤرخي الهند أن يبحثوا في تاريخ علاقات الهند وأفغانستان قبل السلطان محمود الغزنوي، ويجمعوا معلومات ويخرجوا بنتائج جديدة للقراء.

يتبين من التفاصيل التي أوردناها فيما سبق أن المواجهات والمناوشات بين المسلمين الداخلين من جبال أفغانستان، والملوك الهندوس لم تكن نتيجة نابعة عن عاطفة دينية محضة، لكنها كانت سلسلة من نفس الحروب والمواجهات القومية التي كانت قائمة منذ قرون.

وعلى كل حال، فقد كان هذا الوضع خاصا بشمالي الهند. وأما في جنوبي الهند فكان الوضع فيه مختلفا عنه تماما، حيث غزا السلطان محمود الغزنوي عام ٣١٦هـ/ ١٠٦٤م، وشهاب الدين الغوري عام ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م، وقطب الدين الأيبك عام ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م، مملكة الكجرات، ودخلوا فيها كسحابة صيف، إلا أنه بعد قرن من الزمان مهد ما كان بين الملك باغيله ووزيره مادهو من عداوات، وما نتج عنها من دعوة للغزو، مهّد السبيل أمام السلطان علاء الدين الخلجي للاستيلاء على مملكة الكجرات عام ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م لأول مرة، ففتح علاء الدين الخلجي جميع المناطق الساحلية من مملكة الكجرات إلى المعبر (كارومندال) غير أن هذه الفتوحات كانت كالسفينة التي تمخر عباب مياه البحر ولا تكاد تتقدم خطوة إلا وتتصل المياه ورائها مرة ثانية، ويبدو كأن شيئا لم يحدث. فلم تكن هذه الفتوحات إلا جولات عسكرية للضابط الخلجي وليس غير.

قام الملك كافور وكان ضابطا عسكريا في جيش السلطان علاء الدين الخلجي بفتح كرناتك عام ٧٠٩هـ١٣٠٩//م، إلا أنه قامت بعد ذلك حكومة

هندوسية عظيمة في بيجانكر عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م، واستمرت قرونا عديدة في حماية جنوبي الهند من حملات المسلمين الغزاة من شمالي الهند، إلى أن انهارت الحكومة الصغيرة الإسلامية التي كانت قدقامت أثناء فتوحات الملك كافور في المعبر (كارومندال) هي الأخرى بعد أربعين سنة وتلاشت في حكومة بيجانكر.

لكن بعيدا عن هذه الحروب والمناوشات، كانت في هذه المناطق مستعمرات للمسلمين العرب والعراقيين الذين كانوا لم يدخلوا المناطق الجنوبية من الشمال برا، بل كانوا نزلوا هنا عن طريق سواحل البحر، واستعمروا هذه المناطق وكانت لهم رحلات متواصلة فيها.

من الواضح أن مستوطنات المسلمين قامت في جنوبي الهند قبل شمالها، وهي في الواقع بسبب ارتباطها بالرحلات والنشاطات التجارية، فلم يستوطن هذه المناطق المسلمون من الخارج فحسب، بل بدأ أهلها هم الآخرون يدخلون في الإسلام، وأما السبب الذي أدى إلى ذلك فتروى له روايات مختلفة، وهي مسجلة في كتب التاريخ والرحلات. والقدر المشترك فيها أن ذلك كان نتيجة عاملين أساسيين: أولهما رحلات التجار العرب، وثانيهما كرامة الصوفية والفقراء الزائرين لأثر القدم.

سرانديب: المركز الأول للمسلمين

كتب صاحب تاريخ فرشته:

"لما أن العرب كانوا يرحلون كتجار إلى هذه الجزر حتى قبل أن يظهر الإسلام كما أن أهل هذه الجزر كانوا يرحلون إلى العرب، فإن ملك سرانديب

كان أول من اطلع على الإسلام والمسلمين، ودخل في الإسلام في عهد الصحابة الكرام أنفسهم ﵃"(١).

وبالرغم من أنه لم يذكر المصادر التي أخذ منها هذه المعلومات إلا أن مؤلفا قديما وهو "عجائب الهند" الذي ألف عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م تقريبا يؤيد روايته هذه، يكتب بزرك بن شهريار الذي كان ملاحا في هذه الجزر في وصف سرنديب، يقول:

"عباد الهند وزهادهم عدة أصناف، منهم البيكور، وأصلهم من سرنديب وهم يحبون المسلمين، ويميلون إليهم ميلا شديدا، وهم في الصيف عراة حفاة لا يستترون بشيء، وربما جعل الواحد منهم على سوأته خرقة أربع أصابع في مثل ذلك مشدودة بخيط في الوسط، ويتشحون بالحصر الحشيشة. ومنهم من يلبس الإزار مرقعا من كل لون على لون المرقعة للشهرة، ويلوثون أبدانهم برماد عظام الموتى من الهند الذين أحرقوا، ويحلقون رؤوسهم وينتفون لحاهم وشواربهم ولا يحلقون شعر العانة ولا شعر الإبطين، في الأكثر يقصون أظفارهم، ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت يأكل فيه ويشرب على سبيل الاتعاظ بذلك والتواضع"(٢)..

فهذا التصوير بالإضافة إلى البيانات التي أوردها الرحالون العرب الآخرون في وصف هذه الفرقة لا تدع لنا مجالا للشك في أن هذه الفرقة كانت تعتنق البوذية وتتبعها.

يستأنف هذا الملاح قصته:

(١) تاريخ فرشته ٢/ ٣١١ الفصل الثامن، طبعة نوال كيشور.
(٢) عجائب الهند ٢/ ١٣١.

"وكان أهل سرنديب وما والاها بلغهم خروج النبي ﷺ، فأرسلوا رجلا فهيما منهم وأمروه أن يسير إليه فيعرف أمره وما يدعو إليه، فعاقت الرجل عوائق ووصل إلى المدينة بعد أن قبض رسول الله ﷺ، وتوفي أبو بكر ﵁، ووجد القائم بالأمر عمر بن الخطاب ﵁، فسأله عن أمر النبي ﷺ فشرح له وبين. ورجع فتوفي الرجل بنواحي بلاد مكران، وكان مع الرجل غلام له هندي، فوصل الغلام إلى سرنديب وشرح لهم الأمر وما وقف عليه من أمر النبي ﷺ، وأبي بكر ﵁، وأنهم وجدوا صاحب النبي عمر بن الخطاب ﵁، ووصف لهم تواضعه وأنه كان يلبس مرقعة ويبيت في المساجد. فتواضعهم لأجل ما حكى لهم الغلام، ولبسهم الثياب المرقعة لما ذكره من لبس عمر ﵁ المرقعة، ومحبتهم للمسلمين وميلهم لما في قلوبهم مما حكاه الغلام عن عمر ﵁"(١).

والشاهد الثالث لهذه الرواية يتمثل في أنه لما كان الحجاج حاكم الأمويين في العراق في القرن الأول للهجرة، وكانت السفن ترحل إلى جزر الهند من ميناء العراق نفسه، أرسل ملك سرانديب (كان العرب يسمونها جزيرة الياقوت أيضا) إلى العراق تعبيرا عن صداقته وحبه للمسلمين، فيما أرسل من هدايا، البنات والنسوة المسلمات اللاتي توفي آباؤهن ولا وارث لهن هناك أثناء أعمالهم التجارية كما ذكره البلاذري في فتوح البلدان:

"فأهدى إلى الحجاج في ولايته ملك جزيرة الياقوت نسوة، ولدن في بلاده مسلمات، ومات آباؤهن وكانوا تجارا، فأراد التقرب بهن"،(٢).

وهذا الحدث خير دليل على أن مستوطنات المسلمين في الهند كانت قد

(١) عجائب الهند٢/ ١٣١.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ١/ ٦٨٥.

قامت في سرانديب في القرن الأول للهجرة. وقد ذكر أبو زيد السيرافي (عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) في أواخر في القرن الثالث للهجرة تواجد التجار العرب ورحلاتهم إلى هذه المنطقة[1].

فيمكننا أن نستنتج من هذه الروايات المختلفة أن المستوطنات الأولى للإسلام والعرب في هذه المنطقة إنما قامت في سرانديب، ويبدأ تاريخهم هنا من القرن الأول للهجرة والقرن السابع للميلاد.

المالديف: المركز الثاني للمسلمين

والمركز الثاني للمسلمين والعرب في هذه الأنحاء كان جزيرة المالديف التي كان العرب يسمونها "جزيرة المهل" أحيانا، وكانوا يطلقون علي مجموع الجزر الصغيرة كلمة "الديبات" أحيانا أخرى. وقد فصل ابن بطوطة في ذكر أحوال هذه الجزر أكثر من أي شخص آخر. كانت هذه الجزيرة في عصره أي على عهد السلطان محمد تغلق عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، مسلمة بكاملها، ومعمورة بالعرب والمسلمين المحليين، وكانت تحكمها امرأة بنغالية تسمى السلطانة خديجة، وكان يتواجد هنا كثير من العلماء والملاحين من أهل اليمن وغيرها في عصر ابن بطوطة. فقد وصف ابن بطوطة دخول أهل هذه الجزيرة في الإسلام نقلا عنهم:

"حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمني، والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله وجماعة سواهم أن أهل هذه الجزيرة كانوا كفارا، وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت من الجن يأتي من ناحية البحر كأنه مركب مملوء

(١) رحلة السيرافي ص ٨١.

بالقناديل، وكانت عادتهم إذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها وأدخلوها إلى بدخانة وهي بيت الأصنام، وكان مبنيا على ضفة البحر، وله طاق ينظر إليه منه، ويتركونها هنالك ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة، ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم، فمن أصابته القرعة أعطى بنته.

ثم إنه قدم عليهم مغربي يسمى بأبي البركات البربري، وكان حافظا للقرآن العظيم،..... فدعا وقرأ القرآن فنجا أهلها من العفريت وهذه الآفة،... فشرح الله صدر الملك للإسلام فاسلم وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته"[1].

يقول ابن بطوطة:

«وقرأت على مقصورة الجامع (الذي بناه هذا الملك المسلم) منقوشا في الخشب: أسلم السلطان أحمد شنورازه على يد أبي البركات البربري المغربي»[2].

وما زالت هذه الجزر منذ ذلك الحين مسلمة، يسكنها كثير من العرب الذين اختلطت أنسابهم.

المليبار: المركز الثالث للمسلمين

يثبت من الروايات أن المركز الثالث للعرب والمسلمين هو الطرف الأخير من الهند الذي كان الهندوس يسمونه "كيرالا" قديما، وبدؤوا يسمونها "المليبار" فيما بعد. وقد حده الجغرافيون العرب من نهاية مملكة الكجرات إلى كولم الواقعة في تراونكور.

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٧٨ ـ ٥٧٩.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٧٩.

ونذكر فيما يلي رواية تحفة المجاهدين التي جاءت بصدد ظهور الإسلام في المليبار:

«وذلك أن جمعا من اليهود والنصارى دخلوا بلدة من بلاد المليبار يقال لها كدنكلور وهي مسكن ملكها في مركب كبير بعيالهم وأطفالهم، وطلبوا منه الأراضي والبساتين والبيوت وتوطنوا فيها، وبعد ذلك بسنين وصل إليها جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ قاصدين زيارة قدم أبينا آدم عليه السلام بسيلان، فلما سمع الملك بوصولهم طلبهم وأضافهم وسألهم عن الأخبار فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبدين الإسلام، ومعجزة انشقاق القمر، فأدخل الله سبحانه وتعالى في قلبه صدق النبي ﷺ، وأمر الشيخ بأن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام ليخرج هومعهم، ومنعه أن يحدث بهذا السر للمليباريين، ثم إنهم سافروا إلى سيلان، ورجعوا إليه، فأمر الملك الشيخ بأن يهيء مركبا لسفره من غير أن يعلم به أحد. وكان في البندر المذكور مراكب كثيرة للتجار الغرباء فقال الشيخ لصاحب مركب أنا وجماعة من الفقراء يتوقعون أن يركبوا في مركبك فرضي بذلك صاحب المراكب، ولما قرب وقت السفر نهى الملك أهل بيته ووزراءه أن يدخل أحد منهم عليه مدة سبعة أيام، وعين في كل بلدة من بلدانه شخصا وكتب لكل كتابا مفصلا بتعيين الحدود حتى لا يتجاوز أحد عن حده الذي عينه، والحكاية في ذلك مشهورة عند كفرة مليبار وحدها من الجنوب كمهري ومن الشمال كانجركوت، ثم إن الملك ركب مع الشيخ والفقراء في المركب ليلا، وسار المركب حتى فندرينه ونزل فيها ولبث ثلاثة أيام ومنها سار المركب حتى وصل إلى الشحر ونزل فيها هو ومن معه، وبعد مدة طويلة رافقه جماعة في السفر معه إلى مليبار لعمارة المساجد، وإظهار دين الإسلام فيها، ثم إن الملك مرض

واشتد مرضه، فوصى أصحابه الذين رافقوه وهو شرف بن مالك وأخوه من الأم مالك بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب، وغيرهم بأن لا يبطأوا سفر الهند بعد موته فقالوا: نحن لا نعرف موضعك، ولا حد ولايتك، وإنما أردنا السفر بصحبتك فتفكر الملك ساعة وكتب لهم ورقة بخط مليبار عين فيها مكانه وأقربائه، وأسماء ملوكها، وأمرهم أن ينزلوا في كدنكلور أو درمفتن أو فندرينه أو كولم، وقال لهم لا تخبروا بشدة مرضي ولا بموتي إن مت أحدا من المليباريين، ثم إنه توفي رحمه الله برحمة واسعة. ومن بعد ذلك بسنين سافر شرف بن مالك ومالك بن دينار ومالك بن حبيب وزوجته قمرية وغيرهم مع الأولاد والأتباع إلى مليبار في مركب فوصل إلى كدنكلور، ونزلوا فيها وأعطوا ورقة الملك المتوفى إلى الملك الذي فيها وأخفوا خبر موته فلما قرأها وعلم مضمونها أعطاهم الأراضي والبساتين بمقتضى ما كتبه، فأقاموا فيها وعمروا فيها مسجدا، وتوطن فيها مالك بن دينار وأقام ابن أخيه مالك بن حبيب إلى كولم بماله وزوجته وبعض أولاده وعمر بها مسجدا، ثم خرج منها بعد ما بعدما خلى زوجته فيها إلى هيلي ما راوي، وعمر بها مسجدا، ثم خرج إلى باكنور وعمر بها مسجدا، ثم رجع منها إلى منجلور وعمر بها مسجدا، ومنها إلى درمفتن وعمر بها مسجدا، ومنها إلى كانجركوت وعمر بها مسجدا، منها إلى هيلي ماراوي وأقام بها ثلاثة أشهر، ومنها إلى حرفتن وعمر بها مسجدا، ومنها إلى درفتن وعمر بها مسجدا ومنها إلى فندرينه وعمر بها مسجدا، ومنها إلى شاليات وعمر.......»

«وهذا أول ظهور دين الإسلام في بلاد مليبار، وأما تأريخه فلم يتحقق عندنا، وغالب الظن أنه كان بعد المئتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية، وأما ما أشهر عند مسلمي مليبار أن إسلام الملك المذكور كان

في زمان النبي ﷺ برؤيته انشقاق القمر ليلة وأنه سافر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتشرف بلقياء ورجع إلى شحر قاصد المليبار مع الجماعة المذكورين وتوفي فيها فلا يكاد يصح شيء منها، والمشهور الآن بين الناس أنه مدفون في ظفار لا شحر، وقبره مشهور هنالك يتبرك به، وأهل تلك الناحية يسمون له السامري، وخبر غيبة الملك المذكور مشهور عند جميع أهل مليبار المسلمين، والكفرة إلا أن الكفرة يقولون: عرج به إلى فوق ويتوقعون نزوله»[١].

«وبعد زمان سكن فيها المسلمون ووصل إليه التجار وأصحاب الصنائع من أطراف شتى وكثرت التجارة فيها حتى كبرت وصارت مدينة عظيمة اجتمع فيها صنوف من الناس من المسلمين والكفار....»[٢].

«وكثر فيها سكانها وعمرت بالمسلمين وتجارتهم لقلة ظلم رعاتها مع كونهم وكون عساكرهم كفرة وبرعايتهم عاداتهم القديمة وعدم مخالفتهم لها إلا نادرا، والمسلمون فيها رعايا قليلون لا يبلغون عشر معاشيرهم......... ومع هذا فللمسلمين فيما بينهم حرمة وعزة لأن أكبر عمارات بلادهم بهم»[٣].

هؤلاء المسلمون من التجار العرب والمهاجرين في المليبار هم المشهورون باسم "المابلا" أو "نائت" في الهند والذين كانوا يتحكمون في البحار قبل البرتغال، وقد انضم إليهم من أسلموا من السكان المحليين أوانتسبوا إليهم عن طريق الزواج.

(١) تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٢) تحفة المجاهدين ص ٢٢٩.
(٣) تحفة المجاهدين ٢٤٣.

مدينة كولم

وقد أصبحت مدينة كولم جزءا من مدينة تراونكور الحالية، وكان الملاحون والبحارون العرب يعرفونها من قديم الزمان، وكانوا يقولون:

"والكولم مدينة وهي آخر بلاد الفلفل، وهي على خور من البحر وفيها حارة للمسلمين، وبها جامع"[١]، وكانت السفن تخطف منها إلى عدن.

المعبر أو كارومندال: المركز الرابع للمسلمين

كان العرب يسمون الساحل الموازي للمليبار في مدارس بالمعبر، وهي مشهورة الآن باسم "كارومندل". وكان المعبر معروفا ومشهورا بين العرب الرحالين والتجار العرب بصفة خاصة. وقد ذكره ابن سعيد المغربي في أواخر القرن السادس للهجرة، وبين أنها مائلة شرقا على مسافة ثلاثة أو أربعة أيام من كولم. وسماها زكريا القزويني (عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) "مندل"، ومدح عودها، كما قرّب منها موقع (راس كامران) التي ينسب إليها ذلك العود فيسمى "العود القامروني"[٢]، وذكر أبو الفداء (عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) رأس كامران فسماها "رأس كمهري" وحد المعبر بأنها تقع على مسافة ثلاثة أو أربعة أيام من كولم في شرق المليبار وتبدأ حدودها من شرق كولم". كما في تقويم البلدان، و عاصمتها بيردال وتستورد الخيول من الخارج[٣]".

يبدو أن هذا الجزء من الساحل ما جاء في استخدام العرب إلا بعد عدة

(١) تقويم البلدان ٣٦١.
(٢) آثار البلاد و أخبار العباد ١٢٤.
(٣) تاريخ وصاف، وسنة تأليفه هي ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م كما في المجلد الثالث ص ٤٤.

قرون، حيث لا نجد ذكره إلا منذ أواخر القرن السادس للهجرة. وتظهر صولات وجولات كبيرة للعرب هنا في القرن السابع للهجرة.

كتب وصاف(المتوفى عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م)، ورشيد الدين صاحب جامع التواريخ (المتوفى عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م) كتبهما في أواخر القرن الثامن للهجرة. وكان هذا عصر السلطان جلال الدين فيروز شاه الخلجي في الهند. اتفقت كلمات وصاف ورشيد الدين تقريبا عندما ذكر رشيد الدين:

«تمتد المعبر من كولم إلى سيلوار ثلاثة فراسخ على ساحل البحر، وفيها كثير من القرى والمدن الكبرى، ويسمي أهلها الملك بـ«ديوار»، ومعناه الثري، وتأتي إليها السفن البحرية الكبيرة التي تسمى بـ«جنك» من بلاد الصين وماتشين والسند والهند محملة ببضائع ثمينة وأقمشة غالية، ويأخذون من المعبر الحرير والعود كما تستخرج من بحرها اللؤلؤ بكثرة، وتحمل منتجاتها إلى العراق وخراسان والشام وروما و أوربا، كما أن هذه البلاد تنتج الحشائش العطرة، وتزخر معابدها باللآلي الكثيرة. إن المعبر تشكل مفتاح الهند، وكان يحكمها ديوار يسمى بـ«سمندر» قبل عدة سنوات، وكان قد استقوى مع إخوانه في مختلف المناطق. وكان الملك تقي الدين بن عبد الرحمن بن محمد الطيبي وهو أخو الشيخ جمال الدين وزيرا ومستشارا لهذا الملك، وكان الملك قد فوض إليه إمارة مناطق ملي بتن، وبادل، وبما أن المعبر لم يكن يوجد فيها الخيول فقد تم بينهم الاتفاق على أن جمال الدين إبراهيم يجلب للملك ألفا وأربعمائة حصان قوي من ميناء قيس. فقد كان يستورد سنويا ما يبلغ ١٠٠٠٠ حصان من الخليج الفارسي والموانى الأخرى مثل قطيف والأحساء والبحرين و هرمز وغيرها، وتقدر قيمة كل حصان بما يبلغ ٢٢٠ دينارا ذهبيا. في عام ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م توفي الملك (ديوار) وتوزعت ثرواته على وزرائه ومستشاريه ونوابه،

وقد حصل للشيخ جمال الدين الذي خلفه من الذهب والجواهر ما بلغ حمل ٧٠٠٠ ثور قوي، وتم تعيين تقي الدين نائبا له حسب العقد السابق[1]».

وفي نفس هذا العصر تقريبا، جاء ماركوبولو إلى هذه المنطقة ووجد حكومتها موزعة بين خمسة ملوك هندوس إلا أن النشاطات التجارية كانت بيد المسلمين. وكانت عملية استيراد الخيول ما زالت قائمة حسب السابق، يقول ماركو بولو:

"لا توجد الخيل في هذه البلاد، فيجلب التجار الخيول من موانئ عدن، ونشترى ألفان من الخيول في هذه الممالك الخمس كل سنة، و تقدر قيمة كل حصان بخمسمئة دينار".

هو أيضا ذكر وفرة ثروات اللؤلؤ والمجوهرات هناك.

القتال بين المسلمين دفاعا عن الملك الهندوسي

ثم لم يمض غير قليل حتى خرج السلطان علاء الدين الخلجي بجيشه واجتاح ما كان بين مملكة الكجرات والمعبر من مناطق. وحدث لأول مرة في تاريخ الهند أن المسلمين العراقيين والعرب دافعوا عن ملك المعبر الذي كانت عاصمته بيرادال، وقاوموا الغزاة المسلمين من الأتراك وقاتلوهم قتالا شديدا.

فلقد ذكر أمير خسرو الدهلوي في كتابه "خزائن الفتوح" الذي هو عبارة عن التاريخ المنمق لنفس هذه الفتوحات جميع هذه الأحداث بكل تفصيل وإسهاب[2]،..... فقد ناصر المسلمون ملك "دهول" وفاء بعهدهم، وعلى

(١) من ترجمة جامع التواريخ إليوت ١/ ٦٩-٧٠، وقد ذكر وصاف بتفصيل أكثر في ١/ ٣٢-٥٣.

(٢) خزائن الفتوح، الجامعة الملية الإسلامية، طبعة عام ١٩٢٧م ص ١٥٧ - ١٦٢.

أساس أنها كانت دار أمن بالنسبة لهم. وقاوموا المسلمين الأتراك وأبلوا بلاءً حسنا إلا أن مقاومة الشجعان الأتراك لم تكن أمرا سهلا فهزم الملك، واستولى الملك كافور ضابط السلطان علاء الدين الخلجي على البلاد. وكان يريد أن ينكل بالمسلمين الذين قاوموهم تنكيلا شديدا إلا أنهم نجوا بتلاوة القرآن الكريم وإعلان الشهادة[١].

حدث ذلك عام ٧١٠هـ/ الموافق لعام ١٣١٠م.

غلطة وقع فيها السيد أيليوت

أورد السيد أيليوت في المجلد الثاني من تاريخه خلاصة خزائن الفتوح باسم "التاريخ العلائي"، وذكر فيه ترجمة فقرة من فقرات أمير خسرو ضمن هذه الواقعة:

"بأن هؤلاء المسلمين كانوا أشباه الهندوس وجاهلين بدينهم وشريعتهم"

إلا أن هذا المفهوم غير صحيح إطلاقا.

والواقع أن أمير خسرو بمبالغاته الشعرية وعباراته المنمقة وصف المسلمين لما ارتكبوه من جريمة مناصرة الملك الهندوسي بما لا معنى له، فضلا عن أن يكون ما ذكره أيليوت.

مملكة الكجرات: المركز الخامس للمسلمين

الجبهة الخامسة التجارية للعرب كانت مناطق مملكة الكجرات وكاتهياوار وكوكن التي كان يحكمها "البلهرا" الملك المحبوب لدى العرب الذي كانت

(١) خزائن الفتوح ٣/ ٩٠.

عاصمته الأولى "ولبهي بور" وكانت مدينة كبيرة قرب بهاونجر الحالية، وكان العرب يسمونها الماتكير أو مهانكر دائما.

ويثبت من الاكتشافات والتحقيقات الحالية لقسم الآثار والحفريات أن قطر هذه المدينة كان يمتد لخمسة أميال، وكان بعض ملوكها يدينون البوذية بينما كان البعض الآخرون يدينون بالجينية. ولعل المعاداة بين الاثنتين هي التي أدت إلى تدمير وانهيار هذه المدينة. وكان ميناء الصيمور قد تطور تطورا كبيرا في ظل هذه الحكومة، وكانت دونها موانئ كنبايه وغيرها.

أول تاجر ورحالة عربي أتم تأليف رحلاته عام ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م، وهو سليمان التاجر. مدح سليمان التاجر الملك البلهرا كثيرا، وكتب:

«ويزعم أهل مملكة بلهرا أنما يطول مدة ملكهم وأعمارهم في الملك لمحبتهم للعرب، وليس في الملوك أشد منه حبا للعرب منه، وكذلك أهل مملكته»[١].

وتدل هذه المقتبسات على أنه كانت هناك علاقة ودية وصداقة طيبة بين التجار العرب والمستوطنين الجدد وبين السكان المحليين. وهذا هو السبب في قيام كثير من مستوطنات العرب في مختلف مدنها، وبقيت هذه المستوطنات قائمة إلى وقت متأخر.

وكذلك ذكر بالنسبة لملك الطافن أو داكهن «هو يحب العرب كحب بلهرا»[٢]. ويكتب عن ملوك مملكة الكجرات بالضبط أو ملوك الجزر فيقول

(١) رحلة السيرافي ٣٤.

(٢) رحلة السيرافي ص٣٥.

"وهو عدو للعرب.. وليس أحد من الهند أعدى للإسلام منه"[1].

وعندما كان الملاح بزرك بن شهريار ينزل بسفنه هنا في أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع للهجرة، كانت هناك مستوطنات كبيرة للعرب والمسلمين في هذه المناطق، لقي بزرك بن شهريار ربانا هندوسيا حديث العهد بالإسلام اكتسب ثروات كبيرة بسفنه، وكان قد أدى فريضة الحج أيضا، كما لقي محمد بن مسلم، وهو تاجر من سيراف كان قد أمضى عشرين سنة من حياته في تهانه (قريبة من بومباي)، وزار أكثر مدن الهند وكان مطلعا على جميع الأحوال والأوضاع بالإضافة إلى لقائه مع مسلم من فسا(الواقعة في فارس) اسمه أبو بكر في الصيمور. وأما جوا التي كان العرب القدامى يسمونها "صندا فور" فكان وزير ملكها مسلما اسمه موسى.

هنر مند

هذه كلمة فارسية معناها محترف أو بارع إلا أن العرب استخدموها لمعنى خاص، وقد حذفوا حرف الدال من آخر الكلمة، فيقولون "هنرمن"، ويجعلون منها مصدرا وهو "هرمنه". و تطلق هذه الكلمة اصطلاحا على القاضي المسلم الذي تعينه الحكومات غير المسلمة للفصل في قضايا المسلمين على أرضها".

عندما كان العرب والمسلمون على أوج رقيهم وقوتهم كانت تحصل لهم هذه الامتيازات كما تحصل الآن للشعوب الأوربية في البلدان الأفريقية والآسيوية، حيث لا ترفع قضاياهم ومرافعاتهم إلى محكمة غير محكمة الأوربيين. وهكذا كان حال المسلمين، وكانت تحصل لهم مثل هذه الحقوق في

(١) رحلة السيرافي ص ٣٥.

البلدان غير الإسلامية التي كانوا على علاقة بها أو يترددون إليها. وتوجد دلائل على ثبوت مثل هذه الحقوق للمسلمين في تركستان والروم والصين والهند"[1].. وعلى كل حال، فهذا القاضي أو القنصل أو الضابط المعين من قبل الحكومات غير الإسلامية كان يسمى "هنرمند". وجب على ملك صيمور في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة تعيين "هنرمند" لكثرة ما استوطن العرب فيها. وكان اسم هذا الهنرمند عباس بن ماهان[2].

مملكة البلهرا

جاء المسعودي إلى الهند في بداية القرن الرابع للهجرة، وكان في كنبايه عام ٣٠٣هـ/ ٩١٥م، كما أنه طاف بالإضافة إلى ذلك في مختلف مدن مملكة الكجرات، ويشهد للبلهرا بما شهد له سليمان التاجر قبل ستين أو سبعين عاما، يقول المسعودي:

"ليس في ملوك السند والهند من يعز المسلمين في ملكه إلا البلهرا، فالإسلام في ملكه عزيز ومصون، ولهم مساجد مبنية، وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين. ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين سنة، فصاعدا، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين،......... ويحاربهم ملك الجرز...وهو مبغض للمسلمين،..... ثم يلي هذا الملك ملك الطافن موادع لمن حوله من الملوك وهو مكرم للمسلمين"[3].

(١) كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ٢٧٧.
(٢) عجائب الهند ١٢٤.
(٣) مروج الذهب ١/ ١٧٠.

عدد سكان المسلمين في الصيمور يبلغ ١٠ آلاف

استمر سكان العرب والمسلمين الذين اختلطت أنسابهم في ازدياد في الصيمور، وهي مدينة تابعة لحكومة البلهرا، إلى أن بلغ عدد المسلمين في هذه المدينة وحدها في الوقت الذي جاء فيه المسعودي (عام ٣٠٤هـ/ ٩١٦م) إلى نحو ١٠ آلاف نسمة.

بيسر

الله يعلم ما هذه الكلمة[1]؟ ولكن المسعودي ـ على كل حال ـ فسرها بأنه المسلم الذي ولد في الهند، وجمعها بياسرة.

وهذا نص المسعودي:

"وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك في سنة أربع وثلاثمأة. والملك عليها يومئذ على صيمور المعروف بحاج وبها يومئذ من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين بياسرة وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن في تلك البلاد. وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى بن إسحاق الصندالوني، وعلى الهزمة يومئذ أبو سعيد بن زكريا، و تفسير الهزمة (الهرمنه) يراد به رئاسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه. ومعنى قولنا "البياسرة" يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند[2]".

---

(١) هذه كلمة كجراتية ومعناها صاحب رأسين و تطلق على من اختلط نسله العربي بالهندي.

(٢) مروج الذهب ١/ ٢١٠.

المسلمون في تهانه

في أواخر القرن السادس للهجرة كان ابن سعيد المغربي معاصر السلطان شهاب الدين الغوري يؤلف كتابا في الجغرافية الفلكية في مراكش ومصر عام ٥٨٥ هـ ـ ١١٨٩م، على غرار القانون المسعودي للبيروني. وقد ذكر في كتابه بعض مدن جنوبي الهند، يقول في وصف مدينة تهانه:

"وتانة من الجزرات في الجهة الشرقية منها غربي المليبار قال ابن سعيد: هي آخر مدن اللار مشهورة على ألسنة التجار، و أهل هذا الساحل الهندي جميعهم كفار يعبدون الأنداد، ويسكنون معهم المسلمين[1]".

المسلمون في كنبايه

يقول بالنسبة لكنبايه:

"وكنبايت هي من السواحل الهندية، يقصدها التجار، وفيها مسلمون[2]".

وبعده فورا في عصر السلطان شمس الدين ألتمش ذهب عوفي صاحب جامع الحكايات ربما من السند إلى كنبايه يقول عوفي:

"وبها مسلمون متدينون، ولهم جامع فيه إمام وخطيب، وكان ملك الكجرات الذي كان في النهروالة يعاملهم معاملة طيبة ويعدل وكرم[3]".

---

(١) تقويم البلدان ٣٥٩.

(٢) تقويم البلدان ٣٥٧.

(٣) جامع الحكايات مخطوطة في دار المصنفين بأعظم كره.

من كنبايه إلى الصيمور في القرن الرابع

يقول ابن حوقل الذي سافر من مملكة الكجرات إلى السند في القرن الرابع للهجرة:

"من كنبايه إلى صيمور وهو بلد البلهرا صاحب "كتاب الأمثال"، ويدعى ملكهم باسم ناحيته كما قالوا غانة، وهو اسم الناحية، ويتسمى الملك بها، وكذلك كوغة اسم المملكة واسم من يملكها. والغالب على هذه الناحية الكفر، وفيها مسلمون، ولا يلي عليهم من قبل بلهرا الذي في زماننا هذا إلا مسلم يستخلفه عليهم، وكذلك العادة وجدتها في كثير من بلدان الأطراف..... والمسلمون لا يقبلون أن يحكم عليهم إلا مسلم منهم ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة إلا من في دعوتهم. وإن قل عددهم في بعض الممالك قبلوا من أهل الممالك المشار إليه في العفة، فإن جرحه الخصم، وزكاه المسلمون أمضيت شهادته، وأخذ الحق بقوله من المسلمين.

وببلاد بلهرا المساجد تجمع فيها الجمعات، ويقام بسائرها الصلوات بالأذان في المنار والإعلان بالتكبير والتهليل وهي مملكة عريضة" (١).

من كنبايه إلى المعبر في القرن الثامن للهجرة

إن الانتصارات التي أحرزها الملك كافور في المناطق من مملكة الكجرات إلى المعبر لم تكن غير عاصفة هبت، وذهبت إلا أن راية الفتح العلائي التي رست في البداية والنهاية ظلت مرفرفة، غير أنهما استقل بعضهما عن بعض. وفي جهة ثانية كانت المناطق بين مملكة الكجرات في جهة والمعبر

(١) كتاب صورة الأرض ص ٢٧٧.

في جهة أخرى وهي مئات من الأميال تابعة كالعادة لحكومات الملوك الهندوس. وأما مملكة الكجرات فقد أصبحت مسلمة للأبد مرة ثانية إلا أن المعبر بقيت تحت حكومة حسن كينيلي وخلفائه لأربعين سنة حتى منتصف القرن الثامن للهجرة ثم فتحها ملوك بيجافور.

إن الرحالة المغربي الشهير المدعو/ابن بطوطة الذي زار الهند في هذا العصر نفسه، وكان يتوجه إلى الصين سفيرا من قبل السلطان محمد تغلق، ذهب من دهلي إلى كنبايه، ومنها إلى المعبر التي كانت تنطلق منها السفن إلى الصين.

ذكر هذا الرحالة أحوال المستوطنات المسلمة وحكامها التي لقيها في الطريق كله مما يلقي الضوء على مستوطنات المسلمين في أوطان الهندوس خاصة، وأوضاعهم فيها.

كنبايه

وصل ابن بطوطة مرورا بدولت آباد وصاغر إلى كنبايه التي كانت ميناء كبيرا في مملكة الكجرات. وإن كان هذا الميناء لا يخضع لحكومة دهلي إلا اسميا، لكن البحارين العرب والعراقيين الذين كانوا قد توطنوا هنا من ذي قبل كانوا مسيطرين على النظام والتجارة، وكان هناك كثير من المسلمين العرب والعراقيين والعجم في جميع الأنحاء، وكانت مساجدهم وزواياهم التي بنوها معمورة، يقول ابن بطوطة:

"و هذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد، وسبب ذلك أن أكثر سكانها من الغرباء، فهم أبدا يبنون بها الديار الحسنة، والمساجد العجيبة، ويتنافسون في ذلك، ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري

الذي اتفقت لي معه قضية الحلواء، وكذبه ملك الندماء، ولم أر قط أضخم من الخشب الذي رأيته بهذه الدار، وبابها كأنه باب مدينة، وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه، ومنها دار ملك التجار الكازروني، وإلى جانبها مسجده، ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز"[١].

"وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر،....... وكان بها أيضا من الصالحين التاجر خواجه إسحاق، وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر، وينفق على الفقراء والمساكين، ماله على هذا ينمى ويزيد كثرة"[٢].

كاوي و قندهار

كانت كاوي وقندهار من موانئ البروص، (آئين أكبري). خرج ابن بطوطة من كنبايه فوصل إلى كاوي وقندهار.

يذكر هاتين المدينتين الساحليتين تحت سيطرة الملك جالنسي، إلا أن الملك خاضع للإسلام، يجد ابن بطوطة المسلمين ساكنين هنا، وكثير منهم منسلكون في سلك وزراء الملك وضباطهم. وكان من بينهم الخواجه بهرة والربان إبراهيم الذي كان يمتلك ست مراكب مختصة به، في قندهار هذه ركب ابن بطوطة سفن إبراهيم الربان وإخوانه، وكانت أسماء هذه السفن جاكر ومنورت، وكان يركب هذه السفن خمسون راميا وخمسون من المقاتلة الحبشة[٣].

(١) رحلة ابن بطوطة ص٥٥٠.
(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٥٥٢.
(٣) رحلة ابن بطوطة ٥٢٢.

جزيرة بيرم

كانت بيرم جزيرة صغيرة، تقع على بعد ٤ أميال عن ساحل الهند، (وهي ليست بيرم التي تقع على قرب من عدن). وكان استولى عليها الهندوس أولا، ثم نزعها منهم المسلمون، وقام ملك التجار الكازروني ببناء هذه الجزيرة وتوطين المسلمين فيها في عصر ابن بطوطة[١].

قوقة

قوقة (وهي قريبة من بهاونكر الحالية)، كانت تحت حكومة الملك دنكول، وكانت مدينة كبيرة، عظيمة الأسواق. يجد فيها ابن بطوطة مسجدا ينسب إلى سيدنا خضر عليه السلام،(الذي يعتبره بعض الناس ملجأ الغرقى). كانت تتواجد في المدينة جماعة من فقراء الفرقة الحيدرية، يقول ابن بطوطة:

"رأيت بها مسجدا مسجدا ينسب للخضر و إلياس عليهما اللام، و صليت به المغرب و وجدت جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم"[٢].

صندابور (جندابور)

وصل رحالتنا هذا إلى صندابور التي كان يسميها العرب بسندابور، التي كنت ظننتها سنغافورة يوما بسبب ما فيهما من تشابه لفظي، و لكنها في الحقيقة على مقربة من جوا الحالية. يدخل رحالتنا هنا في دولة يحكمها السلطان المسلم جمال الدين محمد الهنوري، وكان أبوه حسن بحارا، وكان السلطان جمال الدين تابعا للملك هريب (واسمه الصحيح هرير وكان ملك بيجانكر). وكان فيها

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٥٣.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٥٣.

حي خاص بالمسلمين وحي آخر خاص بالهندوس. وكان فيها مسجد شامخ عظيم يضاهي مساجد بغداد في نظر ابن بطوطة[1].

وكانت على مقربة من صنداقور مستوطنة ساحلية صغيرة أخرى، فيها كنيسة من كنائس النصارى، كما لقي ابن بطوطة في أحد معابد الهندوس (بدخانه)هناك جوكيا (راهبا هندوسيا) في الظاهر ولكن صوفيا مسلما في الواقع لم يكن يتكلم إلا بالإشارة[2].

مدينة هنور

وهي المدينة التي يسميها الناس هونور، والتي مازالت موجودة في مديرية كنرا الشمالية على مقربة من بومباي، وهي التي كانت مركزا حقيقيا للسلطان جمال الدين. لقي فيها ابن بطوطة الشيخ محمد الناقوري الذي أضافه في زاويته، وإسماعيل الفقيه الذي كان معلم القرآن الكريم ونور الدين القاضي، وإماما آخر كذلك. و الشيء الذي استغربه فيها ابن بطوطة هو أن التعليم كان شائعا بين النسوة والرجال على السواء، وكانت في المدينة ١٣مدرسة للبنات و٢٣ مدرسة للبنين، وكانت نساء المسلمين في مدينة هنور يلبسن ثيابا غير مخيطة (اللفات / ساري) مثل نساء الهندوس، كانت حياتهم تعتمد على التجارة في البحر، ولا زرع لهم، وصلت ابن بطوطة هدية من الجوكي المسلم ورسالة، يقول ابن بطوطة:

"و في يوم وصلنا إليها جاءني احد الجوكية من الهنود في خلوة وأعطاني

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٥٣.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٥٤.

ستة دنانير، وقال لي: البرهمني بعثها إليك، يعني الجوكي الذي أعطيته السبحة، وأعطاني الدنانير"

وكان السكان المسلمون من متبعي المذهب الشافعي في الفقه مما يدل على أنهم كانوا إما عربا أو أولاد العرب[1].

المليبار

ترسو سفينة ابن بطوطة بعد ما تخرج من هنور في سواحل المليبار، يقول ابن بطوطة:

"وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المليبار، وهي بلاد الفلفل، وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم، والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار، وفي كل نصف ميل بيت من الخشب، فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر، من مسلم وكافر، وعند كل بيت منها بئر يشرب منها، ورجل كافر موكل بها، فمن كان كافرا سقاه في الأواني ومن كان مسلما سقاه في يديه، ولا يزال يصب له حتى يشير له أو يكف.

وعادة الكفار ببلاد المليبار أن لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في آنيتهم، فإن طعم فيها كسروها، أو أعطوها للمسلمين، وإذا دخل المسلم موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوا له على أوراق الموز، وصبوا عليه الإدام، وما فضل عنه تأكله الكلاب والطير.

وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه، ويطبخون لهم الطعام، ولو لا هم لما

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٥٥.

سافر فيه مسلم،.... ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق، فإذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز، والمسلمون أعز الناس بها غير أنهم كما ذكرنا، لا يؤاكلونهم ولا يدخلون دورهم.

وفي بلاد المليبار اثنا عشر سلطانا من الكفار، منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفا، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف، ولا فتنة بينهم ألبتة، ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف، وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته"(١).

مدينة أبي سرور

أول ما يدخل ابن بطوطة هو مدينة يسميها بمدينة أبي سرور، وسماه أبوالفداء في جغرافيته بـ "باسرور". يقول ابن بطوطة:

"وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور، وهي صغيرة على خور كبير، كثيرة أشجار النارجيل، وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بأبي ستة، أحد الكرماء، أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت"(٢).

فاكنور

وصل ابن بطوطة من مدينة أبي سرور إلى مدينة فاكنور، وهي مدينة كبيرة على خور، بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثيل بتلك البلاد.(وهي شهيرة الآن باسم بركور في الضواحي الجنوبية من مدراس وكانت تابعة لحكومة بيجانكر في عصر ابن بطوطة)

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٥٧ ـ ٥٥٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٥٩ ـ ٥٦٠.

يقول ابن بطوطة:

"سلطان فاكنور كافر اسمه باسدو، وله نحو ثلاثين مركبا حربية، وقائدها مسلم يسمى "لولا"، وكان من المفسدين، يقطع بالبحر ويسلب التجار، ولما أرسينا على فاكنور بعث سلكانها إلينا ولده، فأقام بالمركب كالرهينة ونزلنا إليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة تعظيما لسلطان الهند وقياما بحقه ورغبة فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا.

ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه به وإعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها "حق البندر"

وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسن السلاط، وبها قاض وخطيب، وعمر بها حسين المذكور مسجدا لإقامة الجمعة"(١).

منجرور (منكلور)

يرحل ابن بطوطة من هنا وترسو سفينته في منجرور. ويصف ابن بطوطة هذه المدينة بأنها:

مدينة كبيرة على خور يسمى خور الدنب، وهو أكبر خور ببلاد المليبار. وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن" ويسمى ملكهم "رام دو"، وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة، ور بما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته إلى التجار، وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمى بدر الدين المعبري، وهو

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٦٠.

يقرئ العلم. صعد إلينا إلى المركب ورغب منا في النزول إلى بلده... فأبينا عليه إلا إن بعث السلطان ولده، فبعث ولده كما فعل الآخر، ونزلنا عليهم وأكرمونا إكراما عظيما وأقمنا عنده ثلاثة ايام"[1].

هيلي

لا يوجد هنا خور الآن يسمى هيلي، إلا أن ركنا من أركان الجبل على بعد ١٦ ميلا من كنانور يطل على البحر يسمى هيلي (ايلي). يذكر ابن بطوطة:

"وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار، وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين. ومدينة هيلي معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع، فإنه عظيم البركة مشرق النور. وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة، وله خزانة مال عظيم تحت نظر الخطيب حسين، وحسن الوزان كبير المسلمين. وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم، ولهم مرتبات من مال المسجد، وله مطبخ يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ولإطعام الفقراء من المسلمين بها"[2].

يلقى ابن بطوطة هنا فقيرا من مقديشو وكان قد جاب بلاد الصين والهند.

"ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحا من أهل مقديشو يسمى سعيدا حسن اللقاء و الخلق يسرد الصوم..... وسافر في بلاد الصين و الهند" [3].

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٦١.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٦١.
(٣) نفس المصدر.

جرفتن

إنها منطقة في مناطق المليبار ربما تسمى الآن "سري كندابورام". إن المساجد التي بنيت في مختلف مدن المليبار عندما أسلم ملكها في القرن الأول للهجرة كان أحدها في هذه المنطقة أيضا. يذكر ابن بطوطة ملكها:

"وهو يسمى بـ"كويل" وهو من أكبر سلاطين المليبار، وله مراكب كثيرة تسافر إلى عمان وفارس واليمن[1]"،

لقي هنا ابن بطوطة عالما من علماء بغداد كان أخوه تاجرا كبيرا توفي هنا مخلفا ورائه ثروات هائلة. يقول ابن بطوطة:

"لقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر، يعرف بالصرصري،..... و كان له أخ بهذه المدينة كثير المال، له أولاد صغار أوصى إليه بهم، وتركته آخذا في حملهم إلى بغداد، وعادة أهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت، ولا ترك الآلاف، إنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقه شرعا"[2].

ده فتن

هي أيضا تحت سلطة الملك كويل، وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل و التنبول، وبها القلقاص الكثير،... وفيها الباين الأعظم طوله خمسمأة خطوة وعرضه ثلاثمأة خطوة، وهو مطوي بالحجارة الحمر المنحوتة، وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر في كل

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٦٢.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٦٥٢.

قبة أربعة مجالس من الحجر، وكل قبة يصعد إليها على درج حجارة وفي وسط قبة كبيرة من ثلاث طبقات، في كل طبقة أربعة مجالس.

وذكر لي أن والد هذا السلطان كويل هو الذي عمر هذا البابن، وبإزائه مسجد جامع للمسلمين، وله أدراج ينزل منها إليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون.

يقال إن الملك كان مسلما، سمع ابن بطوطة قصة إسلام هذا الملك من أفواه المسلمين هناك.

وهي أنه كانت هناك شجرة في موقع المسجد وكانت تسقط منها ورقة في الخريف مكتوبة عليها كلمة الشهادة، فكان المسلمون والهندوس يتقاسمون هذه الورقة بينهم أنصافا، وكان يشفى بها المرضى فتأثر الملك بهذه الكرامة ودخل في الإسلام، وكان الملك يقدر على قراءة الخط العربي،

يقول ابن بطوطة:

"أخبرت أنه هنالك إذا كان زمن الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة، ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". وأخبرني الفقيه حسين و جماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب الذي فيها، وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر وهم يستشفون بها للمرضى، وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد كويل الذي عمر المسجد والباين...فإنه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن إسلامه وحكايته عندهم متواترة"(١).

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٦٢.

إلا أن ابن الملك لم يسلم بعد وفاته، وأمر باقتلاع الشجرة من جذورها لكنها نبتت مرة ثانية، وكانت هذه الشجرة قائمة على عصر ابن بطوطة، وكان عندها محراب صلى فيها ابن بطوطة ركعتين.

بد فتن

وصلت سفينة ابن بطوطة من ده فتن إلى بد فتن، (وربما كانت هذه مدينة تشاليام وكانت قرب مدينة بي بور الحالية). وهنا أيضا يوجد مسجد من المساجد التي قام ببنائها الملك الذي دخل في الإسلام في القرن الأول للهجرة.

يذكر ابن بطوطة"

"أنها مدينة كبيرة على خور كبير، وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين، لأنه لا مسلم بهذه المدينة، ومرساها من أحسن المراسي، وماؤها عذب والفوفل بها كثير، ومنها يحمل للهند والصين، وأكثر أهلها البراهمة، وهم معظمون عند الكفار مبغضون في المسلمين، ولذلك ليس بينهم مسلم"

وأخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته، فاشتعلت النار في بيته، فاحترق هو وأولاده ومتاعه، فاحترموا هذا المسجد، ولم يتعرضوا له بسوء بعدها، وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير"(١).

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٦٣.

مدينة فندرينا

يخرج رحالتنا من هنا ويصل إلى مدينة فندرينا وهي على مسافة ١٦ميلا شمالا من كاليكوت. يقول ابن بطوطة:

"ثم سافرنا من مدينة بد فتن إلى مدينة فندرينا، مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق، وبها للمسلمين ثلاث محلات، في كل محلة مسجد، والجامع بها على الساحل، وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان، وله أخ فاضل، وبهذه المدينة تشتو مراكب الصين"(١).

كاليكوت (قاليقوط)

يصل رحالتنا هذا الآن إلى الميناء الشهير في المليبار وهو كاليكوت، ويقول:

"ثم سافرنا منها إلى مدينة قاليقوط وهي أحد البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل، وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا".

"و سلطانها كافر يعرف بالسامري، شيخ مسن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم، رأيته بها،... وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين، فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار ويأكلون في سماطه، وقاضيها فخر الدين عثمان، فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين باسم الشيخ أبي إسحاق

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٦٤.

الكازروني، نفع الله به. وبهذه المدينة الناخوذة مثقال الشهير الاسم، صاحب الأموال الطائلة، والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس"(١).

يستقبله نائب الملك والشيخ شهاب الدين وإبراهيم شاه بندر على أنه سفير السلطان محمد تغلق برفع العلم وضرب الطبول. يقول ابن بطوطة:

"ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بندر والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمى بـ"قلاج" ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق والأعلام في مراكبهم(٢)".

يذكر ابن بطوطة عدل الملك فيقول:

"ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط أن ابن أخي النائب عن سلطانها غصب سيفا لبعض تجار المسلمين، فشكا بذلك إلى عمه، فوعد بالنظر في أمره، وقعد على باب داره، فإذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف، فدعاه فقال: هذا سيف المسلم؟ قال: نعم! قال: اشتريته منه؟ قال: لا! فقال لأعوانه: أمسكوه، ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف(٣)".

كانت السفن المتجهة نحو الصين تنطلق من نفس هذا الميناء. واضطر ابن بطوطة أن يمكث هنا شهورا في انتظار الموسم المناسب، وكان وكيل سفينته من سكان بلاد الشام وكان اسمه سليمان الصفدي. وحدث من جراء غلطته أن حملت تجارات ابن بطوطة وأغراضه في السفينة ولكنه تخلف على الساحل عن ركوب السفينة، فسار برا إلى كولم، ليلحق بسفينته هناك.

(١) نفس المصدر.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٦٤.
(٣) رحلة ابن بطوطة ٥٧٠.

مدينة فندرينا

يخرج رحالتنا من هنا ويصل إلى مدينة فندرينا وهي على مسافة ١٦ميلا شمالا من كاليكوت. يقول ابن بطوطة:

"ثم سافرنا من مدينة بد فتن إلى مدينة فندرينا، مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق، وبها للمسلمين ثلاث محلات، في كل محلة مسجد، والجامع بها على الساحل، وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان، وله أخ فاضل، وبهذه المدينة تشتو مراكب الصين"(١).

كاليكوت (قاليقوط)

يصل رحالتنا هذا الآن إلى الميناء الشهير في المليبار وهو كاليكوت، ويقول:

"ثم سافرنا منها إلى مدينة قاليقوط وهي أحد البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل، وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا".

"و سلطانها كافر يعرف بالسامري، شيخ مسن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم، رأيته بها،... وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين، فاضل ذو مكارم، يجتمع إليه التجار ويأكلون في سماطه، وقاضيها فخر الدين عثمان، فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين باسم الشيخ أبي إسحاق

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٦٤.

الكازروني، نفع الله به. وبهذه المدينة الناخوذة مثقال الشهير الاسم، صاحب الأموال الطائلة، والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس"(١).

يستقبله نائب الملك والشيخ شهاب الدين وإبراهيم شاه بندر على أنه سفير السلطان محمد تغلق برفع العلم وضرب الطبول. يقول ابن بطوطة:

"ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بندر والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمى بـ"قلاج" ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق والأعلام في مراكبهم"(٢).

يذكر ابن بطوطة عدل الملك فيقول:

"ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط أن ابن أخي النائب عن سلطانها غصب سيفا لبعض تجار المسلمين، فشكا بذلك إلى عمه، فوعد بالنظر في أمره، وقعد على باب داره، فإذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف، فدعاه فقال: هذا سيف المسلم؟ قال: نعم! قال: اشتريته منه؟ قال: لا! فقال لأعوانه: أمسكوه، ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف"(٣).

كانت السفن المتجهة نحو الصين تنطلق من نفس هذا الميناء. واضطر ابن بطوطة أن يمكث هنا شهورا في انتظار الموسم المناسب، وكان وكيل سفينته من سكان بلاد الشام وكان اسمه سليمان الصفدي. وحدث من جراء غلطته أن حملت تجارات ابن بطوطة وأغراضه في السفينة ولكنه تخلف على الساحل عن ركوب السفينة، فسار برا إلى كولم، ليلحق بسفينته هناك.

(١) نفس المصدر.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٦٤.
(٣) رحلة ابن بطوطة ٥٧٠.

المعبر

عندما وصل ابن بطوطة إلى المعبر كان يحكمها السلطان غياث الدين الدامغاني، وكانت هي نفس الحكومة التي تأسست بعد الفتح الذي أحرزه الملك كافور ضابط السلطان علاء الدين الخلجي. و ربما حدث ذلك عام ٧٤١هـ الموافق لعام ١٣٤١م. وقضى ملك بيجانكر أخيرا على السلطنة الإسلامية في نهاية هذا القرن، وكانت مدينة مدورا عاصمة هذه الولاية[١].

دوار سمندر

في الموقع الذي تقع فيه ولاية ميسور حاليا كانت فيه حكومة سلالة هوسيالا في ذلك الوقت، وكانت عاصمتها دوار سمندر. والملك الذي كان يحكم الولاية حينئذ كان اسمه بلال ديو. ذكر ابن بطوطة:

"يزيد عسكره على مأة ألف ومعه نحو عشرين ألفا من المسلمين أهل الدعارة وذوي الجنايات والعبيد الفارين"[٢].

ولكن من أين جاء هذا العدد الهائل من المجرمين؟ ربما وصفهم ابن بطوطة بهذه الصفات مدفوعا من غضبه عليهم لأنهم كانوا على خلاف ومواجهة مع ملك المعبر السلطان غياث الدين الذي كانت أخت زوجته في عصمته.

بيجانكر

كانت حكومة بيجانكر الهندوسية العظيمة قائمة وممتدة من نهر كرشنا حتى

(١) رحلة ابن بطوطة ٦٠٢.

(٢) رحلة ابن بطوطة ٦٠٤.

ساحل البحر. والعجيب في هذا أنها كانت على عداء دائم وحرب متواصلة مع الحكومة الإسلامية للبهمنيين برا في الوقت الذي كانت علاقاتها وطيدة وجيدة مع الملوك المسلمين من العرب والإيرانيين عبر البحار. وقد بعث ميرزا شاهروخ بن الأمير تيمور بسفارته إليها بقيادة الشيخ كمال الدين عبد الرزاق، الذي قيد بعد رجوعه ما عاين من قوة حكومة بيجانكر وسطوتها ورقيها وتطورها. و قد رواه المؤرخ خاوند شاه في آخر روضة الصفا، و حبيب السير في قسم الجغرافية تحت عناوين "منجرور وكاليكت وبيجانكر".

كان في جيش بيجانكر عشرة آلاف جندي مسلم، وكان الملك يعزهم ويحترمهم لما كانوا يتمتعون به من قوة وتفوق عسكري. وكان قد بنى لهم مسجدا أيضا كما كان القرآن الكريم أيضا ينال الاحترام والتعظيم[١].

(ربما سئمتم من كثرة ما طفتم وجبتم في هذه المناطق النائية، ولكن لا بد أن رأيتم أين وكيف كان المسلمون قد انتشروا في هذه المناطق النائية حتى قبل الفتوحات العسكرية الإسلامية، وكيف كانت علاقاتهم مع جيرانهم وملوكهم الهندوس؟ وكم هي مختلفة عن صورة العلاقات بين المسلمين والهندوس في شمالي الهند؟.

فلنتمتع الآن قليلا بالذكر عن صحراء السند أيضا.)

المركز السادس للمسلمين: السند

قد سبق أن ذكرنا كيف كان العرب قد استولوا على الملتان من الديبل مع نهاية القرن الأول الهجري، ولكن الواقع أن المسلمين كانوا قد استوطنوا قبل

(١) تاريخ فرشته ١/ ٣٣٣.

هذا الفتح بل وحتى قبل الغزو في السند. فقد كان لجأ إلى الملك داهر ملك السند خمسمئة مسلم بقيادة زعيم عربي هاربين من مكران.

فتح محمد بن قاسم السند والملتان في أواخر القرن الأول، ثم ظلت هذه المنطقة جزءا من الحكومة الإسلامية في دمشق أولا، ثم للحكومة الإسلامية في بغداد ثانيا لما يقارب ١٢٥سنة، ثم استقل الحكام العرب بحكوماتهم هنا في القرن الثالث للهجرة لما أصاب الحكومة المركزية من ضعف بعد عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله، وبالتالي استولى الملوك الهندوس على جزء منها في مكان، فأقام المسلمون حكومتهم في مكان آخر، وكان بعض الدويلات المسلمة ما زالت قائمة في السند حتى غزوات السلطان محمود الغزنوي، وكانت اثنتان منها أكبر من الأخرى نسبيا، إحداهما في المنصورة على مدخل السند، و الأخرى في الملتان حيث تنتهي حدود السند، و لقد ذكر الرحالون العرب الذين زاروها حتى القرن الرابع للهجرة أحوال و أوضاع هاتين الدولتين الإسلاميتين، و قد ظهر عشرات من العلماء المسلمين و المحدثين في مدن الملتان والمنصورة والديبل و المدن الأخرى، منهم أبومعشر النجيح السندي الذي كان في القرن الثاني للهجري وكان يعتبر إماما في السيرة وكان من القبول والاحترام أن قام الخليفة العباسي المهدي بإمامة الناس في الصلاة عليه عندما توفي، وكان في نفس العصر الشاعر العربي الشهير أبو عطاء السندي الذي و إن كان لا يقدر على التلفظ الصحيح إلا أن العرب الأقحاح الخلص اعترفوا بجودة أشعاره العربية، و لو ذهبنا نعدد العلماء من هذه الدرجة في هذا المقام لاحتجنا إلى مجلد آخر.

أقام العرب بعد ما فتحوا منطقة السند مستعمراتهم فيها، فاستوطن فيها كثير من القبائل العربية من قريش وكلب و تميم و أسد و القبائل المختلفة من

اليمن و الحجاز في مختلف مدنها، و استمرت حكومتهم حتى القرن الثالث للهجرة من الملتان إلى البحر في شكل من أشكالها إلا أن الحروب الداخلية بين اليمنيين و الحجازيين قضت عليهم و خرجت من أيديهم كثير من المناطق، غير أن دولتين دولتي الملتان و المنصورة قاومتا إلى أن بدأت غزوات السلطان محمود الغزنوي. نذكر أولا أحوال هاتين الدولتين بشيء من التفصيل.

الملتان

سبق أن ذكرنا أن العرب استولوا على سدة الحكم في القرن الأول للهجرة الموافق للقرن السابع الميلادي، وظلت هذه الدولة للعرب منذئذ إلى عصر السلطان محمود الغزنوي، وقد ذكرها الرحالون العرب في القرن الثالث و الرابع، و استمرت مستعمرات المسلمين قائمة فيها أثناء الغزوات و بعد الغزوات التي قام بها السلطان محمود الغزنوي فيها، وكانت الملتان في بداية الأمر تحت يد الأسرة الأموية في دمشق مثل مدن السند الأخرى، و انقلب الوضع بعد ٣٠ أو ٣٥ عاما، و حل بنو عباس محل الأمويين على سدة الحكم الإسلامي عام ١٣٢هـ-٧٤٩م، تحولت عاصمة الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد، و بقيت دولة الملتان تابعة للحكومة العباسية حتى عصر الخليفة العباسي المعتصم بالله حتى القرن الثالث للهجرة، ثم تغير الوضع، ففي الوقت الذي كان الخليفة قويا استطاع فيه أن يحكم سيطرته على هذه المدينة النائية و إلا أعلن الحكام و الولاة استقلالهم بهذه الحكومة، و ظلت الملتان في أيدي حكام و ولاة السند و المنصورة في هذا العصر، ثم استقلت الملتان هي الأخرى عن السند، و أصبحت حكومة مستقلة ذات سيادة، و حدث ذلك في وسط القرن الثالث للهجرة في أغلب الظن.

كولم

مدينة كولم منضمة إلى ترانكور الحالية، يقول ابن بطوطة في وصف مدينة كولم:

"وهي من أحسن بلاد المليبار، وأسواقها حسان، وتجارها يعرفون بالصوليين، لهم أموال عريضة، يشتري أحدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع، و بها من تجار المسلمين جماعة، كبيرهم علاء الدين الأوجي من أهل آوه من بلاد العراق، وهو رافضي ومعه أصحاب له على مذهبه، وهم يظهرون ذلك، وقاضيها فاضل من أهل قزوين، وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر، وله أخ له فاضل كريم اسمه تقي الدين، والمسجد الجامع بها عجيب، عمره الأجر خواجه مهذب،... وسلطانه كافر يعرف بالتيروري، وهو معظم للمسلمين، وله أحكام شديدة على السراق والدعار"[1].

"وأقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني شيخ زاوية قاليقوط"[2].

شاليات

اضطر ابن بطوطة أن يرجع الى كالي كوت من نفس الطريق بعد ما دمرت السفينة. ومكث في شاليات قليلا أثناء السفر. وكانت هذه المدينة على مقربة من كاليكوت، مدح ابن بطوطة صناعة الأقمشة فيها[3]، ثم ذهب إلى هنور ومنها

(١) رحلة ابن بطوطة ٥٦٨ ـ ٥٦٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة ٥٧٠.

(٣) رحلة ابن بطوطة ٥٧٢.

إلى صندافور، فبلغه أن الملك (ربما أراد به ملك بيجانكر) قد انتزع حكومة المدينة من السلطان جمال الدين الهنوري بعد الحرب، ثم ركب من هنا وذهب إلى المالديف.

المالديف

كان في المالديف مستوطنة كبيرة للمسلمين العرب، وكانت تحكمها السلطانة خديجة وقد سبق ذكرها بالتفصيل.

سيلون

خرج ابن بطوطة من المالديف إلى سيلون، وكان ملكها عندئذ يسمى آريا شكرورتي، و كان يمتلك سفنا كثيرة، تتردد إلى اليمن. وكان هذا الملك يفهم اللغة الفارسية، كما كانت سيلون محطة للفقراء من العرب والعجم لما كان فيها من أثر القدم المباركة.

قالي

بعدما طاف وجاب، وصل إلى ميناء سيلون المدعو قالي، ولا تزال السفن تذهب منها إلى أوربا وآستراليا. وكان إبراهيم الربان صاحب السفن في هذا الميناء.

ركب ابن بطوطة على سفينة إبراهيم من كلنبو (كولمبو) وبطالة وعاد إلى المعبر على ساحل الهند مرة ثانية[1].

(١) رحلة ابن بطوطة ٦١٠.

وليس المقصود بالملتان مدينة واحدة بل دولة كاملة وكانت سلطنة كاملة في يوم من الأيام، لقد كتب الوزير المصري المهلبي في القرن الرابع للهجرة:

"أعمال الملتان واسعة من الغرب إلى حد مكران، ومن الجنوب إلى حد المنصورة[1]".

كانت القنوج الواقعة قرب نهر السند جزءا من الملتان عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، حيث يقول المسعودي:

"أن ملك القنوج من ملوك السند بؤورة (وهذا اسم كل ملك يلي القنوج) وهنا مدينة يقال لها بؤورة باسم ملوكهم و قد صارت اليوم في حيز الإسلام وهي من أعمال المولتان[2]". وكانت حينئذ "حول ثغر المولتان من ضياعه وقراه عشرون ومئة ألف قرية مما يقع عليه الإحصاء والعد"[3] في حدود الدولة الإسلامية في الملتان.

كان من عادة السلطنات القديمة وهو من الطبيعي أن تفر الفرق الدينية والمذهبية المخالفة لمذهب الحكومة إلى أقصى مناطق البلاد وآخر حدودها وتلتجئ بها، وكان هذا منطبقا على المجوس الإيرانيين والنصارى الروم، ونفس ذلك حدث للمسلمين العرب أيضا، فقد سبق فيما مضى أن قزدار كانت مستوطنة للخوارج من المسلمين وكانوا هم يحكمونها، كما أن الملتان هي الأخرى كانت قد أصبحت ملجأ للفرقة الإسماعيلية من الشيعة، وقامت لهم حكومة فيما بعد، و كانوا من العرب الأقحاح، ويعتبرون أنفسهم من أولاد سامة بن لؤي.

(١) تقويم البلدان ٣٥١.
(٢) مروج الذهب ١/ ١٦٥.
(٣) مروج الذهب ١/ ١٦٧.

بنوسامة

من كانوا بني سامة؟

يوجد في أجداد قريش شخص اسمه لؤي بن غالب، ومنه انحدر سامة وسمي أولاده بني سامة،[1] ازدهرت هذه الأسرة في عصر الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩ـ٢٨٦هـ/ ٨٩٢م ـ٨٩٩م). وذلك أن الخوارج كانوا بأغلبية في الولاية العربية عمان، فبعث الخليفة محمد بن قاسم للقضاء عليهم فهزمهم، وأسس حكومته في عمان، ونشر مذهب أهل السنة فيها، وكان أول أمير من هذه الأسرة. وظل أولاده مسيطرين على الولاية باستمرار، إلى أن حدثت بينهم حروب أهلية عام ٣٠٥هـ/ ٩١٧م، فاستغلها القرامطة الذين كانوا يرسخون أقدامهم، ويثبتون سلطانهم في البحرين حتى قام أبو طاهر القرمطي عام ٣١٧هـ-٩٢٤م بانتزاع عمان منهم وضمها إلى حدود الحكومة القرمطية.

كانت الرحلات والتجارة البحرية بين عمان والسند قائمة منذ أقدم العصور، وربما كانت علاقة بني سامة بالسند قديمة جدا، فكان أن حكم مولى بني سامة وهو فضل بن ماهان وبعض أفراد أسرته على سندان وهي موضع من السند منذ عصر الخليفة مأمون الرشيد إلى عصر الخليفة العباسي المعتصم بالله عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، حتى نشبت بينهم حروب أهلية أطاحت بهذه الحكومة. كما ورد في تاريخ البلاذري:

"كان الفضل بن ماهان مولى بني سامة فتح سندان وغلب عليها، وبعث إلى المأمون رحمه الله بفيل وكاتبه، ودعا له في مسجد جامع اتخذه بها، فلما

(١) صرح ابن خلدون أن معظم نسابي قريش لا يسلمون بكون بني سامة من نسل سامة بن لؤي، يرجع إلى ابن خلدون للمزيد.١/ ٦٧١.

مات قام محمد بن الفضل بن ماهان مقامه، فسار في سبعين بارجة إلى ميد الهند فقتل منهم خلقا، وافتتح قالى ورجع إلى سندان، وقد غلب عليها أخ له يقال له: ماهان بن الفضل، وكاتب أمير المؤمنين المعتصم بالله، وأهدى إليه ساجا لم ير مثله عظما وطولا، وكانت الهند في أمر أخيه، فمالوا عليه فقتلوه وصلبوه، ثم إن الهند بعد ما غلبوا على سندان فتركوا مسجدها للمسلمين، يجمعون فيه ويدعون للخليفة»(١).

وفي هذا الصدد ليس من المستغرب أن التجأ بنو سامة بعد ما قضي على حكومتهم في عمان إلى السند ومنها إلي الملتان فرارا من حكومة القرامطة، وأكرمهم الله القادر العزيز بالحكومة الجديدة هنا مرة ثانية. وعلى كل حال كان بنوسامة هؤلاء هم أمراء وحكام الملتان، وهم الذين كانوا يسمون ببني منبه نسبة إلى مورثهم القديم، وهم الذين نجد حكومتهم المستقلة في الملتان في نهاية القرن الثالث الهجري.

بنو منبه

يقول ابن رستة وكان عصره ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م في القسم الجغرافي من كتابه الأعلاق النفيسة:

«وبالملتان قوم يزعمون أنهم من ولد سامة بن لؤي وهم الملوك على الهند فيها، وهو يدعون لأمير المؤمنين..... وربما غزا ملوك الهند بني منبه فيخرجون إلى الملتان في جيش عظيم فيقاتلونهم فتغلبهم بنو منبه ليسارهم وقوتهم وكثرة أموالهم»(٢).

(١) فتوح البلدان ١/ ٦٩٧.

(٢) الأعلاق النفيسة ٧/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

ويجيء المسعودي بعده بعشر سنوات عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م إلى الملتان ويقول:

«فأما صاحب المولتان فقد قلنا: إن الملك في ولد سامة بن لؤي بن غالب، وهو ذو جيوش ومنعة وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار، وحول ثغر المولتان من ضياعه وقراه عشرون ومئة ألف قرية مما يقع عليه الإحصاء والعد، وفيه على ما ذكرنا الصنم المعروف بالمولتان، يقصده السند والهند من أقاصي بلادهم بالنذور والأموال والجواهر والعود وأنواع الطيب، ويحج إليه الألوف من الناس وأكثر أموال صاحب المولتان مما يحمل إلى هذا الصنم من العود القماري الخالص.......و إذا نزلت الملوك من الكفار على المولتان وعجز المسلمون عن حربهم هددوهم بكسر هذا الصنم وتعويره، فترحل الجيوش عنهم عند ذلك، وكان دخولي إلى بلاد المولتان بعد الثلاثمأة، والملك بها أبو اللهاب المنبه بن أسد القرشي(١)».

يقدم الاصطخري بعده بأربعين سنة إلى الهند عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م ويقول:

«وأما المولتان فهي مدينة نحو نصف المنصورة ويسمى فَرْج بيت الذهب وبها صنم تعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها ويتقرب إلى الصنم في كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم، وسمي المولتان بهذا الصنم، وبيت هذا الصنم قصر مبنيّ في أعمر موضع بسوق المولتان بين سوق العاجيّين وصفّ الصفّارين، وفي وسط هذا القصر قُبّة فيها الصنم وحوالي القبة بيوت يسكنها خدم هذا الصنم ومن يعتكف عليه، وليس أهل المولتان من الهند والسند يعبدون الصنم وليس يعبده إلا الذين هم في القصر، والصنم على

(١) مروج الذهب ١/ ١٦٧.

صورة إنسان جالس متربع على كرسي من جصّ وآجُرّ وقد أُلبس جميع بدنه جلداً يشبه السّختيان الأحمر لا يبين من جثته شيء إلا عيناه، فمنهم من يزعم أن بدنه خشب ومنهم من يزعم غير ذلك إلا أن بدنه لا يُترك أن ينكشف ألبتة، وعيناه جوهرتان وعلى رأسه إكليل ذهب وهو متربع على ذلك السرير وقد مدّ ذراعيه على ركبتيه وجعل كِلْتا يديه كما يعقد في الحساب أربعة قد لفّ البِنْصِر والوُسطى وبسط الخنْصِرَ والسبّابة، وعامة ما يُحمل إلى هذا الصنم من المال فإنما يأخذه أمير المولتان وينفق على السدنة منه ويرفع الباقي لنفسه، وإذا قصدهم الهند بحرب أو انتزاع البلد أخرجوا الصنم وأظهروا كسره وإحراقه فيرجعون عنهم ولولا ذلك لخرّبوا المولتان، وعلى المولتان حصن منيع، وهي خصبة إلا أن المنصورة أخصبُ منها وأعمر، وإنما سمي المولتان فَرْج بيت الذهب لأنها فُتحت في أول الإسلام وكان بالمولتان ضيق وقحطٌ فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتّسعوا به، قال؛ وخارج المولتان على نصف فرسخ أبنية كثيرة تسمى جندراون وهي معسكر الأمير لا يدخل الأمير منها إلى المولتان إلا يوم الجمعة فإنه يركب الفيل ويدخل المدينة لصلاة الجمعة، وأميرهم قرشيّ من نسل سامة بن لؤي وقد تغلب عليها ولا يطيع صاحب المنصورة ولا غيره إنما يخطب للخليفة"[1].

وبعد الاصطخري بـ ٢٧سنة يدخل ابن حوقل في الملتان عام ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، وقد كتب كثيرا مما يتعلق بالملتان، إلا أنه لم يذكر شيئا عن الباطنيين والإسماعيليين المتواجدين هناك، غير أن هذه المستجدات كانت تجدر بأن تذكر، ثم يجيء المقدسي بعده بثمان سنوات ويقول:

(١) الاصطخري كما في معجم البلدان لياقوت الحموي تحت كلمة المولتان.

"وأهل الملتان شيعة يهوعلون في الأذان ويثنون في الإقامة[1]".

ثم يقول بعد عدد من الصفحات:

"و أما بالملتان فيخطبون للفاطمي، و لا يحلون و لا يعقدون إلا بأمره، وأبداً رسلهم وهداياهم تذهب إلى مصر[2]".

يثبت مما سبق من روايات وبيانات بالإضافة إلى الأحداث الأخرى أن العصر الذي كان فيه ابن رسته وهو ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، ثم في عصر المسعودي لأنه ساكت، وفي عصر الاصطخري وهو عام٣٤٠هـ/ ٩٥١م كانت حكومة هذه المنطقة في أيدي أهل السنة، و كانت الخطب تلقى باسم الخليفة العباسي، وحتى عام ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م لم يحدث على المسرح السياسي شيء يذكر، إلا أن الحكومة تبدو أنها قد تحولت إلى أيدي االاسماعيليين عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، وكانت تحت سلطة وسيطرة الخليفة الفاطمي الإسماعيلي، مما يتضح أن هذا الانقلاب المذهبي للأسرة الحاكمة إنما حدث ما بين عام ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م - ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م.

وهذا التاريخ القياسي أو المظنون يؤيده واقع أن الحكومة الفاطمية هي الأخرى قامت وانتقلت عاصمتها من إفريقيا إلى مصر في نفس الزمن وهو عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م.

كان العالم الإسلامي حينذاك على وشك الانقسام إلى شطرين: حيث كان أهل السنة يعترفون بالخلافة العباسية في بغداد بينما كان الشيعة يسلمون

(١) أحسن التقاسيم ٤٨١.
(٢) أحسن التقاسيم ٤٨٥.

بالخلافة الفاطمية في مصر، وكانت هاتان الحكومتان تبذلان ما في وسعهما من جهود لبسط نفوذهما وإحكام سيطرتهما على مختلف البلدان الإسلامية، وكانت على صراع دائم فيما بينهما، حتى المدينة المنورة ومكة المعظمة لم تكونا سالمتين من هذه المناهضات، وكلما كانت تقوم دولة إسلامية كان دعاة كل واحدة منهما يبذؤون في أعمالهم. وإن كان هذا العصر يتميز بانحطاط الخلافة العباسية وبازدهار الخلافة الفاطمية حيث كانت الخلافة العباسية قد أصابها الشيب وكانت الخلافة الفاطمية تنعم بشبابها إلا أن السلطنات التركية الجديدة التي كانت تتأسس في الشرق كانت تخضع للخلافة العباسية، وكانت الحكومة السامانية في بخارا تحت نفوذهم وسيطرتهم، ثم ظهر الغزنويون في وسط القرن الرابع الهجري وترفرفت رايات السلاجقة بعدهم بأربعين سنة. وكل هذه الحكومات رغم مقدراتهم العسكرية وقوتهم المطلقة استسلمت لسلطان الخلافة العباسية.

مع اشتهار السلطان محمود الغزنوي بادر الخليفة العباسي بإرسال الخلعة الفاخرة إليه ما بين ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م و ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، ولقبه بألقاب(أمين الملة ويمين الدولة)، ثم هجم السلطان على الإسماعيليين في الملتان عام ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م، واستطاع أن يقبض على الأمير القرمطي عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م. و نظرا لهذه الأوضاع بعث الفاطميون في مصر أيضا سفيرهم إلى السلطان محمود الغزنوي إلا أن السلطان أمر بالقبض عليه وهو يظنه من الباطنيين وسلمه إلى السيد حسن بن طاهر بن مسلم العلوي[١] الذي قتله.

(١) وردت هذه الواقعة في زين الأخبار ص٧١، طبعة برلن.

قرامطة الملتان

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل الأسرة الإسماعيلية هي نفس الأسرة العربية السنية ـ وهي أسرة بني منبه ـ التي يسميها الجغرافيون العرب ملوك الملتان حتى عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، وقد تحولت من السنة إلى الإسماعيلية أم هي أسرة أخرى؟

لا نجد إجابة على هذا السؤال فيما عندنا من ذخائر الكتب إلا أن أبا ريحان البيروني الذي ألف كتابه "تحقيق ما للهند" عام ٤٢٤هـ/ ١٠٣٢م، يكتب و هو يسرد تاريخ المعبد الوثني في الملتان:

"فلما استولت القرامطة(الإسماعيلية)على الملتان كسر جلم بن شيبان المتغلب ذلك الصنم وقتل سدنته وجعل بيته وهو قصر مبني من الآجر على مكان مرتفع جامعا بدل الجامع الأول و أغلق ذلك بغضا لما عمل في أيام بني أمية"[١].

مما يدل على أن هذه الأسرة القرمطية التي كانت تغلبت في أواخر القرن الرابع الهجري كانت أسرة أخرى وكان مؤسسها الأول جلم بن شيبان، وكان عربيا كما هو واضح من الاسم، ثم يقول البيروني:

"تقدم وقت ظهور القرامطة أيامنا على أن ذلك حول مأة سنة"[٢].

كتاب الهند هذا تم تأليفه عام ٤٢٤هـ/ ١٠٣٢م، والعام الذي كان قبله بمئة سنة هو عام ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م، ولكنا نعرف بشكل قطعي أن الحكومة هنا كانت

(١) تحقيق ما للهند ٨١.
(٢) تحقيق ما للهند ٨٢.

للأسرة العربية السنية وهي أسرة بني منبه حتى عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، ومن هنا فإن عام ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م،ليس عام استيلاء القرامطة وسيطرتهم على الملتان بل هو عام ظهورهم على سواحل العراق والخليج الفارسي.

والواقع أنه حدث هنا خلط بين أسماء ثلاث فرق إسلامية، وهي القرامطة والإسماعيلية والملاحدة. وبالرغم من أن هذه الفرق الثلاث هي فروع الشيعة الإسماعيلية غير أن هناك فروقا يسيرة بينها، كما تختلف تواريخ نشوئها وظهورها.

ظهر القرامطة أولا في أواخر القرن الثالث الهجري في البحرين والخليج الفارسي ثم ظهروا أخيرا في العراق، وظهرت الفرقة الإسماعيلية في إفريقيا عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م إلا أنها انتقلت إلى مصر عام ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م. وأما الملاحدة التي اسمها الثاني الباطنية والتي كانت فرقة حسن بن صباح فظهرت في خراسان بعد عام ٤٨٣هـ / ١٠٩١م.

كان الخليفة الفاطمي الإسماعيلي الحاكم بأمر الله أسس فرقة أخرى في بلاد الشام اسمها الشهير دروز. و السؤال هو أن الفرقة التي كانت قد سيطرت على الحكم في الملتان كانت شيعية إسماعيلية، ولاشك في ذلك، ولكن من أية فرقة منها كانت؟ أرى أنها كانت من الشيعة الفاطميين الإسماعيليين الذين كان مركزهم في مصر. وأما ما قاله المؤرخون من أنهم كانوا من القرامطة أو الملاحدة / الباطنية فذلك لما يوجد من شبه بين هذه الفرق. والدليل على ذلك هو أن العصر الذي ـ وهو عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م ـ يزدهر فيه هؤلاء في الملتان كان عصر انحطاط وزوال القرامطة. والشيء الثاني أن القرامطة ما كانوا يخضعون للخلفاء الفاطميين في مصر إلا اسميا. ولم يكن أهل الملتان يعترفون إلا لخلفاء

مصر. والشيء الثالث أن المقدسي البشاري الذي كان عالما من علماء الدين لم يعتبرهم من القرامطة بل من الشيعة وتحت سلطة الفاطميين. ثم إن عبارة: حي على خير العمل وإقامة الجمعة، والخطبة هي من الشعائر التي ليست من شعائر القرامطة وهي ثابتة في الملتان من رواية المقدسي. وأما الفرقة الدروزية فهي نتاج عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م إلى ٤١١هـ/ ١٠٢٠م، وهي أعوام متأخرة جدا بينما كانت الباطنية أو الملاحدة وهي فرقة حسن بن صباح ظهرت بعد ذلك بمئة سنة، فوصف بعض المؤرخين إياهم بالملاحدة أو الباطنية خطأ سافر.

ومن المحتمل أن يكون هؤلاء قد ظهروا بوصفهم القرامطة بواسطة بعض القرامطة في عمان والبحرين والخليج الفارسي، ثم اصطبغوا بصبغة الإسماعيلية الفاطمية عند زوال القرامطة، لأن القرامطة أنفسهم كانوا شبيهين نوعا ما / أنصاف الإسماعيلية.

كان الشيخ حميد حسب المصادر التاريخية الفارسية مورث الأسرة الحاكمة في الملتان عندما كان السلطان محمود الغزنوي يقوم بحملاته العسكرية عليها، و لا أدري من أين أخذ فرشتة ما كتب من أن المسلمين الأوائل الذين جاءوا إلى هذا الجانب أثناء الحملات العسكرية على أفغانستان لم يستطيعوا أن يرجعوا إلى موطنهم وبدءوا التزوج والاختلاط في الأسر البتانية القاطنة في جبال خيبر. ومن هذا النسل الخليط العربي والأفغاني انحدرت قبيلتان قبيلة اللودهي وقبيلة سور. وكان الشيخ حميد من نفس هذه القبيلة اللودهية، لكن هذه البيانات لا تقوم على أساس من الصحة مثل غيرها من القصص والأساطير الأخرى عن أصل القبائل.

لم يدخل اللودهيون كلمة الشيخ أبدا على أسمائهم لا وجدت مثل هذه

الأسماء عندهم، بل حتى إسلامهم في ذلك الوقت في محل الشك والارتياب. والواقع أن المؤرخين الإيرانيين لم يكونوا يعرفون شيئا عن التاريخ العربي في الملتان، مما أدى بهم إلى أن يظنوا هؤلاء الرؤساء المسلمين من الأفغان وإلا لم يكن الشيخ حميد يمت إلى الأفغان بصلة، بل من الأغلب أنه كان من أسرة جلم بن شيبان الذي مر ذكره حالا نقلا عن البيروني وأما المزيد فسيأتي فيما بعد.

لقد ورد في تاريخ فرشتة أن ألبتكين وخلفه سبكتكين عندما بدءا حملاتهما العسكرية على الأفغان القاطنين في إقليم سرحد استعانوا بالملك راجه جي بال ملك لاهور. فاستشار الملك ملك بهاتيه، وقرر أنه بما أن الجيوش الهندية لا تقدر أن تتحمل البرد القارس في إقليم سرحد فإنه يجب أن يجلب البتان ويتم توطينهم هنا. ومن هنا أقطع الملك للشيخ حميد اللودهي أراضي لمغان والملتان، فقام الشيخ حميد بتعيين حكامه، وقدم خدمة حماية الهند من حملات ألبتكين العسكرية ما بين أعوام ٣١٥هـ/ ٩٢٧م و ٣٥١هـ/ ٩٦٢م[١]. علما بأن قصة جلب البتان وتوطينهم و نسبة الشيخ حميد إلى الأسرة اللودهية ليست إلا خرافة لا دليل عليها.

وعندما اعتلى سبكتكين العرش بعد الملك ألبتكين عام ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، صالح الشيخ حميد مع الملك سبكتكين نظرا إلى قوة غزنين المتزايدة، ودخل فيمن كان يؤدي له الخراج، ولكن عندما استوى السلطان محمود على عرش غزنين عام ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، ثم عند ما كان يكثف حملاته العسكرية على الملك بجراق، وهو ملك بهاتيه عام ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م، كانت سلطة دولة الملتان في

(١) وردت هذه الوقائع كلها في تاريخ فرشتة طبعة نولكشور ١/ ١٧ـ ١٨.

أيدي أبي الفتح داوود بن نصير بن الشيخ حميد حفيد الشيخ حميد، وقد وصف في المصادر التاريخية الفارسية بالإلحاد والقرمطة الإسماعيلية. ربما أراد أبو الفتح داوود أن ينجو بنفسه نظرا إلى طموحات السلطان محمود الغزنوي العالية باستعانة الملوك الهندوس فتعاون مع الملك بجراق ضد السلطان محمود عند حملاته العسكرية[١].

التزم السلطان محمود الصمت هذه المرة، ولكنه في السنة التالية عزم على أن يعاقب أبا الفتح، وأراد أن يصل إلى الملتان من بيشاور عبر البنجاب بدلا من الطريق المباشر عبر أعالي الملتان، لئلا يطلع أبو الفتح على تحركاته، وتحقيقا لإرادته هذه طلب السلطان من ملك آنند بال ملك البنجاب أن يفتح له الطريق، ليتحرك جيشه إلى الملتان عبر بلاده.

ويروي المؤرخون الآخرون أن أبا الفتح نفسه عند ما سمع بما أراد السلطان استعان بالملك آنند بال، فخرج الملك من لاهور إلى بيشاور ليمنع السلطان محمود غير أن جيش السلطان هزم الملك آنند بال، ووصل عبر بلاده إلى الملتان، فتحصن أبو الفتح، إلى أن تدخل أهل المدينة وتمت المصالحة على أن الخراج المعين سوف يصل من الملتان إلى غزنين باستمرار، وتاب أبو الفتح عن عقائده ووعد بأنه يطبق أحكام أهل السنة في الدولة بدلا من أحكام الإسماعيلية. ثم أعاد السلطان حملاته العسكرية بعد ذلك بعدة سنوات على الملتان عام ٤٠٢هـ/ ١٠١١م، وقضى على الإسماعيلية قضاء تاما، واعتقل داود بن نصير وحمل إلى غزنين حيث أودعه قلعة غور إلى أن وافته المنية[٢].

(١) نفس المصدر ١/ ٢٤ـ٢٥.
(٢) تاريخ فرشتة ١/ ٢٥ـ٢٦.

هذه خلاصة ما كتب فرشتة في تاريخه، ولكن المؤرخ أبو سعيد بن عبد الحي بن الضحاك الكرديزي صاحب زين الأخبار والذي ألفه حوالي عام ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م، على عهد الغزنويين، وفي عاصمتهم بالتحديد كتب ما خلاصته:

"توجه السلطان من غزنين إلى الملتان، وظن أنه لو قصد الملتان مباشرة فربما يصل خبره إلى داود بن نصر أمير الملتان، ويقوم باستعدادات لحماية نفسه، فاختار طريقا آخر، وكان في طريقه آنندبال فطلب منه أن يفتح له الطريق فلم يرض بذلك فقاتله حتى هزم وهرب إلى كشمير.

وصل السلطان إلى الملتان وحاصر المدينة واستمر الحصار لسبعة أيام، إلى أن صالحه أهل المدينة على أن يدفعوا له خراجا يبلغ قدره ٢٠٠٠٠ درهم. وعاد السلطان، وكان ذلك عام ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م،....... ثم لما جاء السلطان من غزنين إلى الملتان عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م، قام بفتح ما كان تبقى من الملتان، وألقى القبض على معظم القرامطة الإسماعيليين هناك وقتل بعضهم، ومثل ببعضهم، ونكل بهم تنكيلا شديدا،..... وفي هذه السنة نفسها اعتقل داود بن نصر وحبسه في قلعة الغور[١]".

إن الكتب التاريخية العربية الموثوق بها لا تقدم لنا إلا قليلا من المعلومات بهذا الخصوص، كما توجد اختلافات في بعض الوقائع، وبالرغم من ذلك يوجد اتفاق وتطابق في بعض أهم أجزاء الواقعة، فقد أورد ابن الأثير في كتابه:

"في هذه السنة (عام ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م) غزا السلطان يمين الدولة المولتان.

(١) زين الأخبار للكرديزي ص ٦٧ ـ ٦٨.

وكان سبب ذلك أن واليها أبا الفتوح نقل عنه خبث اعتقاده، ونسب إلى الإلحاد، وأنه قد دعا أهل ولايته إلى ما هو عليه، فأجابوه. فرأى يمين الدولة أن يجاهده و يستنزله عما هو عليه، فسار نحوه، فرأى الأنهار التي في طريقه كثيرة الزيادة، عظيمة المد، وخاصة سيحون، فإنه منع جانبه من العبور، فأرسل إلى آنندبال يطلب إليه أن يأذن له في العبور ببلاده إلى المولتان، فلم يجبه إلى ذلك، فابتدأ به قبل المولتان،......ففر أنندبال من بين يديه وهو في أثره كالشهاب في أثر السلطان، من مضيق إلى مضيق إلى أن وصل إلى قشمير.

ولما سمع أبو الفتوح بخبر إقباله إليه، وعلم عجزه عن الوقوف بين يديه و العصيان عليه، نقل أمواله إلى سرنديب، وأخلى المولتان، فوصل يمين الدولة إليها ونازلها، فإذا أهلها في ضلالهم يعمهون، فحصرهم وضيق عليهم، وتابع القتال حتى افتتحها عنوة، وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم"[١].

ونفس هذه الوقائع أعادها ابن خلدون في تاريخه[٢].

هذه العبارة المقتبسة تصحح الأسماء في جانب، حيث أنه كان أبا الفتوح وليس أبا الفتح، وهي تدل في جانب آخر على ما كان سببا في الذهاب إلى الملتان عبر طريق البنجاب بدلا من طريق الملتان المباشر، وأما تحويل أبي الفتوح خزائنه إلى سرانديب فهو شيء لا أصل له، وربما لم يكن مؤرخ ذلك العصر يعرف ما بين الملتان و سرانديب من بعد شاسع، ومن الممكن أن يكون في الأصل اسم مدينة أخرى و طبع اسم سرانديب خطأ، وبعد ذلك بالضبط عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، حاول الخليفة الفاطمي في مصر أن يقيم علاقات مع

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/ ١٨٦.
(٢) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٣٦٦ باب سبب غزو الملتان.

السلطان محمود الغزنوي غير أن السلطان رفض ذلك و قتل السفير كما سبق.

وشيء مهم للغاية في هذا الصدد هو جزء من كتاب الدروز المقدس، وكانت الفرقة الخاصة التي كان أنشأها الخليفة الإسماعيلي الحاكم بأمر الله (عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م - ٤١١هـ/ ١٠٢٠م) في مصر وبلاد الشام هي التي تسمى بالدروز، وما زالت هذه الفرقة موجودة في الشام ولبنان. و على كل حال، فقد توجد في كتاب الدروز وهو تأليف عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م، فقرة وهي:

«إلى أهل التوحيد في الملتان والهند عموما والشيخ ابن سومر الملك بال خصوصا»

عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م، هو عصر السلطان مسعود بن السلطان محمود المتوفى عام ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، مما يدل على أن الملتان ظلت مركزا لهم حتى بعد فتحها على أيدي الغزنويين، بل يبدو أن الإسماعيليين أعادوا سلطانهم وسيطرتهم على الملتان مع ضعف الغزنويين، لأننا نجد الإسماعيليين مسيطرين على الملتان مرة ثانية على عهد السلطان شهاب الدين الغوري مما أوجب على السلطان أن ينتزع الملتان عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م من أيدي القرامطة إلى أن أصبحت أخيرا جزءا من حكومة دهلي[1].

سلسلة سلاطين الملتان

يتبين مما سبق أن هناك ثلاث سلاسل مختلفة لحكام الملتان وهي كما يلي:

١) منبه بن أسد الذي كان من أسرة أسامة بن لؤي القرشية، و الذي سمي

(١) تاريخ فرشته ١/ ٥٦ و ٢/ ٣٢٤.

أولاده ببني سامة و كان فيما ما بين ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م و ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، (وهو عصر ابن رستة إلى عصر الاصطخري) بشكل قطعي.

٢) جلم بن شيبان وهو حسب رواية البيروني أول قرمطي أو إسماعيلي استولى على الملتان، و كان عصره ما بين ٣٦٧هـ/ ٩٧٣م، و ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، يعني بين الاصطخري بل بين ابن حوقل والبشاري، لأن البشاري أول رحالة عربي يذكر العلاقات بين الفاطميين في مصر والملتان.

٣) الشيخ حميد وابنه نصير أونصر وابنه أبو الفتح أو أبو الفتوح داود القرمطي. كان الشيخ حميد معاصر الأمير ألبتكين و سبكتكين مما يعني أنه يمكن أن تعتبر ما بين عام ٣٥١هـ/ ٩٦٢م و ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م عصر الشيخ حميد وابنه نصر. وأما معاصر السلطان محمود فكان أبو الفتح داود. ولذا فإن حكومته ربما تكون ما بين عام ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م وعام ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م، (عام فتح الملتان الأول)، بل عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م (عام فتح الملتان الثاني واعتقال داود).

أما الأسرة الأولى والثانية فلا يعرفهما المؤرخون الإيرانيون، وكانتا حسب رواية الرحالين العرب عربيتين خالصتين، والأسرة الثالثة فهي معروفة عند المؤرخين الفرس لما لها من علاقة بالسلطان محمود الغزنوي. ولابد من التصحيح في هذا الصدد أن الذي يسمونه أبا الفتح كانت كنيته العربية أبا الفتوح، والذي يسمونه نصير كان نصر طبقا لأقدم روايات الكرديزي. وهذا التصحيح اللفظي يحتل مكانة مهمة هنا لأن فرشتة وغيره من المؤرخين نسبوهما إلى الأسرة اللودهية والبتان، ولكن هذه الأسماء مثل الشيخ حميد ونصر و داود أسماء عربية خالصة، و نصر أقرب إلى العربية وضعا من نصير. وكذلك الكنية (أبو الفتح أو الفتوح) فهي من شعار العرب الأصيل وعاداتهم، وخاصة أبا

الفتوح بصيغة الجمع. وفوق ذلك كله لقب الشيخ الذي ينم عن احترام صاحبه عربي محض. وكانت كلمة الشيخ بصفة خاصة تستخدم بمعنى الأمير عند الباطنيين الإسماعيليين لأنه كان يحتل مكانة دينية أكثر من سياسية ولذلك كان حسن بن صباح نفسه يسمى بشيخ الجبال.

نظرا لهذه الأسباب تبدو قصة نسبتهم إلى الأسرة اللودهية أو البتان قصة موضوعة لا حقيقة لها. ومن الصعب حتى التسليم بانتشار الإسلام في البتان في هذا العصر. و لذلك أنا أيضا أذهب إلى أن الشيخ حميد والشيخ نصر و أبو الفتوح لا بد أن يكونوا ينتمون إلى العرب نسبا وإلى جلم بن شيبان نسلا. ولقد كتب أحد المؤلفين المشهورين في الهند ما لا يقوم على أي أساس من الحقيقة أن داود أبو الفتوح هو نفس الشخصية التي نالت شهرة في تاريخ السند باسم سومرة. حيث إن سومرة كان اسمه الهندي وأبو الفتوح كان اسمه الإسلامي. وقع المؤلف في هذا الخطأ لظنه أن الأسرة الواحدة كانت تحكم في الملتان والمنصورة فلما كان اسمه أبا الفتوح في الملتان وسومرة في السند فكان يجب أن يكون الاسمان لشخص واحد. والواقع أن ذلك خطأ لا شك فيه.

لا يجوز الاستدلال بالفقرات الأولى من كتاب الدروز * إلى أهل التوحيد في الملتان والهند عامة وإلى الشيخ ابن سومر الملك بصفة خاصة* على أن سومر هو الذي كان ملك الملتان، لأنه لم يذكره أحد من المؤرخين في ذكر الملتان لا هو ثابت من أي مصدر آخر.

لم يكن للسومريين علاقة إلا بالسند التي كانت دولة مستقلة ومنفصلة عن الملتان من مدة طويلة، كما هو ثابت بلا ريب مما اتفق عليه الرحالون العرب. إلا أن الذي يثبت من هذا الكتاب أن أبا الفتح أمير الملتان و سومر كانا على

مذهب واحد، وربما أصبح سومر هذا شيخا دينيا لقرامطة السند وإمامهم بعد زوال أبي الفتح واعتقاله.

والسبب الثاني في نسبة الشيخ حميد وغيره إلى البتان قد يكون أن الإسماعيليين كان من عادتهم أن يتحدوا مع الشعوب الأخرى نسلا و مذهبا تسهيلا لتبليغ أفكارهم و عقائدهم فيمكن أن يكون الشيخ حميد قد زعم على نفس المنوال أنه من البتان لجذبهم إليه، ولكنه لا صلة له بالنسل الهندي و لا استخدمت له كلمة هندية أبدا.

الحضارة الإسلامية الهندية في الملتان

كانت المدنية والحضارة العربية والهندية قد امتزجت في الملتان امتزاجا طيبا، كانت المدينة رغم صغرها جميلة وكانت الأسواق مستقلة ومنفصلة لجميع أهل المهن المختلفة، وكانت المدينة محصنة من جوانبها الأربعة. والثكنات العسكرية التي كانت خارج المدينة هي أيضا كانت عبارة عن عمارات شاهقة ومبان رفيعة. ولقد ذكر البيروني أنه كان هناك جامع في المدينة بناه محمد بن القاسم (ربما وسط عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م و عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)، فقام جلم بن شيبان الإسماعيلي القرمطي بإغلاقه لأنه كان من آثار بني أمية، ودمر معبد إله الشمس الشهير وبني مكانه جامعا، وعندما استولى السلطان محمود الغزنوي على الملتان عام ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م أو عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، فتح الجامع الأول مرة ثانية، وترك الآخر دون صيانة أو ترميم. وكان ذلك المسجد قد تحول إلى ميدان لما كان البيروني يتم تأليف كتابه عام ٤٢٤هـ/ ١٠٣٢م، و قد غرست فيها أشجار الحناء.

فقد كتب الاصطخري (عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م) أن أمير الملتان كان يركب الفيل ليذهب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة، فكأن هذا المركب الفخم الملوكي الخاص بالملوك الهندوس كان قد حاز على إعجاب الأمراء العرب، ثم يضيف أن أهل الملتان يلبسون السراويل و معظمهم ينطقون الفارسية و السندية أيضا، وباختصار كان قد وجد هناك تماثل واتحاد بين المسلمين والهندوس في الملبس و اللغة.

ولقد ذكر ابن حوقل عن الملابس واللغات المستخدمة هنا ما يلي، يقول ابن حوقل:

"وزي المسلمين والكفار بها واحد في اللباس وإرسال الشعر، ولباسهم الأزر والميازر لشدة الحر ببلدانهم، وكذلك زي أهل الملتان، لباسهم الأزر والميازر، ولسان أهل المنصورة والملتان ونواحيها العربية والسندية، ولسان أهل مكران الفارسية و المكرية، ولباس القراطق فيهم ظاهر إلا التجار فإن لباسهم القمص والأردية كسائر أهل العراق وفارس"(١).

جاء البشاري هنا عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، وقد صور لنا الأخلاق والعادات والمدنية السائدة هنا بشكل بارع، يقول:

"الملتان تكون مثل المنصورة، غير أنها أعمر، ليست بكثيرة الثمار غير أنها رخيصة الأسعار، الخبز ثلاثون منا بدرهم، والفانيذ ثلاثة أمناء بدرهم، حسنة تشاكل دور سيراف من خشب الساج، طبقات، ليس عندهم زنا ولا شرب خمر، ومن ظفروا به يفعل ذلك قتلوه أو حدوه، ولا يكذبون في بيع ولا يبخسون في كيل، و لا يخسرون في وزن، يحبون الغرباء، وأكثرهم عرب،

(١) كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ٢٨٠

شربهم من نهر غزير، والخير بها كثير والتجارات حسنة، والنعم ظاهرة، والسلاطين عادلة، لا ترى في الأسواق امرأة متجملة ولا أحدا يحدثها علانية، ماء مريء، وعيش هنيء، وظرف ومروؤة، وفارسية مفهومة، وتجارات مفيدة، وأجسام صحيحة، إلا أنها سبخة بليدة، ودور ضيقة وهواء حار يابس، وهم سمر وسود"(١).

"ودراهم الملتان على عمل دراهم الفاطمي، و ينفق فيها القنهري"(٢).

المنصورة

أكبر مدن السند كما هو مشهور عند العرب برهمناباذ التي اسمها الهندي الأصلي "بهمنوا" كما ذكره البيروني، وكان أهل إيران يسمونها برهمن آباد، وهذا الذي راج عند المسلمين، ثم احتاج العرب لأسباب سياسية وعسكرية إلى إقامة مدن لهم في السند أشهرها المحفوظة والبيضاء والمنصورة.

وعندما ضعفت شوكة العرب في أواخر عهد بني أمية، و بدأ أهل السند يدحرونهم إلى السواحل، جمع حكم بن عوانة الكلبي الوالي العربي في ذلك الوقت جميع سكان العرب وأقام مدينة عبر النهر سماها "المحفوظة".

وكان مع حكم بن عوانة الكلبي عمرو بن محمد بن القاسم، وكان شجاعا وداهية، وهو الذي كان يدير جميع أعمال حكم. أقام عمرو مدينة على الساحل على فرسخين من برهمن آباد و سماها "المنصورة"(٣).

(١) أحسن التقاسيم ٤٨٠ ـ ٤٨١.
(٢) أحسن التقاسيم ٤٨٢.
(٣) فتوح البلدان ١/ ٦٩٧.

وفي العهد العباسي أقام عمران بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي عندما تم تعيينه واليا على السند في عصر المعتصم بالله وسط القرن الثالث الهجري مدينة سماها "البيضاء".

غير أن المنصورة من بين هذه المدن هي التي قدر لها البقاء والشهرة.

باني المنصورة

لماذا سميت مدينة المنصورة بالمنصورة؟ ظن بعض الناس خطأ أنها سميت بالمنصورة لأنها بنيت في عصر الخليفة العباسي منصور. والواقع أن هذا خطأ ظاهر، لأن هذه المدينة كانت قد بنيت على عهد بني أمية أنفسهم، وكذلك نسبها المسعودي إلى منصور بن جمهور عامل بني أمية [1] الذي كان قد تغلب على حكم السند عند انهيار حكم بني أمية ومطلع العهد العباسي، و لكن هذا أيضا لا يصح، ويجب أن لا ننخدع بالأسماء لأن الواقع أن باني هذه المدينة هو عمرو بن محمد بن القاسم كما ذكره أقدم مآخذنا البلاذري المتوفى عام ٢٧٩هـ-٨٩٢م، و لذلك يجب أن نعتبر المنصورة اسما سميت به المدينة تفاؤلا ولا غير مثل المحفوظة.

زمن بناء المدينة

كان حكم الذي أقام عمرو في زمنه هذه المدينة مبعوث أمير العراق خالد بن عبد الله القسري. وكان خالد تقلد إمارة العراق عام ١٠٥هـ/ ٧٢٣م وعزل عام ١٢٠هـ/ ٧٣٧م، وكان حكم واليا ثانيا بعثه خالد إلى السند، ولذلك يحتمل أن تكون بداية عصره عام ١١٠هـ/ ٧٢٨م، وعلى هذا، ينبغي أن نحدد تاريخ بناء المدينة بما بين ١١٠هـ/ ٧٢٨م و ١٢٠هـ-٧٣٧م.

(١) مروج الذهب ١/ ١٦٧.

موقع المدينة

أولا : يذكر ابن خردازبة (عام ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م) موقع المنصورة على ساحل نهر السند الذي يصفه بالبحر الشرقي الكبير[1].

و ثانيا: يقول البلاذري:

"فبنى دون البحيرة مدينة، وسماها المنصورة"[2].

ذكر الاصطخري وابن حوقل أنها بنيت على نهر مهران(السند) وفيما يلي نص ابن حوقل:

"المنصورة مدينة مقدارها في الطول والعرض نحو ميل في مثله، ويحيط بها خليج من نهر مهران وهي في شبيه بالجزيرة"[3].

وذكر بعض الجغرافيين العرب في طولها وعرضها:

"وهي في الإقليم الثالث، طولها من جهة المغرب ثلاث وتسعون درجة، وعرضها من جهة الجنوب اثنتان وعشرون درجة"[4]..

ومن حسن الحظ أنه يوجد بين أيدينا خريطة أعدها ابن حوقل للسند في زمنه، ويتبين منها أن نهر السند الذي يخرج من البنجاب وينصب في البحر الهندي أخيرا يخرج منه شعب على بعد يسير من هذا الموقع نحو البر، ويلتف لتوه ليتصل بنفس النهر، وتظهر قطعة أرضية صغيرة شبيهة بالجزيرة في وسطها

(١) المسالك و الممالك ١٧٤.
(٢) فتوح البلدان للبلاذري ١/ ٦٩٧.
(٣) كتاب صورة الأرض ص٢٧٧.
(٤) معجم البلدان: المنصورة.

وهي التي أقيمت فيها المنصورة. و كانت محمية من هجمات الأعداء المفاجئة، لكونها محاطة بالمياه من جميع الجهات، وكان هذا الموقع مثل موقع سرنغابتنم تماما الذي ظهر في ميسور لدوران نهر كاويري والتفافه بها، و مثله يوجد في ترجنابلي في مدراس، وكانت مثل هذه المواقع تعتبر محمية وآمنة في الأزمنة القديمة للاستراتيجيات الحربية.

وقد قام أبو الفضل بحل جميع المشاكل في كتابه آئين أكبري، حيث ذكر أن مدينة السند الشهيرة بهكر الآن كانت هي المنصورة القديمة. والواقع أن البيانات الجغرافية للمنصورة تنطبق عليها تماما، ويقول أبو الفضل:

"يتحد هنا الأنهر الستة في هذا المقام ثم تنقسم إلى قسمين: ويجري كل منهما من تحته، قسم إلى جهة الجنوب والثاني من جهة الشمال"[1]. ومدينة بهكر مشهورة في التاريخ الهندي ولا تزال معروفة حتى الآن.

العاصمة المنصورة

كانت المنصورة محمية لموقعها الجغرافي كما كانت واقعة على ساحل النهر وقريبة من البحر. ولذا كانت مناسبة جدا للتنقلات بينها وبين العراق والجزيرة العربية ومناسبة للفرار أيضا إذا مست الحاجة. ولذا أصبحت عاصمة العرب بسرعة، ونسمع عنها بنفس هذا الوصف في القرن الثالث الهجري. ولقد قال البلاذري المتوفى عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، و هو يذكر أحوال السند:

"فهي التي ينزلها العمال اليوم"[2].

(١) آئين أكبري ٢/ ١٦٠ طبعة نولكشور.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ١/ ٦٩٧.

وبنفس الوصف يذكرها جميع الرحالين العرب الذي جاءوا بعده، إلى أن تصبح عاصمة دولة عربية في النهاية.

السند على عهد الخلافة العباسية

ظلت منطقة السند خاضعة للخلافة العباسية حتى عام ٣١٨هـ/ ٩٣٠م، عصر الخليفة المأمون، بل بدأ الأمراء والولاة العرب يحلمون باستقلالهم في عهده هو" كان الفضل بن ماهان مولى بني سامة فتح سندان وغلب عليها، وبعث إلى المأمون رحمه الله بفيل وكاتبه، ودعا له في مسجد جامع اتخذه بها، فلما مات قام محمد بن الفضل بن ماهان مقامه، فسار في سبعين بارجة إلى ميد الهند فقتل منهم خلقا، وافتتح فالى ورجع إلى سندان، وقد غلب عليها أخ له يقال له: ماهان بن الفضل، وكاتب أمير المؤمنين المعتصم بالله، وأهدى إليه ساجا لم ير مثله عظما وطولا، وكانت الهند في أمر أخيه، فمالوا عليه فقتلوه وصلبوه، ثم إن الهند بعد ما غلبوا على سندان فتركوا مسجدها للمسلمين، يجمعون فيه ويدعون للخليفة[1]".

وكان ذلك في عصر الخليفة المعتصم بالله عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م. وربما بسبب هذه الحرب الأهلية خرجت الدولة من يد المسلمين. كان محمد بن خليل قد أعلن باستقلاله بحكم قندابيل في عهد المعتصم بالله، ولكن عمران البرمكي والذي كان ضابطا على عهد المعتصم بالله ألقى القبض على جميع الرؤساء هناك، و بعثهم إلى قصدار، كما ورد في فتوح البلدان:

"واستخلف ابنه عمران بن موسى فكتب إليه أمير المؤمنين المعتصم بالله

(١) نفس المصدر.

بولاية الثغر، فخرج إلى القيقان وهم زط فقاتلهم فغلبهم، وبنى مدينة سماها البيضاء، وأسكنها الجند، ثم أتى المنصورة، وصار منها إلى قندابيل، وهي مدينة على جبل، وفيها متغلب يقال له: محمد بن الخليل فقاتله وفتحها، وحمل رؤساءها إلى قصدار»(١).

في عهد عمران البرمكي نفسه، بدأت الحروب الأهلية بين قبيلتين عربيتين مشهورتين، وهما يمنية (قحطانية) و حجازية،(نزارية)، والتي قضت على بني أمية، وكان الذي يتزعم الحجازيين في ذلك الوقت زعيما قرشيا يدعى عمر بن عبد العزيز الهباري والذي قام باغتيال عمران، وهو ما يدل عليه قول البلاذري:

"ثم وقعت العصبية بين النزارية واليمانية فمال عمران إلى اليمانية، فسار إليه عمر بن عبد العزيز الهباري فقتله، وهو غار، وكان جد عمر هذا ممن قدم السند مع الحكم بن عوانة الكلبي»(٢).

الأسرة القرشية الهبارية في السند

كان من بين بني أسد من قريش رجل اسمه هبار بن الأسود على عهد رسول الله ﷺ، وكان من أشد الأعداء للإسلام ولنبي الإسلام، غير أنه أسلم في النهاية في زمن فتح مكة عام ٨هـ/ ٦٢٩م، وكان حكم بن عوانة الكلبي من أولاده»(٣)، وجاء إلى السند مع واليها، ومنه انحدر عمر بن عبد العزيز الهباري وكان من أحفاده.

(١) فتوح لبلدان ١/ ٦٩٧.
(٢) فتوح البلدان ١/ ٦٩٧.
(٣) نفس المصدر.

نسب عمر بن عبد العزيز الهباري

هو عمر بن عبد العزيز بن منذر بن زبير بن عبد الرحمن بن هبار بن الأسود.

كانت هذه الأسرة تتمتع بالقوة والنفوذ والتدخل في أمور الخلافة والحكومة على كلا العهدين الأموي والعباسي(١). تولت هذه الأسرة زعامة الحجازيين وقتلت عمران مما يمكن أن قد أدى طبعا إلى استلام عمر بن عبد العزيز الهباري إمارة العرب الحجازيين في السند. وفي عصر الخليفة العباسي المتوكل عام ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م عندما توفي هارون بن خالد والي السند بعث عمر بن عبد العزيز طلبا إلى عاصمة الخلافة الإسلامية يسأل فيه توليته على السند، فوافق الخليفة على طلبه.

إن اليعقوبي الذي ألف كتابه عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م، كتب في تاريخه:

«وتوفي هارون بن أبي خالد عامل السند سنة ٢٤٠، وكتب عمر بن عبد العزيز السامي المنتمي إلى سامة بن لؤي وهو صاحب البلد هنالك، يذكر أنه إن ولي البلد قام به وضبطه، فأجابه إلى ذلك، فأقام طول أيام المتوكل».

نسبة اليعقوبي عمر بن عبد العزيز إلى سامة بن لؤي ليست صحيحة، لأن عمر بن عبد العزيز كان من ولد هبار بن الأسود، وهو من أولاد كعب بن لؤي. ربما انخدع اليعقوبي بنسبة حكام الملتان الذين كانوا من بني سامة.

وكانت السند على علاقة مستمرة ببغداد حتى بعد إمارة عمر بن عبد العزيز، حيث نجدها أيضا في قائمة ممتلكات بغداد على عهد الخليفة العباسي المعتمد (عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م - ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) ذلك أن ولاية السند أوكلت إلى

(١) ابن خلدون ٢/ ٣٢٧.

يعقوب بن ليث باني الأسرة الصفارية في خراسان عام ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م بالإضافة إلى ولاية تركستان وسجستان وكرمان. ثم في عام ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، يولي المعتمد أخاه الموفق الشجاع الطموح على السند مع جميع المناطق الشرقية. و في نفس العصر تبدأ ثورة القرامطة على السواحل العربية والعراقية للخليج الفارسي في جهة، و تظهر حركة الفرقة الفاطمية الإسماعيلية في مصر من جهة أخرى وتمتد إلى بلاد مصر.

وربما هذا هو العهد الذي انقطعت فيه صلة السند عن بغداد، لأن البلاذري الذي توفي عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م يكتب:

" ثم ولى ثغر السند عمر بن حفص بن عثمان هزارمرد، ثم داود بن يزيد بن حاتم، وكان معه أبو الصمة المتغلب اليوم، وهو مولى لكندة، ولم يزل أمر ذلك الثغر مستقيما حتى وليه بشر بن داود في خلافة المأمون فعصى وخالف"، [1]

ولكن يبدو أن أولاد عمر بن عبد العزيز الهباري لم يهدءوا أبدا. أما عمر بن عبد العزيز نفسه فكان يسكن في مدينة بانيه[2] في السند، ولكن أولاده كانوا قد استولوا على المناطق السفلى من السند، واتخذوا من المنصورة عاصمة لهم. وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الهباري حاكما على المنصورة عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م، وحدث في نفس العصر أن ملك الرا (الور الواقع في السند) طلب داعيا وعالما مسلما يمكن أن يعلمه دين الإسلام[3]، وفي عام ٣٠٣هـ/

(١) فتوح البلدان ١/ ٦٩٧.
(٢) كتاب صورة الأرض ص ٢٧٩.
(٣) عجائب الهند ١/ ٤٨.

٩١٥م عندما جاء المسعودي وجد عمر بن عبد الله يحكم المنصورة كما لقي هناك عددا كبيرا من الزعماء العرب بالإضافة إلى كثير من السادات والأسرة العلوية. وكان الملك حينئذ عمر بن عبد الله والوزير رباح، والقاضي آل أبي الشوارب، وفيما يلي نص المسعودي:

"وكذلك كان دخولي إلى بلاد المنصورة في هذا الوقت، و الملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله، و رأيت بها وزيره رباحا و ابنيه محمدا وعليا و رأيت بها رجلا سيدا من العرب، وملكا من ملوكهم و هو المعروف بحمزة و بها خلق من ولد علي بن أبي طالب، ﷺ، ثم من ولد عمر بن علي و ولد محمد بن علي وبين ملوك المنصورة و آل أبي الشوارب القاضي قرابة و صلة و نسب، و ذلك أن ملوك المنصورة الذين فيهم الملك في وقتنا هذا من ولد هبار بن الأسود ويعرفون ببني عمر بن عبد العزيز القرشي[1]".

وبعد المسعودي عام ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، عندما جاء ابن حوقل كانت هذه الأسرة نفسها تدير زمام الحكومة فيها، وإن لم تكن هناك أية علاقة لها من الناحية السياسية والإدارية بالخلافة العباسية إلا أن العلاقة الدينية كانت لا تزال قائمة والخطبة كانت تلقى باسم الخلفاء العباسيين أنفسهم، وأصل النص كما يلي:

"ملكها من قريش من ولد هبار بن الأسود و قد تغلب عليها أجداده و ساسوهم سياسة أوجبت رغبة الرعية فيهم و إيثارهم على من سواهم غير أن الخطبة لبني العباس"[2].

(١) مروج الذهب ١/ ١٦٧ - ١٦٨.
(٢) كتاب صورة الأرض ص ٢٧٧.

وفي عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م عند ما جاء البشاري المقدسي وجد نفس الأسرة على سدة الحكم كما كانت، إلا أن الأسرة الشيعية من الديالمة الذين كانوا يحكمون فارس في هذه الفترة كان أثرهم أيضا ينفذ إلى السند عبر بلوجستان. ومع ذلك كان اسم الخليفة العباسي هو الآخر مرفوعا ومسموعا، يقول البشاري:

"و أما المنصورة فعليها سلطان من قريش، يخطبون للعباسي، و قد كانوا خطبوا على عضد الدولة، و رأيت رسولهم قد وافى إلى ابنه ونحن بشيراز[1]".

سكان مدينة المنصورة و سعتها

كانت مدينة المنصورة كما ذكر ابن حوقل تمتد ميلا في طولها وكانت محاطة بالنهر من جميع الجوانب، وكان سكانها مسلمين، يقول البشاري:

"المنصورة قصبة السند، ومصر الإقليم، تكون مثل دمشق، بناؤهم خشب وطين، والجامع من حجر وآجر، كبير مثل جامع عمان، على سواري ساج، لها أربعة أبواب: باب البحر، باب طوران، باب سندان، باب الملتان[2]".

اتساع مملكة المنصورة وخضرتها

كانت هذه الدولة العربية تشتمل على عدة مدن من السند، يقول البشاري:

"وأما السند فقصبتها المنصورة ومن مدنها: ديبل، زندريج، كدار، مايل، تنبلى، ".

وقد عدد الاصطخري مدنا أخرى في هذه الدولة مثل بانية و سدوسان و الور وسوبارة وصيمور.

(١) أحسن التقاسيم ٤٨٥.

(٢) أحسن التقاسيم ٤٧٩.

ويقول المسعودي:

"و جميع ما للمنصورة من الضياع والقرى مما يضاف إليها ثلاثمأة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة[1]".

ويمكننا أن نقدر من هذا البيان ما كانت عليه المنصورة من خضرة ونضرة وعمران كبير.

المقدرة العسكرية للملك

يقول المسعودي:

" وفيها حروب كثيرة من جنس يقال لهم الميد وهو نوع من السند وغير هم من الأجناس...... ولملك المنصورة فيلة حربية، وهي ثمانون فيلا، رسم كل فيل أن يكون حوله على ما ذكرنا خمسمأة راجل، وأنه يحارب ألوفا من الخيل على ما ذكرنا. ورأيت له فيلين عظيمين كانا موصوفين عند ملوك السند والهند لما كانا عليه من البأس والنجدة والإقدام على فل الجيوش، وكان اسم أحدهما "منفرقلس" والآخر حيدرة"[2]".

فكأن المسعودي عرض لنا كامل القوة العسكرية للمنصورة، كان لكل فيل خمسمئة من الجنود، فكان إجمالي العدد لهذه الفيلة أربعين ألف جندي.

الأوضاع العلمية والدينية في المنصورة

وأحسن ما قال في هذا الصدد بيان البشاري الذي قيده في رحلاته.

يقول البشاري في سكان المدينة:

(١) مروج الذهب ١/ ١٦٨.

(٢) مروج الذهب ١/ ١٦٨.

«إنهم أهل لباقة، ولهم مروءة، وللإسلام عندهم طراوة، والعلم وأهله كثير، ولهم ذكاء وفطنة، ومعروف وصدقة»[١].

«وذمته عبدة الأصنام، ليس للمذكرين به صيت، ولا لهم رسوم تذكر،... أكثرهم أهل حديث، ورأيت القاضي أبا محمد المنصوري داووديا، إماما في مذهبه، وله تدريس وتصانيف، قد صنف كتبا حسنة،.... و لا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة، وليس به مالكية ولا عمل للحنابلة ولا معتزلة، إنهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة، و صلاح وعفة»[٢].

تواجد أهل الحديث في هذا العهد القديم أمر يبعث على الحيرة. والمراد بالفرقة الداودية ليس أفراد الفرقة البوهرة الداودية بل أتباع الإمام داود الظاهري، وهم طبقة من أهل الحديث.

اللغة

يروي لنا المسعودي: إن لغة السند خاصة بها و «هي خلاف لغة الهند[٣]».

ويقول البشاري في ذكر ميناء الديبل:

«ديبل: بحرية قد أحاط بها نحو من مائة قرية أكثرهم كفار والبحر يسطع جدارات المدينة، كلهم تجار كلامهم سندي وعربي، وهي فرضة الكورة كثيرة الدخل»[٤].

(١) أحسن التقاسيم ٤٧٩، و مروج الذهب ١/ ١٦٧.

(٢) أحسن التقاسيم ٤٨١.

(٣) مروج الذهب ١/ ١٦٩.

(٤) أحسن التقاسيم ٤٨١.

يمكن أن نقدر من ذلك كم كان عميقا أثر اللغة العربية على لغتها، ولا تزال دلائلها موجودة حتى الآن حيث نجد الكلمات العربية قد اختلطت باللغة السندية اختلاطها بلغتنا الأردية. وأظهر آثارها أن الخط السندي هو نفس الخط العربي حتى يومنا هذا.

سقوط المنصورة

كيف سقطت الحكومة العربية وانتهت في المنصورة؟ لا يوجد شيء صريح في هذا الصدد، إلا أنها كانت قائمة بدون شك حتى عصر البشاري وهو عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م. ثم تبدأ حملات السلطان محمود بعده بخمسة عشر سنة. و لما قام السلطان محمود عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م بحملته الشهيرة على سومنات، اختار طريق السند عند العودة حيث سلك على الطريق من مملكة الكجرات إلى السند، ومنها على السواحل إلى الملتان ومن الملتان إلى غزنين. و لقد صرح المؤرخون بأنه مر في هذا الطريق بالسند، غير أن ابن الأثير كتب فقرة مهمة جدا عندما ذكر أحداث السنة نفسها في تاريخه.

يقول ابن الأثير:

«وقصد(السلطان)المنصورة، وكان صاحبها قد ارتد عن الإسلام، فلما بلغه خبر مجيء يمين الدولة فارقها واحتمى بغياض أشبة. فقصده يمين الدولة من موضعين، فأحاط به وبمن معه، فقتل أكثرهم، وغرق منهم كثير، ولم ينج منهم إلا القليل، ثم سار إلى بهاطية، فأطاعه أهلها، ودانوا له، فرحل إلى غزنة»[١].

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

والسؤال هو أنه ما معنى الارتداد عن الإسلام؟ إذا لم يكن قد أشيع عن والي المنصورة ارتداده عن الإسلام لتبرير هذه الحملة عند المسلمين فيكون معنى ذلك طبقا لما جرى عليه التعبير في ذلك العهد أن حاكم المنصورة هو الآخر ربما كان قد اعتنق المذهب القرمطي الإسماعيلي مثل ملك الملتان، وإلا فإن شهادة البشاري على كونهم من السنة بل من أهل الحديث موجودة منذ أربعين سنة قبل هذه الحملة، مما يدل على كل حال على أن الحكومة الهبارية انهارت وسقطت على يد السلطان محمود عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م.

يقول المؤرخ المحقق الشهير ابن خلدون في تذكرة أسرة هبار بن الأسود:

"وهبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزي كان من عقبه عمر بن عبد العزيز بن المنذر بن الزبير بن عبد الرحمن بن هبار، كان صاحب السند، وليها ابتداء الفتنة إثر قتل المتوكل، وتداول أولاده ملكها، إلى أن انقطع أمرهم على يد محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، وما دون النهر من خرسان، وكانت قاعدتهم المنصورة"[1].

هل كان أهل المنصورة أيضا من الفرقة القرمطية الإسماعيلية

نظرا لما نجد في السطور السابقة التي شهد فيها البشاري الذي كان هو الآخر عالما فقيها بكون أهل المنصورة من أهل السنة المتدينين عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م من قوة وثقة، يبدو من الصعب كون أهل المنصورة من القرامطة. و يثبت من بيان ابن خلدون أن السلطان محمود انتزع الملك من يد الأمير الهباري، ويتبين من كلام ابن الأثير أن الأمير الذي انتزع السلطان الملك من يده كان بلغ

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٦٧٧.

السلطان عنه ارتداده عن الإسلام مما يدل على أنه كان قد تحول قرمطيا إسماعيليا.

وكما قيل فيما سبق أن إشاعة اعتناق أهل المنصورة المذهب القرمطي الإسماعيلي إذا لم تكن تبريرا لحملة السلطان محمود على دولة المنصورة الإسلامية فإننا لا يمكن أن نفهم من بيان ابن الأثير إلا أن القرامطة قضوا على الأسرة الهبارية السنية بعد عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، أو كانوا قد أقاموا دولتهم في السند بعد ما خرجت الملتان من أيديهم. وهذه هي الدولة القرمطية التي قضى عليها السلطان محمود الغزنوي عام ٤٩٦هـ/ ١٠١٢م.

الكتاب الدروزي

إن الكتاب الدروزي الذي سبق أن ذكرنا مقتبسا منه يحتل موقعا مهما في هذه القضية. فلقد تضمن الكتاب الدروزي الذي بعثه إمام الدروزيين الإسماعيليين في الشام ما يقول:

"إلى أهل التوحيد في الملتان و الهند عموما و إلى الشيخ ابن سومر راجه بل خصوصا"

وقد صرح في هذا الكتاب بأن الشيخ ابن سومر راجه بل وريث حق لـ بهوترو و هودل هيلا، كما يتضمن هذا الكتاب أسماء كثير من أعضاء هذه الأسرة الآخرين منها أسماء عربية وأخرى هندية، وقال لهم مستفزا لحميتهم وغيرتهم ما معناه:

(سيادة الملك بل صاحب العز والسلطان، أيقظ أهلك وأعضاء أسرتك، وأرجع الموحدين وداود الأصغر إلى الدين الحق، وذلك أن مسعود ما أطلق سراحك وما فك أغلالك إلا لأن تقوم بالواجب الذي فرضه عليك تجاه ابن

أخته عبد الله وجميع أهل الملتان ليتميز أهل التوحيد والتقديس [١] عن جماعة الجهل والعناد والتمرد)[٢].

(لم نعثر على أصل هذا الكتاب حتى الآن)

يمكن أن نستنتج نتائج هامة من هذا الكتاب:

١) السومريون الذين كانوا سكان السند وصاروا فيما بعد بناة الأسرة السومرية كانوا على المذهب الإسماعيلي.

٢) وبما أن أسمائهم عربية وهندوسية فإن ذلك يدل على أنهم كانوا خليطا من الأصل العربي والهندي.

٣) أن ملك الملتان أبو الفتح داود و غيره وهؤلاء السومريين من أهل السند كانوا أتباع المذهب الواحد.

٤) أن سومر ربما كان شيخ الإسماعيليين وإمامهم في السند. لأن كلمة الشيخ كان يستخدمها الإسماعيليون لزعيمهم الديني بصفة خاصة.

٥) يبدو أنه كان لأبي الفتح داود ابن خلفه، وكان يعرف بداود الصغير، وكان قد أطلق سراحه السلطان مسعود بعد ما تاب عن مذهبه الإسماعيلي.

٦) كان عبد الله أبو الفتح سبط داود الأكبر وابن أخت داود الأصغر، و كان أهل الملتان يريدون أن يؤمروه عليهم.

---

(١) يدعي الإسماعيليون التوحيد والتقديس على أساس أنهم كانوا يعتبرون من الشرك ما يعتقده عامة أهل السنة من صفات الله عز وجل، فقد كانوا ينفون الصفات، وهو ما سموه بالتقديس والتوحيد، وهذه العقيدة هي التي كان يحملها المعتزلة وبالتالي هم الآخرين كانوا يعتبرون أنفسهم أهل العدل والتوحيد.

(٢) أيليوت ١/ ٤٩١.

٧) والكتاب يهدف إلى استنهاض وتحريض ابن سومر راجه بل، وأفراد قبيلته على السلطان مسعود وعبد الله وأهل الملتان لاستعادة قوة القرامطة الإسماعيليين التي كانت قد ضعفت وتراجعت. فقد حدثت محاولات عديدة مرارا وتكرارا لهذا الغرض فنجحت أحيانا وفشلت أحيانا أخرى.

٨) الأمر الأخير ولكن الأهم الذي نعرف من هذا الكتاب هو ما يدل على أن هذا الشخص كان ذا شخصية قوية وهامة. فإذا كان ابن سومر معاصرا للسلطان مسعود يمكن أن نقول إن سومر كان معاصر السلطان محمود المتوفى عام ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م.

٩) هؤلاء هم السومريون الذين استولوا على حكومة السند بعد ٢٠ سنة من تاريخ هذا الكتاب عندما ضعفت وتداعت حكومة السلطان عبد الرشيد بن محمود الغزنوي المتوفى عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م.

الأثر الخالد للأسرة الهبارية

وإن كانت الآثار الحسية الظاهرة لسلاطين الأسرة الهبارية قد امحت من على وجه الأرض للأبد إلا أن أثرا لها روحانيا بقي للأبد، وهو أسرتهم التي هاجرت في ظل الغزنويين من هنا وسكنت في الملتان،

ولد شيخ الإسلام زكريا الملتاني في عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، وتوفي عام ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٧م، كما ذهب إليه صاحب تاريخ فرشته، أو ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م، حسب أخبار الأخيار، و لقد لقّبه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي بالأسدي[١]، والذي كان ـ كما هو معلوم ـ أسرة من قبيلة هبار بن الأسود. كما

---

(١) أخبار الأخيار ص٢٦، طبعة مطابع الهاشمي ميرته ـ الهند.

نسبه الشيخ عين الدين البيجابوري إلى هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد. وقد أورد الأستاذ بير زاده في ترجمته الأردية لكتاب ابن بطوطة (المجلد الثاني ص٨) مقتبسا عربيا من الكتاب القديم المسمى بـ "خلاصة العارفين" وهو في ذخائر أسرة الشيخ الموجودة نقلا عن ملفوظات السيد جلال الدين البخاري. ويتضمن هذا المقتبس النسب الذي يثبت منه نفس الشيء. وكذلك فإن التاريخين اللذين نجدهما لقدوم شيخ الإسلام إلى الهند أولهما أنه ورد إلى الهند في القرن الأول مع الفاتحين العرب كما ذكره ابن بطوطة، والثاني أنه جاء من بلاد العرب في القرن الخامس للهجرة، ويمكن أن يتم التوفيق بينهما على نحو أن التاريخ الأول هو تاريخ ورود أسرته في السند في القرن الثاني للهجرة، والتاريخ الثاني هو تاريخ ورودهم في الملتان بعد انهيار المنصورة في القرن الخامس الهجري في ظل السلطنة الغزنوية، إلا أن قصة دخولهم عبر خوارزم لا تكون صحيحة كما ورد في تاريخ فرشته، ولكن الأهم من هذا ما أورده صاحب التاريخ الطاهري الذي ذكر بالتفصيل أن الشيخ بهاء الدين كان سنديا وكان من سكور(سكهر حاليا) التي بناها شعب السمه بعد زوال محمد تور[١].

السند تحت حكومات الغزنويين والغوريين و سلاطين دهلي

يثبت بقاء السند في أيدي الغزنويين من واقع وصول الخراج من السند حتى عصر السلطان عبد الرشيد الغزنوي عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م، وهو العام الذي اختل بعده حكم الغزنويين، وإن كانوا حكام البنجاب والسند اسميا حتى الأيام الأخيرة عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م.

(١) تاريخ الطاهري، أيليوت ص ٢٥٦.

وبعد عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، بدأ تدخل الغوريين في الحكومة إلى أن استولى أحد ضباط السلطان شهاب الدين وهو ناصر الدين قباجة على السند، وأيلتمش على دهلي، وأخيرا تغلب أيلتمش على قباجة وطرده من السند.

بقيت السند منذ ذلك الوقت وإن كانت تابعة لحكومة دهلي اسميا، مستقلة بحكومتها في الواقع، وانتقلت من أسرة حاكمة محلية إلى أسرة حاكمة محلية أخرى في عصر السلطان محمد تغلق عام ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١م. ثم استولى عليها السلطان فيروز عن طريق المصالحة عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، وفوض حكومتها في النهاية إلى نفس الأسرة الحاكمة المحلية، التي ظلت تحت إمرتها حتى عام ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠م، إلى أن استولى عليها الأمير التتري أرغون، ودخلت أخيرا في الممتلكات الأكبرية مع نهاية عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م.

الأسرة السومرية

لا يهمنا ما سبق من التاريخ الذي سردناه، والذي يهمنا هنا من هذا التاريخ هو أن ننظر في قبيلتين مستقلتين تسمى إحداهما سومرية والأخرى السمة. فالقبيلة التي استولت على حكومة السند عندما تزعزعت الحكومة الغزنوية تسمى سومرية. وأما القبيلة الأخرى المحلية التي تولت سدة الحكم فيها عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م في عصر السلطان محمد تغلق وظلت تمسك بزمام الحكم حتى عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م فتسمى السمة.

وقد دار الخلاف كثيرا بين المؤرخين حول أصل هاتين القبيلتين، وخاصة القبيلة السومرية. ولذلك فإنها تتطلب منا التحقيق والبحث وكذلك المذهب الذي كانوا يتبعونه.

إن الكتاب الدروزي الذي سبقت الإشارة إليه في الصفحات السابقة يثبت منه أنه في عصر السلطان مسعود عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م كان ابن سومر راجه بل حيا، يتبع المذهب الإسماعيلي، وكان قد حثه إمام الدروزيين وأثار غيرته ليقوم ويقيم حكومة الإسماعيليين في الملتان والسند من جديد. ولذلك فلا غرو أن قام السومريون بنصب حكومتهم في السند عند ضعف شوكة الغزنويين في عصر السلطان شهاب الدين عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م.

بقيت حكومتهم هذه منذ عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م، وتجاوزت عام ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م بسنوات عدة بشكل أو بآخر. وفي هذا الصدد نجد شهادة ابن بطوطة أهم من غيرها، إذ ورد إلى الهند عام ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، عبر السند في الوقت الذي كان السومريون تابعين لحكومة دهلي. وقد رآهم ابن بطوطة.

يقول ابن بطوطة:

"ووصلنا إلى مدينة جناني، مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند، لها أسواق مليحة، و سكانها طائفة يقال لهم السامرة، استوطنوها قديما، و استقر بها أسلافهم، حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف، حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند،...... و هؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد، و لا ينظر غليهم أحد حين يأكلون، و لا يصاهرون أحدا من غيرهم و لا يصاهر إليهم أحد، و كان لهم في هذا العهد أمير يسمى "ونار" و سنذكر خبره[1]".

ويضيف إلى بيانه ما يلي في السطور الآتية في وصف سيوستان وهي الآن من أعمال كراتشي (الباكستان)

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٣٩٧.

ثم سافرنا من مدينة جناني إلى أن وصلنا إلى مدينة سيوستان، وهي مدينة كبيرة[1]........وكان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامري، الذي تقدم ذكره، والأمير قيصر الرومي، وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو ألف وثمانمئة فارس، وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن، وهو من الحذاق بالحساب والكتابة، فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء فاستحسنه السلطان، وسماه عظيم السند، وولاه تلك البلاد وأقطعه سيوستان وأعمالها، وأعطاه المراتب، وهي الأطبال والعلامات كما يعطى كبار الأمراء[2]".

فلما وصل إلى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهما تقديم الكافر عليهم، فأجمعوا على قتله. فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحواز المدينة ليطلع على أمورها، فخرج معهم، فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة، وزعموا أن السبع ضرب عليها، وقصدوا مضرب الكافر، فقتلوه، وعادوا إلى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان.... وقدموا على أنفسهم ونار المذكور وسموه "ملك فيروز".. ثم خاف (ونار) على نفسه لبعده عن قبيلته فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته،... وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي"

"واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان، وهو أمير أمراء السند وسكناه بالملتان فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند، وبين المولتان وسيوستان عشرة أيام، وخرج إليه قيصر فوقع اللقاء وانهزم يصر ومن معه أشنع هزيمة، وتحصنوا بالدينة، فحصرهم ونصب المجانيق عليهم واشتد

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٣٩٧.
(٢) رحلة ابن بطوطة ٣٩٨.

عليهم الحصار، فطلبوا الأمان، فلما نزلوا إليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم، ويوسط بعضهم، ويسلخ آخرين منهم، ويملأ جلودهم تبنا ويعلقها على السور، فكانت تلك الجلود مصلوبة ترعب من ينظر إليها وجمع رؤوسهم في وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك[١]".

في ذلك الوقت نفسه وصل ابن بطوطة و أقام في مدرسة، فكان لا يغمض له جفن من شدة ما كان يجده من عفن الأجساد الميتة.

وتثبت أشياء عديدة من هذه المقتبسات:

١) كان السومريون يربطون مستوطنة آبائهم بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفي.

٢) لم يكونوا من الهندوس ديانة، وما كانوا يحبون التبعية للهندوس، إلا أنه يوجد فيهم مع ذلك بعض الأشياء التي تميزهم عن عامة المسلمين.

٣) كانت حكومة السند تابعة لسلاطين دهلي، بحيث كان يبعث لهم السلطان أميرا أومندوبا ساميا يقيم مع السومريين.

٤) كانت السند تابعة لحكومة دهلي في تنظيماتها الإدارية من خلال تبعيتها لحكومة الملتان.

مذهب السومريين

لا شك أنه ثبت من الكتاب الدروزي أن السومريين كانوا من الفرقة الإسماعيلية، ولكن هناك أشياء أخرى يمكن أن نعرفها من بيان ابن بطوطة،

(١) رحلة ابن بطوطة ٣٩٩.

يتضح مما ذكره ابن بطوطة أن السومريين كانوا أقاموا في الهند وقد جاءوا مع الفاتحين العرب للهند. ومن الظاهر أنهم ليسوا من شعب راجبوت، ولكنه من الظاهر كذلك أنهم كانوا يتبعون عادات غير إسلامية في المأكل والمشرب والملبس والزواج والاجتماع ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يعتبرون أنفسهم من الهندوس أو الكفار بل كانوا يعتبرون أنفسهم مسلمين وليس غير كما كانوا يتلقبون باللقب الإسلامي "فيروز"، وكانوا يعتبرون التبعية للكفار عارا لهم مما يقطع بأنهم لم يكونوا من الهندوس، فمثل هذا المذهب المخلوط لم يكن إلا مذهب القرامطة والإسماعيلية، الذين كانوا يضيفون إلى إسلامهم شيئا من العادات والتقاليد المحلية حيثما حلوا، فقد اعتبروا سيدنا عليا ﵁ تجسيدا (أوتار) للإله الهندوسي وشنو. وكانوا كذلك يأخذون بمثل هذه الأشياء مما يسهل لهم طريق تبليغ ونشر أفكارهم ومذهبهم في جميع البلدان. وقد ثبت من التاريخ قدوم المبلغين بدعوتهم إلى السند من قلعة الموت للإسماعيليين في الزمن القديم[١]. ولم يكن مذهب إخفاء العقيدة (التورية) إلا فيهم، وكانوا يتسمون بالأسماء الهندوسية أيضا، ولها أمثلة لا تزال موجودة في طائفة خوجة بومباي حتى اليوم.

وفي هذا السياق نجد قصة عجيبة ضمن أخبار مريد مريدي شيخ الإسلام زكريا الملتاني، وهو السيد جلال الدين البخاري(٧٠٧-٨٠٠هـ/١٣٠٧-١٣٠٧م). (و سيجيء ذكره في موضع ما إن شاء الله)، وكان مقيما في مدينة أوج بالسند، وكان مرجعا للخلق.

فقد كتب السيد جلال الدين أن والي مدينة أوج "سومرة" حضر إليه مرة،

(١) الدعوة إلى الإسلام ٣٠٨.

وكان محاطا بأفواج الفقراء، فأخرج سومرة أحدا منهم من المسجد من غير أن يستأذن الشيخ، فقال الشيخ: "سومرة مجنون" فأصبح مجنونا في نفس الوقت. وانتشر الخبر في المدينة فجاءت أمه إلى الشيخ، وتوسلت إليه، فعفا عنه الشيخ فعاد إليه صوابه ورشده، و دخل المسجد و قبل رجل الشيخ وانتسب إلى مريديه"[1]. فهل نفهم من هذه الواقعة أنه تاب عن أفكاره الإسماعيلية وسلك مسلك السنة؟

سقطت الحكومة الفاطمية للفرقة الإسماعيلية في مصر على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، ثم بقيت لهم سلطنة قلعة الموت الإسماعيلية النزارية بقيادة حسن بن صباح التي بدأت منذ ٤٨٣هـ/ ١٠٩١م، وانهارت تحت ضربات سيف هولاكو عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م. ومن الواضح مدى أثر سقوط المركز الإسماعيلي على الجماعة الإسماعيلية في السند. ولذلك فلا غرو إذا دخل بعض السومريين في جماعة الشيخ جلال الدين البخاري واعتنقوا مذهب أهل السنة.

جنسية السومريين

لمعرفة جنسية السومريين وحل قضيتها يجب أولا أن ننظر في بيانات المؤرخين القدامى. وقد رأينا أول بيان من قِبل ابن بطوطة من أن السومريين يرون أن استيطان أسلافهم في السند تحقق على عهد فتوحات الحجاج بن يوسف الثقفي، ويليه بيان صاحب التاريخ المعصومي السيد مير محمد معصوم، حيث يقول في الباب الثاني من كتابه:

(١) تاريخ فرشته ٢/ ٤١٦ (نولكشور).

" فتح السلطان محمود الغزنوي بلاد السند والملتان، ولكن لما ضعفت الحكومة الغزنوية على عهد السلطان عبد الرشيد بن محمود ما بين ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م ـ ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م، لانغماسه في الملذات والشهوات، خرجوا عن طاعته، واجتمعت قبيلة السومرة في تهري ونصبت على سدة الحكم شخصا كان يسمى سومرة، وفي هذه الناحية نفسها كان رجل إقطاعي قوي يدعى سعدا، فارتبطت به القبيلة السومرية، وتزوج سومرة من بنته، فولدت له ولدا سماه بهونجو، وهو الذي تسلم زمام الحكومة بعد وفاة أبيه[1]".

(ثم ذكر معصوم أحوال أولاد أولاده، وفيها أسماء عربية مثل خفيف وعمر، وفيهم كذلك أسماء هندية مثل دودا وغيره).

معظم ما كتب صاحب التاريخ الطاهري في هذا الصدد عبارة عن قصص وأساطير حيث بدأ بقصة الحب بين عمر سومرة وامرأة هندوسية، و كتب ضمنه:

"إن هذه القبيلة كانت هندوسية، وكانت ملتزمة بالديانة الهندوسية، وحكمت منذ عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م حتى عام ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م، وكانوا ساكنين حول الور، وكانت عاصمتهم محمد تور"[2].

وأما كتاب بيغ لارنامه فلم يتضمن إلا "أن القبيلة العربية "تميم" حكمت السند بعد الفتح الإسلامي فيها، ثم استولى عليها السومريون بعد قليل، واستمرت حكومتهم خمسة قرون، وكانت عاصمتهم مهاتم تور".

(١) تاريخ المعصومي ١/ ٢١٥.

(٢) تاريخ الطاهري ص٢٦٠ و ٤٨٤.

ومن العجيب أن اسم عاصمتهم مثل أسمائهم التي هي عبارة عن خليط من العربية والهندية، خليط عربي هندي، فهو محمد تور أحيانا ومهاتم تور أحيانا أخرى. ويقال إنه تحريف لكلمة محمد نفسها. ومن المحتمل أن يكون كذلك. وهي في منطقة ديرغ التي كانت بين جاج غام و بادين الحاليتين وهما وسط سوقي دنكا و باركر.

وقد نقل صاحب تحفة الكرام مقتبسا من منتخب التواريخ وهو من تصانيف الكاتب محمد يوسف كما يلي:

"لما حكم السلطان عبد الرشيد بن سلطان محمود الغزنوي وجده أهل السند ضعيفا، فاجتمع السومريون في تهري عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م، ونصبوا عليهم رجلا يدعى سومرة، وولد له ولد سمي بهونجر من بنت سعد صاحب الإقطاعات، وحكم بهونجر خمس سنوات وتوفي عام ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م"(١).

ويذكر صاحب تحفة الكرام نفسه:

"أن السومريين منحدرين من عرب السامرة، الذين جاءوا مع قبيلة تميم إلى السند في القرن الثاني الهجري، وكان بنو تميم حكاما على السند في عهد الخلافة العباسية"(٢).

ثم يضيف:

"كان دلوراي ملكا في السند، وكان قد اضطهد أخاه إمراني الصغير، فذهب الأخير إلى خليفة بغداد، فأرسل معه خليفة بغداد مأة شخص من عرب

(١) تحفة الكرام ١/ ٣٤٤.
(٢) تحفة الكرام ١/ ٣٤٤.

السامرة، والسادات، فتوطن السيد في السند، وزوّجه دلوراي من بنته"(١).

ولقد ذكر صاحب تاريخ الطاهري من بين الأسباب التي أدت إلى اختلاف بين دلوراي وإمراني الصغير الشقيقين أن الصغير كان يميل إلى الإسلام منذ طفولته، وكان قد تعلم القرآن وأسلم في قلبه من غير أن يعلن. سافر للحج وتزوج في طريقه فتاة تسمى فاطمة بطريقة غريبة. و عندما رجع من رحلة الحج وافاه أجله في سيوستان وهي مكان في السند، و فيها دفن، و صار قبره مزارا للخلائق(٢).

كانوا خليطا من العرب والهندوس

وباختصار، إن كل هذه المقتبسات لا تدل إلا على أن هذه القبيلة كانت خليطا من العرب والهندوس، فالذين اعتبروها قبيلة عربية اعتبروها من ناحية، والذين اعتبروها هندية اعتبروها من ناحية أخرى. وأما الاسم سومر كما هو ظاهر من كتاب الدروز وكما هو مذكور في التاريخ الفارسي فكان اسم مؤسس تلك الحكومة. ولذلك أطلق عليهم كلمة السومري أو السامرة، و لا علاقة لهم بالمدينة سامراء الواقعة في العراق، وكان اسم مدينة سامراء الحقيقي(سر من رأى) الذي أصبح من كثرة الاستعمال سامرة على لسان العامة. وكانت هذه المدينة بناها الخليفة العباسي المعتصم بالله عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م.

ما كانوا من راجبوت الخلص

ذهب المؤرخون الأوربيون إلى أن هذه القبيلة كانت من راجبوت حديثة العهد بالإسلام، كما ذكر كاتب المقال في موضوع السند في دائرة المعارف

(١) تحفة الكرام ١/ ٣٤٣.
(٢) تاريخ الطاهري ص٢٥٧.

البريطانية. و هذا ما يريد إثباته السيد ايليوت أيضا، إلا أن أحدا من هؤلاء لا يقدمون دليلا على ما يذهبون إليه. و لقد تبين مما جاء في كتب التاريخ الفارسية أنهم لم يكونوا من الهنود الخلص فضلا عن أن يكونوا من راجبوت.

ولم يكونوا من اليهود أيضا

لقد كتب العلامة عبد الحليم شرر ما يبعث على الاستغراب، وهو أنهم كانوا من اليهود وقد دخلوا في الإسلام حديثا، إلا أن العلامة ربما وقع في هذه الشبهة لأنه كانت هناك فرقة يهودية اسمها سامري، وكانوا ينتسبون إلى جبل شمرون في بلاد الشام. و الشيء الثاني الذي أوقعه فيها عبارة للبشاري حرفها رحمه الله لتوافق ما ادعى بطريقة عجيبة.

والواقع أن الفرق والشعوب التي ذكرها البشاري في مقدمته إنما حاول أن يبين ميزة العدد ٤ عندها، وكتب:

"وأما الأديان الذين هم ذمة، فأربعة: اليهود والنصارى والمجوس و الصابئون"[1].

ثم اعترض قائلا بأن السامرة هي الأخرى من أهل الذمة فيبلغ عددهم الخمسة بدلا من الأربعة، ثم رد على هذا الاعتراض بقوله:

"وأما السامرة فإنهم صنف من اليهود ألا ترى أن نبيهم موسى عليه السلام"[2].

هذا ما جاء في نص الكتاب، ونقل المحقق عبارة نسخة أخرى لنفس

(١) أحسن التقاسيم ٤١.

(٢) أحسن التقاسيم ٤٢.

الكتاب رد فيها على ما اعترض عليه بأن عبدة الأصنام في السند هم الآخرون يعيشون في الدولة الإسلامية، فأهل الذمة ليسوا بأربعة بل خمسة:

"وأما عبدة الأصنام بالسند فليسوا بذمة، ألا ترى أنهم لا يؤدون الجزية"[1].

فأهل الذمة لا يزيدون على أربعة أصناف.

فقد ادعي المرحوم عندما رأى سامرة والسند، وبعدما ربط بينهما، ادعاء لا يقوم على أساس، و لا يزال أحسن التقاسيم كتاب البشاري بين أيدينا يمكن لأي شخص أن يصل إلى حقيقة الواقعة.

الملوك السومريون

لقد تضمن كتاب تحفة الكرام أسماء الملوك ومدد حكومتهم كما يلي:

١) سومرة	مدة طويلة
٢) بهونجر بن سومره الأول	١٥عاما، وتوفي عام ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م.
٣) دودا الأول بن بهونكر	٢٤عاما، وتوفي عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.
٤) سنغهر	١٥ عاما
٥) حفيف أو خفيف	٣٣ عاما
٦) عمر (١)	٤٠ عاما
٧) دودا الثاني	٤ عاما

(١) أحسن التقاسيم ٤٢ حاشية الكتاب.

٨) باتهو	٣٣ عاما
٩) غنهرا الأول	١٦ عاما
١٠) محمد تور	١٥ عاما
١١) غنهرا الثاني	عدة سنوات
١٢) دودا الثالث	١٤ عاما
١٣) تائي	١٥ عاما
١٤) جيتسر	١٨ عاما
١٥) بهونكر الثاني	١٥ عاما
١٦) حقيف أو خفيف الثاني	١٨ عاما
١٧) دودا الرابع	٢٥ عاما
١٨) عمر سومرا	٣٥ عاما
١٩) بهونكر الثالث	١٠ عاما
٢٠) همير (أمير)	الملك الأخير
	٣٦١ عاما

لا يتضمن هذا ما ذكر من سنوات مبهمة للملك الحادي عشر، كما لا يتضمن مدة سنوات حكم الملك الأخير، فإذا أضفنا هذه السنوات العديدة إلى ما سبق، فإن مجموع مدة الحكم يبلغ ٣٧٥ عاما على الأقل. وإذا كانت بداية حكمهم منذ سقوط السلطان عبد الرشيد عام٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م، فإن نهايتهم ستكون عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، ولكن حكمهم سقط ـ كما سبق ـ على عهد السلطان محمد تغلق عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، ولذلك فإن مدة ٦٧ عاما التي ذكروها مدة حكم هؤلاء الملوك تبدو زائدة على المدة الواقعية.

نهاية السومريين

في عهد السلطان محمد شاه تغلق تبدأ الصراعات الداخلية بين سلاطين دهلي والسومريين، حيث يخرج شخص يدعى طغ المغولي في مملكة الكجرات على سلاطين دهلي في أواخر أيام السلطان محمد شاه تغلق. وعندما يصل السلطان إلى الكجرات يهرب منها إلى تهتهة في السند، ويلوذ بالسومريين، فيطارده السلطان إلى تهته ـ، و يواجه مقاومات مشتركة من قبل السومريين والمغول، ولكن السلطان محمد شاه يفاجئه مرض وينحرف مزاجه إلى أن يموت فيها، فيتكبد الجيش الذي فقد ملكه، خسائر فادحة على أيدي المغول والسومريين، فينصبون عليهم فيروز شاه تغلق أخيرا، ويتخلصون من المشاكل التي تحيط بهم من جهتين، ويرجعون قافلين إلى دهلي، وذلك في عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م[1].

ولكن بعد عدة سنوات، عند ما يقدم السلطان فيروز شاه تغلق هنا عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، يجد هنا حكومة الجام، ويجد على سدة الحكم جام أنر، وابن أخيه بانهبنة. وهذا اللقب (جام) كان لقب ملوك السمه مما يدل على أن هذا العصر عبارة عن نهاية عهد السومريين، وبداية عصر السمه. ولقد أورد في تحفة الكرام أن عام ٧٥٢هـ١٣٥١م هو عصر بداية السمه، مما يدل على أن هذا الانقلاب إنما حدث بعد حملة السلطان محمد شاه تغلق فورا، وكان للمسلمين حسب ما قال فرشته أكبر دور في هذا الانقلاب.

يظهر أن عامة المسلمين لم يروا من المناسب بعد ثورة الإسماعيليين أو

(١) تاريخ فيروزشاهي، ضياء باراني ص٥٢٣ ـ ٥٢٥.

السومريين الشبيهين بالهندوس إلا أن تم القضاء علي السومريين على أيدي الشعب المحلي الحديث العهد بالإسلام، فقام زعيم من شعب السمه يدعى أونر بقتل أخر ملوك السومريين همير (أمير) أو أرماييل وهو شكل محرف آخر لنفس الاسم وأرسى قواعد حكمه فيها.

الحاجة إلى التحقيقات الجديدة

إن قائمة الملوك السومريين وتحديد مدد حكمهم يتطلب مزيدا من التحقيق والبحث من الناحية النقدية. ويجب على المؤرخين الهنود أن يبذلوا شيئا من جهودهم في هذا المجال.

فقبل عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، بعام أو بعامين مثلا، عندما وصل السلطان خوارزم شاه فرارا من التتر إلى السند أسرع الملك السومري المدعو بـ جلسي إلى السفن، وحمل فيها متاعه ولاذ بجزيرة ما(١). وهذا الاسم جلسي لا يوجد في القائمة، وأما النسخة النولكشورية فلا يوثق بها. ومن الممكن أن يكون هذا الاسم شكلا محرفا لاسم جنيسر الموجود برقم ١٤ في قائمتنا. و كذلك في عام ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، عندما ورد ابن بطوطة في السند كان أونار ملكا. وهذا الاسم هو الآخر لا يوجد في القائمة. ومن الممكن أن يكون هذا هو نفس الاسم عمر الذي يوجد في قائمتنا برقم ١٨.

السمه

وأما الذي استولوا على السند بعد السومريين كانت عاصمتهم (تهته ـ) التي يسميها العرب الديبل.

(١) تاريخ فرشته ٢/ ٣١٦.

أما كلمة السمه فيجمعها المؤرخون الفرس "سمان" كما يذكرها المؤرخون الأوربيون بإلحاق حرف s في آخر الكلمة مثل (sammas) مما انخدع به بعض الناس فظنوا أن اسمهم "سماس". وكان هؤلاء الناس مسلمين وإن كان هناك اختلاف بين المؤرخين فيما إذا كانوا مسلمين من قبل أو دخلوا في الإسلام فيما بعد. كانت عاصمتهم في الديبل (تهته ـ) ولقبهم الرسمي جام، وكانت أسماؤهم خليطا من العربية والهندية. فكان اسم ملكهم الشهير على سبيل المثال جام نندا نظام الدين، وكانوا من القوة والسيطرة بحيث ظلوا يقاومون سلاطين دهلي مقاومة شرسة لمدة طويلة ما بين ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، و ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م، وظلوا يسيطرون على حكم السند لمدة استغرقت ١٧٥عاما.

ولقد اختلف المؤرخون في نسبة هذه القبيلة أيضا، بحيث اعتبرها بعض مؤرخي السند من النسل العربي ونسبهم إلى أولاد أبي جهل، بينما ذهب المؤرخون الفرس مثل فرشته وأبي الفضل فيما بعد إلى أنهم من أولاد الإمبراطور الفارسي جمشيد لما كانوا يتلقبون به من لقب جام، على ما يوجد بين جام وجم من تشابه لفظي غير أن هذا خطأ مطلق. وقد اعتبرهم المؤرخون الأوربيون(١) مثل أيليوت وكاتب المقال في دائرة المعارف البريطانية(٢) والإسلامية(٣) ومن المسلمين الجدد من راجبوت، إلا أن أحدا من هؤلاء عدا الأخير لم يقدم دليلا على ما ذهب إليه من رأي. وأما دليل الأخير فيتلخص في أن جام لقب ملوك راجبوت في كتش ونوانكر.

(١) تاريخ الهند ١/ ٤٩٧.
(٢) مقال في السند، ٢٥/ ١٤٣.
(٣) مقال السمه، الطبعة الإنجليزية.

والواقع أن هذا الرأي يؤيده ما أورد بعض المؤرخين القدامى أيضا مثل ما ورد في تاريخ المعصومي من "أن السمه كانوا جاءوا من كتش"[1]. ويظهر مما جاء في فتح السند (ججنامه) أن السمه كانوا متواجدين في السند حتى قبل عصر محمد بن القاسم الثقفي عام ٩٦هـ/ ٧١٤م. فلما وصل محمد بن القاسم في مستوطنتهم استقبلوه بالطبول والمزامير، وفرحوا به كثيرا، فعين محمد بن القاسم زعيما عربيا كان يسمى "خريم" بن عمر أميرا عليهم[2]. ولقد روى في تاريخ الطاهري:

"أن هذه الدولة التي كانت على ساحل البحر أصبحت هكذا تابعة للسمه الذين ما زال أولادهم ساكنين هناك، ومنهم جاء راي بهارا وجام سينا وشونهي وملك كتش"[3]، إلا أن البلاذري الذي يعود تاريخ تأليفه إلى عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م يورد في كتابه:

"ثم ولي ثغر السند عمر بن حفص بن عثمان هزارمرد، ثم داود بن يزيد بن حاتم، وكان معه أبو الصمة المتغلب اليوم، وهو مولى لكندة"[4].

فهل يفهم من هذا أن هذا هو الصمة الذي عرف أولاده بقبيلة السمة فيما بعد، والذين يمكن أن يكونوا قد استوطنوا في كتش ثم نهضوا منها عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، وانتزعوا السند من أيدي السومريين.؟

(١) تاريخ المعصومي ص٢١٣.
(٢) فتح السند (ججنامة) ٢٠٠.
(٣) تاريخ الطاهري ص٢٦٨.
(٤) فتوح البلدان ١/ ٦٩٧.

ملوك السمه

كان عصر السمه متأخرا جدا يعني أنهم عاشوا في الوقت الذي كانت فيه حكومة المسلمين قوية منيعة في دهلي، ولذلك فإن أسماء ملوك السمه وألقابهم وأزمنتهم مسجلة بكل دقة وحيطة. وفيما يلي تفصيل هؤلاء الملوك كما أورد فرشته في تاريخه:

"انتقلت حكومة السند بما بذله المسلمون من جهد على عهد السلطان محمد تغلق من أيدي السومرين إلى أيدي ملوك السمه، وكان معظم زعماء هذه القبيلة قد تشرفوا بالإسلام، وكانوا خاضعين لسلاطين دهلي غالبا، غير أنهم كانوا يشقون عصا الطاعة أحيانا.

وأول من تسلم منهم الحكم في الإسلام هو جام أنرا(أنار أو ونار)، وكان رجلا عاقلا حكيما، حكم ثلاث سنوات ونصف عام، ثم خلفه أخوه الصغير جام جونا، وهو الآخر كان عادلا، ثم خلفه ابنه جام ماني الذي خالف سلطان دهلي، فحمل عليه السلطان فيروز شاه عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، ففشل في البداية، ثم رجع السلطان من الكجرات وقاتله إلى أن نزل جام ماني للصلح"[1].

ولقد ذكر أحوال هذه الحرب والهدنة سراج عفيف المؤرخ الشهير وهو شاهد العيان لهذه الأوضاع في عصر السلطان فيروز شاه بكل تفصيل، إلا أنه سمى جام هذا العصر أونر وأشرك معه ابن أخيه الذي سماه بانهيله. ويمكن تقدير قوة السمه من واقع أن الجام قاوم السلطان فيروز شاه سلطان دهلي بجيش

(١) تاريخ فرشتة ٢/ ٤١٧.

كان يضم ٤٠٠٠٠ من المشاة، و٢٠،٠٠٠ من الفرسان، ولم يستطع السلطان أن يحرز الانتصار عليه بسبب ما واجه من قلة المدد والرعي والكلأ إلى اضطر لينحرف عن السند إلى مملكة الكجرات. ثم عاد في السنة التالية نفسها وهاجم على الجام هجوما عنيفا أجبره على النزول للهدنة، وذلك في عام ٧٦٢هـ الموافق لعام ١٣٦١م.

كيف حصلت هذه الهدنة؟

كان السيد جلال الدين حسين البخاري الذي كان وليا شهيرا من أولياء الله تعالي في ذلك العصر، وقد جاء ذكره في السياق الديني لقصة السومرة يقيم في أوج، فأوفد الجام بعد التشاور رسولا إلى حضرته يطلب منه أن يتدخل بينه وبين السلطان ويستعفي له. فجاء السيد جلال الدين البخاري واستقبله الملك بكل احترام وإجلال. فقام السيد جلال الدين بطمأنة الطرفين، واصطحب معه الجام وشريكه في الحكومة بانهيلة بنفسه إلى السلطان فيروز شاه، واتفقوا على شروط الهدنة[1].

أسماء ملوك السمه

لقد حاول مير معصوم وفرشته تحديد أسماء ملوك السمه وأزمان حكومتهم إلا أنه يوجد اختلاف بينهما في بعض الأسماء الأولى، حيث لم يوجد مثلا ذكر خير الدين في تاريخ فرشته بل يوجد مكانه جام ماني، وربما يكون الاسمان لشخص واحد كما يوجد اختلاف يسير في الأسماء الأخيرة.

١) جام أونار أو ونار أو أونر	٣ سنوات وستة شهور

(١) لمزيد من التفصيل يرجي مراجعة تاريخ فيروز شاهي. ص٢٤٠ ـ ٢٤١، طبعة كلكته.

٢) جام جونا شقيق جام١٤ عاماوهو معاصر السلطان علاء الدين الخلجي

٣) جام تماجي	١٥ عاما
٤) جام خير الدين	١٦ عاما
٥) جام بانهيله	....
٦) جام تماجي	....
٧) جام صلاح الدين	١١ عاما
٨) جام نظام الدين بن صلاح الدين	عامين
٩) جام على شبير بن نظام الدين	٦ أعوام
١٠) جام كرن بن جام تماجي	يوم و نصف

هنا ينتهي سلسلة أسرة جام أونر، ويجلس على سدة الحكم من نفس قبيلة السمه هله، وأول ملوك هذه القبيلة كان اسمه فتح خان.

١١) فتح خان بن سكندر	١٥ عاما
١٢) جام تغلق بن سكندر	٢٨ عاما
١٣) جام مبارك (كان من أقرباء جام تغلق)	٣ أيام
١٤) جام سكندر بن جام فتح خان بن جام سكندر	عام ونصف

١٥) جام اري ورن (مسلم) جاء من كتش عام ٨٥٨هـ

١٦) جام سنجر (زعيم من السمه)	٨ اعوام
١٧) جام ننذا نظام الدين	٦٢ عاما
١٨) جام فيروز بن جام ننذا	آخرملوكهم

في عصر الملك جام ننذا عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م، حمل الشاه بيغ أرغون على السند من قندهار إلا أنه عاد بالفشل، ثم حدثت معركة بعد الملك جام ننذا، بين ابنه الملك جام فيروز وبين قريبه المزعوم جام صلاح الدين للاستيلاء على سدة الحكم، وكان جام صلاح الدين أخا حرم السلطان مظفر ملك مملكة الكجرات، فنهض لنصرته السلطان المظفر الكجراتي، فلما رأى ذلك جام فيروز استنجد بالملك بيغ أرغون القندهاري، فانتهز الشاه بيغ هذه الفرصة، واستولى على السند عام ٩٢٧هـ/ ١٥٥٢م، وبذلك انتهت حكومة السمه[1].

إن السنوات التي حسبت لهؤلاء الملوك يبلغ مجموعها ١٩٢ عاما. والواقع أن السنوات بين عام ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١م و عام ٩٢٧هـ/ ١٥٥٢م، لا تبلغ إلا ١٧٥عاما. وربما حسب لجام ننذا أكثر مما حكم، وقد يكون سبب زيادة الأسماء أن كان شخصان من الأسرة يحكمان معا كما يظهر من بيان سراج عفيف[2].

دين السمه

لا شك أن السمه كانوا من المسلمين. وأما متى أسلموا وإلى أي فرقة من الفرق الإسلامية كانوا ينتمون؟ فهذا سر من أسرار التاريخ لم تبذل محاولات لكشف القناع عنه حتى الآن.

لقد حاول المؤرخون استنادا إلى أسمائهم الهندية والعربية أن يحددوا تاريخ الانقلاب الديني فيهم، حيث اعتبر فرشته الملوك الأربعة الأولين أنهم

(١) تاريخ فرشته ٢/ ٣٢٠.
(٢) تاريخ فيروز شاهي ص ١٩٩ و ٢٤٧، طبعة كلكته.

من الهندوس أساسا على هذه الأسماء الأربعة الأولى، بينما بدأ سلسلة الملوك المسلمين بالملك الخامس المسمى جام صلاح الدين، حيث يكتب:

"ويظهر من أسماء الجماعة المذكورة وخاصة من اسم تماجي أنهم من الكفار"[1].

ولكن الواقع أنه لا ينبغي الانخداع بأسماء هذا الشعب و صيغها وأحوالها، لأن الاسم الأول نفسه عبارة عن جام أونر. وقد تبين من رواية ابن بطوطة أن السامري الذي كان يسمى أونار في عصره لم يكن هندوسيا، وكان يعد نفسه من المسلمين، وكان ساخطا على التبعية والخضوع للهندوس لدرجة أنه أعلن تمرده وثورته على سلاطين دهلي، وتلقب بالملك فيروز. إن الملك الذي اعتبر عصره عصرا زاهرا لنشر الإسلام وتعاليمه، جاء اسمه جام ننذا بن بانهيله[2] كما أن "جام راي ورن" اسم هندوسي لكنه عندما جاء من كتش واستولى على الديبل (تهته ـ) أعلن أنه ما جاء إلا لحماية بلاد المسلمين[3].

يبدو أنهم كانوا يتسمون بداية الأمر بأسمائهم القومية الأصلية لكنهم بدءوا يتخذون ألقابا عربية مثل صلاح الدين وغيره اتباعا وتقليدا لسلاطين دهلي، لأننا نرى أن الجام الذي اتخذ لقب خير الدين كان يقيم مع والده في دهلي منذ طفولته، كما أن آخر ملوكهم جام ننذا نظام الدين يتكون اسمه من اسم عربي وهندي معا.

يبدو أن ننذا اسمه القومي بينما يشكل نظام الدين لقبا ملكيا له، وكذلك إن

(١) تاريخ فرشته ٢/ ٣١٨، طبعة نولكشور.
(٢) تاريخ الطاهري ص ٢٧٣.
(٣) تاريخ المعصومي ص ٢٣١.

الجام الذي دارت بينه وبين السلطان فيروز رحى الحرب كان اسمه "جام أونر" كما ذكره شمس سراج[1] وهو اسم هندوسيي إلا أن القرائن تدل على أنه كان مسلما وليس هندوسيا. والظاهر أنه إذا كان هذا الرأي بأنهم كانوا من العرب صحيحا فلا بد أن يكونوا مسلمين من البداية. وإن كانوا من الهندوس فأعتقد أنهم أسلموا قبل أن يستولوا على الحكم وليس بعد ذلك، بل وكانوا من أهل السنة. وقبل أن نقدم القرائن التي أراها، أريد أن أذكر الشيخ وسلسلته الذي تكون محاولاته، على ما أعتقد، قد لعبت دورا في دخولهم في الإسلام. ولقد ذكر آرنولد اعتمادا على مجرد ظنه وقياسه أن هؤلاء نالوا نعمة الإسلام على أيدي التجار العرب[2]. ولكنني أري أن التصوف وليس التجارة كان سببا لدخولهم في الإسلام.

شيخ الإسلام بهاء الدين زكريا والسيد جلال الدين البخاري

لقد مضى فيما سبق أن الأسرة الهبارية التي كانت تحكم السند انتقل بعض أفرادها إلى الملتان بعد سقوط سلطتهم، ومنهم كانت الشخصية الخالدة التي عرفت باسم شيخ الإسلام بهاء الدين زكريا الملتاني، وامتد زمنه منذ عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م إلى عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م. وكان قد رحل إلى جميع كبرى بلدان العالم الإسلام. وتحولت الملتان بفضل شخصيته الفذة إلى مركز كبير للعلم والتصوف.

وكان السيد جلال الدين البخاري وهو شخصية عظيمة شهيرة في مجال

(١) تاريخ فروز شاهي لشمس سراج ص١٩٩.
(٢) الدعوة إلى الإسلام ٣٠٧.

العلم والتصوف سافر من بخارى إلى الملتان وبايع على يد الشيخ بهاء الدين، وكان السيد جلال الدين حسين البخاري الذي سبق ذكره مرتين حفيد من أحفاده.(ولد عام ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م، وتوفي عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م).

وكان من عادة كبار الصوفية في ذلك العهد أنهم كانوا يختارون المؤهلين من مريديهم لتربيتهم الخاصة، ثم يبعثونهم إلى مناطق نائية لإرشاد الناس وتعليمهم الدين الإسلامي والقيام بخدمتهم. وكان شيخ الإسلام زكريا الملتاني قد أرسل حسب هذه العادة السيد جلال الدين البخاري الأول إلى مدينة أوج في السند ليقوم بهداية الناس وإرشادهم، وكان ذلك في أواخر حكومة السومريين. وقد رأيتم كيف أصبح سومرة والي مدينة أوج معتقدا في شخصية الشيخ ومريدا لها.

يظهر من تاريخ الطاهري أن شيخ الإسلام زكريا الملتاني كان على علاقة وثيقة ليس بالسند فقط بل بشعب السمه أيضا.(كتب الطاهري سومرة بدلا من السمه ولكن العصر الذي حدده له يقتضي أن يكون السمه بدلا من سومرة). وربما كان هذا هو السر في إيفاد أكبر مريديه إلى هذه المنطقة، ما قاله الطاهري يتلخص فيما يلي:

"منذ عام ٧٠٠ هـ المصادف لعام ١٣٠٠م إلى ٨٤٨هـ المصادف لعام ١٤٣٩م، استمرت قبيلة هندوسية تدعى سومرة (السمه) تحكم السند وكانت عاصمته محمد تور، لقد رأيت أنا وكثيرون غيري آثاره المتهدمة الخربة في منطقة ويرك. وتحول كثير من سكانها بعد دمارها وخرابها إلى منطقة سكهورا (سكهرة) التي بنيت في عصر جام السمه. وبها عمروا قرية سموها هي الأخرى محمد تور، وبها كان يسكن شيخ الشيوخ ملا خليفة السندي مخدوم بهاء الدين

زكريا، وقد نال شهرة واسعة في الهند وغيرهم من كبار الشخصيات والإقطاعيين الذين كانوا من مريديه"[١].

وقد سبقت القصة الثانية من أن الشيخ جلال الدين البخاري مريد الشيخ بهاء الدين الذي كان بعثه الشيخ إلى السند بولاية منه للتوجيه والإرشاد. كان حفيده السيد جلال الدين حسين البخاري الذي يمتد زمنه من ٧٠٧هـ/١٣٠٧م إلى ٨٠٠هـ/١٣٩٧م و الذي كان يقيم في مدينة أوج كان قد بايع سومرة والي مدينة أوج، وكما قال فرشته:

"ذهب إلى المسجد وقبل قدم السيد واستعفى من الفقراء وأصبح من المقربين"[٢]. كان السيد البخاري يقوم دائما بالوعظ والتذكير في مدينة أوج مما كان يترك أثرا كبيرا على كبار الشخصيات ويحثهم على الإصلاح والتربية[٣].

يظهر من سيرة السيد رحمه الله أن قصة انضمام الوالي السومري إلى مريدي الشيخ حدثت حوالي عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، الذي استولى بعده بعدة سنوات شعب السمه على مقاليد الحكم. ولذلك من المحتمل أن السمه الشعب الحاكم فيما بعد هو الآخر ربما كان يكن للشيخ الحب والاحترام.

عندما هاجم السلطان محمد شاه تغلق على عاصمة شعب السمه الديبل (تهته ـ) عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، فاجأته المنية هناك. وكذلك لما حمل عليها السلطان فيروز شاه عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م لأول مرة، باء بالفشل والخيبة، وهرب إلى مملكة الكجرات.

(١) تاريخ الطاهري ص ٢٥٧.
(٢) تاريخ فرشته ٢/٤١٦، طبعة نولكشور.
(٣) تاريخ فرشته ٢/٤١٦.

فهذه الوقائع كان الناس يعتبرونها من كرامة الشيخ، وصاغوا فقرة باللغة السندية سارت على جميع الألسنة معناها: "ببركة الشيخ مات واحد و خاب آخر"[١].

والمراد بالشيخ في هذه الفقرة شخصية الشيخ بهاء الدين الملتاني أو السيد جلال الدين البخاري.

وفي السنة التالية عندما هاجم السلطان فيروز شاه مرة ثانية على الديبل (تهته ـ)، فما وجد الجام أونر و بانهبله من الحيل إلا أن يبعثا مبعوثا إلى السيد جلال الدين حسين البخاري في أوج يطلبان منه أن يتجشم السفر، ويعقد بينهما وبين السلطان صلحا، فكان أن جاء السيد رحمه الله وأجرى بينهم الصلح على شروط مناسبة مقبولة للطرفين. وقال للسلطان:

"كان في الديبل امرأة ولية لله وبدعائها كانت هذه المدينة حصنا منيعا لا يفتح و قد توفيت قبل أمس"[٢].

تدل هذه الوقائع دلالة واضحة على مدى ما كان يكن جام السمه من حب واحترام عميقين للشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني والسيد جلال الدين حسين البخاري رحمهما الله. وليست تدل هذه الوقائع على كونهم مسلمين فقط بل على كونهم من أهل السنة. ويبدو أن هذه الأسرة السهروردية الملتانية نفسها كانت سببا في هدايتهم.

ليست هذه الوقائع من أواخر أيام السمه بل حدثت في أوائلها. وهذا يشهد

(١) تاريخ فيروز شاهي ص٢٣١.
(٢) تاريخ فيروز شاهي ص ٢٤١.

لما قلت من أن شعب السمه كان مسلما من قبل وليس من بعد، وخاصة إذا رأينا بالإضافة إلى هذه الوقائع أن المسلمين لعبوا أكبر الدور في تنصيب شعب السمه على سدة الحكم. و كما قال فرشته:

"انتقلت الحكومة بما بذله المسلمون من جهد في أواخر عهد السلطان محمد تغلق من أيدي السومرين إلى أيدي ملوك السمه، وكان معظم زعماء هذه القبيلة قد تشرفوا بالإسلام"[1].

والظاهر أن شعب السمه إن لم يكونوا مسلمين من قبل فما الذي كان يبعثهم على المواساة والتعاضد مع المسلمين.

المدن الأخرى في السند و ضواحيها

بالإضافة إلى المنصورة والملتان كانت هناك دويلات ومستوطنات صغيرة أخرى للعرب في السند وضواحيها، توجد آثارها إلى نهاية القرن الرابع قبل السلطان محمود الغزنوي، منها ما فتحها سبكتكين أبو السلطان، ولكن معظم هذه الدويلات فتحها السلطان بنفسه وأدخلها في ممتلكاته، ولقد خص الرحالون العرب في القرن الرابع الهجري بالذكر الأمكنة التالية.

الديبل أو تهته

كانت ميناء شهيرا، وكان العرب كما سبق أن ذكرنا يسمونها بالديبل بينما كان الفرس يسمونها بتهته ـ[2]. وهذه هي المدينة التي كانت عاصمة السمه، وهاجم عليها السلطان فيروز شاه ملك دهلي فباء بالفشل، إلى أن تم الصلح بين

(١) تاريخ فرشته ٢/ ٣١٧.
(٢) آئين أكبري (السند).

الطرفين بوساطة الشيخ السيد جلال الدين خليفة مريد شيخ الإسلام زكريا الملتاني[1]. ولقد عاش على أرض الديبل كثير من كبار المحدثين والعلماء ذكرهم العلامة سمعاني المتوفى عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م في كتاب الأنساب[2]، وكانت مركزا للتجار العرب لكونها مرفأ، ويمكن تقدير سكانها من واقع أنه في عام ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م وهو عصر الخليفة العباسي المعتمد عندما هزت بزلزلة أرضية[3] وانهار بسببها كثير من البيوت والمنازل كان عدد الذين لقوا حتفهم تحت أنقاض البيوت قد بلغ مئة وخمسين ألف نسمة. ولقد كتب البشاري(عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) أن "الديبل: بحرية قد أحاط بها نحو من مائة قرية أكثرهم كفار، والبحر يسطع جدارات المدينة، كلهم تجار كلامهم سندي وعربي، وهي فرضة الكورة كثيرة الدخل".

عسيفان

حدد البلاذري موقع هذه المدينة وسط الملتان وكشمير وكابل، ولعل هذا غير صحيح. ولكن توجد أسماء مماثلة له في السند. ولم يستطع الدكتور آرنولد هو الآخر أن يعثر على حقيقتها عند ما كتب الدعوة إلى الإسلام[4]، وحاول التحقيق أيضا في هذا الموضوع بواسطة العلامة شبلي النعماني[5]. ولكني أظن أن أصل هذا الاسم "أسيوان" التي يمكن أن نسميها سيوان أيضا. كانت توجد مدينة بهذا الاسم بين دهلي والسند.

(١) تاريخ فيروزشاهي طبعة كلكته ص ٢٤١.
(٢) كتاب الأنساب ٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤.
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٦٣.
(٤) الدعوة إلى الإسلام ٣٠٦.
(٥) مكاتيب شبلي ٢/ ١٧.

وقد جاء ذكر هذا الاسم في كتب التاريخ الفارسية[١]، كما ذكرها ابن بطوطة أيضا وهي واقعة الآن في مديرية كراتشي. وقد اعتبر بعض المؤلفين سيوستان وسيوان مدينة واحدة.

وعلى كل حال، كانت هذه المدينة يقطنها التجار المسلمون في مطلع القرن الثالث الهجري في عصر الخليفة العباسي المعتصم عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م.

تنبلي

وهذا أيضا كان اسما لمدينة في السند، وكان في سكانها عدد من المسلمين والتجار المجهزين عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م[٢].

بوقان

ذكر البلاذري منطقة في السند اسمها بوقان أو بوكن، و كتب أن "أهل البوقان اليوم مسلمون"[٣]، وكان في أواخر القرن الثالث الهجري.

قصدار

وقد سماها بعض الناس قزدار أيضا. وسميت هذه المدينة الملتان في فتوحات سبكتكين[٤]، وكانت واقعة على حدود الهند وأفغانستان، وكان يسكنها الخوارج من المسلمين وهم الذين كانوا يحكمون. وربما في وسط القرن الرابع عندما وصل إليها المتكلم والمناظر المعتزلي أبو الحسن علي بن لطيف، وجد فيها سكان الخوارج وحكومتهم، وذكر أن الأمن سائد في بلادهم:

(١) خزائن الفتوح لأمير خسرو.
(٢) أحسن التقاسيم ٤٧٩.
(٣) فتوح البلدان للبلاذري ١/ ٦٨٤.
(٤) طبقات ناصري ص٧.

"كنتُ مجتازاً بناحية قزدار مما يلي سجستان ومُكران وكان يسكنها الخليفة من الخوارج وهي بلدُهم ودارهم فانتهيت إلى قرية لهم وأنا عليل فرأيت قَرَاح بطيخ فابتعت واحدة فأكلتها فحممت في الحال ونمت بقيّة يومي وليلتي في قراح البطيخ ما عرض لي أحدٌ بسوء، وكنت قبل ذلك دخلت القرية فرأيت خيّاطاً شيخاً في مسجد فسلّمت إليه رِزْمَةَ ثيابي وقلتُ: تحفظها لي؟ فقال: دَعها في المحراب، فتركتها ومضيت إلى القراح، فلما أتيت من الغد عُدْتُ إلى المسجد فوجدته مفتوحاً ولم أر الخيّاط ووجدت الرزمة بشدّها في المحراب، فقلت: ما أجهلَ هذا الخيّاط! ترك ثيابي وحدها وخرج، ولم أشكّ في أنه قد حملها بالليل إلى بيته وردّها من الغد إلى المسجد، فجلست أفتحها وأخرج شيئاً شيئاً منها فإذا أنا بالخياط فقلت له: كيف خلفْت ثيابي؟ فقال: أفَقَدْتَ منها شيئاً؟ قلت: لا، قال: فما سؤالك؟ قلت: أحببت أن أعلم، فقال: تركتها البارحة في موضعها ومضيت إلى بيتي، فأقبلت أخاصمه وهو يضحك ثم قال: أنتم قد تعوّدتم أخلاق الأراذل ونشأتم في بلاد الكفر التي فيها السرقة والخيانة وهذا لا نعرفه ههنا، لو بقيت ثيابك مكانها إلى أن تبلى ما أخذها غيرك، ولو مضيتَ إلى المشرق والمغرب ثم عُدْتَ لوجدتها مكانها، فإنّا لا نعرف لصّاً ولا فساداً ولا شيئاً مما عندكم ولكن ربما لحِقَنا في السنين الكثيرة شيءٌ من هذا فنعلم أنه من جهة غريب قد اجتاز بنا فنركب وراءه فلا يفوتنا فندركه ونقتله إما نتأولُ عليه بكفره وسعيه في الأرض بالفساد فنقتله أو نقطعه كما نقطع السُرّاق عندنا من المرفق فلا نرى شيئاً من هذا، قال: وسألت عن سيرة أهل البلد بعد ذلك فإذا الأمر على ما ذكره فإذا هم لا يغلقون أبوابهم بالليل وليس لأكثرهم أبوابٌ وإنما شيء يردّ الوحش والكلاب"[١].

(١) معجم البلدان: قزدار.

وحدد البشاري موقعها فقال:

"و تأخذ من التيز إلى قصدار على الساحل في طول مكران ١٢مرحلة[١]".

وهناك جغرافي عربي آخر يقول

"بين قزدار والملتان نحو عشرين مرحلة[٢]".

يقول ابن حوقل (عام ٣٦٧هـ/ ٩٩٧م)

"قزدار مدينة لها رستاق و مدن، والغالب عليها رجل يعرف بمعتز بن أحمد[٣] يخطب لبني العباس ومقامه بمدينة كيزكانان"[٤].

يقول البشاري المقدسي الذي زارها في عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م:

"قزدار قصبة طوران، في صحراء ذات جانبين بينهما واد يابس بلا جسور في أحدهما دار السلطان، فيه قلعة، و يسمى الجانب الآخر بودين، و فيه دور التجار و المطارح و هي أفسح و أنزه، و القصبة على صغرها مفيدة و إليها يقصد نفر خراسان و فارس و كرمان و من بلدان الهند، إلا أن مائها ردي إذا شرب منه الإنسان ثقل بطنه،..... و مشاربهم من قني و هن في صحراء غير كثيرة[٥]".

وخلاصة القول أنها كانت دويلة إسلامية صغيرة، فكر الأمير سبكتكين وهو أبو السلطان محمود في القضاء على الدويلات الحدودية قبل أن يهاجم على

(١) أحسن التقاسيم ٤٨٥.
(٢) تقويم البلدان ٣٤٩.
(٣) في الأصل الأردي "معين بن أحمد" وهو ربما من الأخطاء المطبعية.
(٤) كتاب صورة الأرض ص ٢٨٠.
(٥) أحسن التقاسيم ٤٧٨.

الهند، فقام بالهجوم على هذه المدينة واستولى عليها في سنة ما بين عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م و ٣٨٧هـ/ ٩٨٨م، (وهو عام وفاة الأمير سبكتكين) وأخضع حاكمها المسلم لسلطانه[١].

ويهند

وهي مدينة شهيرة من أقدم المدن الهندية، ويذكر اسمها أيضا في الفتوحات الغزنوية. استولى عليها السلطان محمود عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م، بعد استيلائه على بيشاور، وكانت للمسلمين مستوطنة في هذه المدينة أيضا قبل السلطان محمود الغزنوي. فقد ذكر البيروني في القانون المسعودي في أحوال هذه المدينة:

"واسم مدينة قصبة القندهار ويهند، وهي على وادي السند[٢]"

حدد الأستاذ ونسنت اسميث موقع العاصمة "أوهند" في كتابه تاريخ الهند القديم على نهر السند، وكتب أنه بعد ما فتح المسلمون كابل عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م، تحولت عاصمتها إلى "أوهند" التي كانت واقعة على نهر السند، وكانت عاصمة السلالة الهندوسية المسماة بـ "الشاهيه"[٣].

يقول البشاري المقدسي في أواخر القرن الرابع (يعني قبل هجوم السلطان محمود الغزنوي بـ ١٥ أو ١٦ عاما):

"و كذلك سالت فقيها آخر من أصحاب أبي الهيثم النيسابوري قد وطئ

(١) تاريخ فرشته ١/ ١٩ طبعة نولكشور.
(٢) تقويم البلدان ٣٥٧.
(٣) أرلي هيستري آف إنديا ١/ ٣٤٥.

تلك النواحي وعرف أسبابها، فصح عندي من قولهما أن ويهند هي القصبة، وأن من مدنها وذهان، بيتر، نوج لورا، وسمان قوج[١]".

كان عدد لا بأس به من المسلمين ساكنين في منطقة ويهند أيضا، حتى حكومتهم كانت قائمة، فكان للهندوس ملكهم وللمسلمين أمير هم، إلا أن أغلبية السكان كانوا من الهندوس[٢].

قنوج

كانت هناك منطقة اسمها قنوج - غير قنوج الهندية - متاخمة على حدود البنجاب والسند. وذكرها العرب بكثرة وتكرار، وبها أيضا كانت مستوطنة للمسلمين. كانت هذه المدينة قد خضعت للمسلمين بعد عام ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، حيث عند ما رأها المسعودي عام ٣٠٣هـ/ ٩١٥م كانت قد ألحقت بالملتان، وكانت خاضعة للحكومة الإسلامية[٣].

جاء البشاري بعد٧٠ أو٧٥ عاما خلون على المسعودي، وكانت المدينة حينئذ كدويلة مستقلة، يقول البشاري:

"قنوج قصبة كبيرة، ولها ربض ومدينة بها لحوم كثيرة، ومياه غزيرة، وبساتين محيطة، ووجوه حسنة، وماء صحيح، وبلد فسيح، ومتجر بيح،وكل صبيح، وموز رخيص، إلا أنها كثيرة الحريق، قليلة الدقيق، أكلهم الأرز، ولبسهم الأزر، بناء خسيس، وصيف بغيض، منها إلى الجبال أربعة فراسخ،

(١) أحسن التقاسيم ٤٧٧.
(٢) أحسن التقاسيم ٤٨٥.
(٣) مروج الذهب ١/ ١٦٨.

والجامع في الربض، رخيصة اللحوم والنهر يتخلل البلد، أكثر طعام المسلمين الحنطة، وبها علماء وأجلة"[١].

ويقول "والغلبة بقنوج وبويهند للكفار والمسلمين سلطان على حدة[٢]".

كان الرحالون والجغرافيون العرب مطلعين على قنوج أودهـ أيضا، إذ يكتب الوزير المصري المهلبي في كتابه الجغرافي (العزيزي)

"وقنوج مدينة في أقاصي الهند وهي في جهة الشرق، عن الملتان، وبينهما مئتان واثنان وثمانون فرسخا. وقنوج مصر الهند وأعظم المدن، وقد بالغ الناس في تعظيمها، حتى قالوا إن بها ثلاثمأة سوق للجوهر، ولملكها ألفان وخمسمأة فيل، قال وهي كثيرة معادن الذهب[٣]".

يقول الإدريسي الذي كتب جغرافيته "نزهة المشتاق"وهو في سسلي (إيطاليا) حينذاك عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م.

"وقنوج مدينة حسنة كثيرة التجارات، وبها يسمى الملك بقنوج، وعدت من مدن القنوج قشمير الخارجة، وقشمير الداخلة، وغيرهما، ومن قشمير الداخلة إلى قنوج سبعة مراحل[٤]".

و يقول ابن سعيد المغربي:

"وقنوج بين ذارعين من نهر كنك[٥]".

(١) أحسن التقاسيم ٤٨٠.
(٢) أحسن التقاسيم ٤٨٥.
(٣) تقويم البلدان ٣٦١.
(٤) تقويم البلدان ٣٦١.
(٥) تقويم البلدان ٣٦١.

نيرون

كانت في مدن السند الساحلية مدينة تسمى نيرون. وأخطأ بعض الناس في قراءتها فقرءوها بيرون، وإليها نسبوا أبا ريحان البيروني[1]. وكانت هذه المدينة تقع ما بين المنصورة والديبل وتبعد عن المنصورة ١٥ فرسخا.

يكتب الوزير المصري المهلبي في القرن الرابع الهجري في جغرافيته:

" البيرون مدينة أهلها مسلمون[2]".

ذكر الأستاذ اليفنستن في تاريخ الهند أن مدينة حيدرآباد الحالية في السند هي التي كان اسمها القديم نيرون.

مكران

تقع هذه المدينة على تخوم السند، وكان حاكمها العربي عيسى بن معدان في عصر ابن حوقل، وكان اسم عاصمتها كنير، وكانت نصف الملتان في سعتها.

مشكي

وكانت على مقربة منها دويلة عربية أخرى تسمى مشكي، وكان حاكمها في زمن ابن حوقل مظاهر بن راه.

كانت هذه الدويلة من الكبر والاتساع بحيث كان السفر من طرف إلى آخر يستغرق ثلاثة أيام، وكانت الخطبة تلقى فيها باسم الخليفة البغدادي.

(١) تقويم البلدان ٣٤٩.

(٢) تقويم البلدان ٣٤٩.

لقد تعبنا من كثرة الترحال والتنقل في صحراء السند فلنتجول قليلا من الوقت في جنة أرضية تنشيطا للدماغ وسرورا للقلب.

كشمير

هذه دولة يمكن أن نقول بالنسبة إليها إنها لم تفتحها ضربات سيوف السلاطين المسلمين وحيلهم، بل فتحتها نفحات العلماء والمتصوفة المسلمين وسيرهم.

اقترب منها الرحالون والجغرافيون العرب ولكن لم يدخلوها، حيث ذكروا المصاعب والعقبات المتواجدة في الطريق إليها، كانوا يعتبرون كل ما بين نهر السند إلى جبال كشمير، السند نفسه.

بعد الفاتحين العرب اصطدم السلطان محمود أيضا بجبالها، ولكن لم يقدر له النجاح والانتصار. ولكننا نجد في نفس الوقت التجار المسلمين ورجال الأعمال يترددون عليها.

وبعد وفاة السلطان محمود بثلاث سنوات هاجم السلطان مسعود الغزنوي عام ٤٢٤هـ/ ١٠٣٢م، فتحصن أهل المدينة، فحوصر معهم في القلعة من كان فيها من التجار المسلمين الذين كانوا موجودين فيها آنذاك[1].

نختم كتابي هذا بعد هذا الجولة والسياحة المختصرة الخيالية في تاريخ الهند.

(١) تاريخ فرشته ١/ ٤١.

خاتمة

لقد حاولت في الصفحات السابقة أن أعرض على القارئين مشاهد مما كان يربط العرب والهنود من علاقات متبادلة حتى قبل دخول المسلمين الفاتحين من جبال خيبر. ويمكن أن نتعرف من خلالها على كثرة مستوطنات المسلمين في هذه البلاد وعمق العلاقات بين المسلمين والهندوس وعلى قدم علاقة الإسلام بالهند.

الإضافات

وبعد ما انتهيت من الكتاب حصلت لي بعض المعلومات المفيدة التي أرى من المناسب إضافتها إلى هذا الكتاب.

سوبارة

سمى العرب مدينة من أقدم مدن مملكة الكجرات الشهيرة بسوبارة. وقد ذكرها الاصطخري في أشهر مدن الهند. ويليه البشاري الرحالة المقدسي (عام ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) الذي ذكرها في أواخر القرن الرابع الهجري (أواخر القرن العاشر) وحدد المسافة بينهما بأربعة مراحل، وقال بأن سوباره على بعد فرسخ من البحر.

إن البحوث والتحقيقات التي أجريت في الآثار القديمة خلال السنوات الأخيرة اكتشفت مدينة اسمها سوباره أيضا، مما يدل على أنها هي تلك المدينة التي ذكرها الرحالون العرب في عصورهم المختلفة.

نشر مقال في جريدة (صنداي بومبائي كرانيكل) في عدد فبراير عام ١٩٣٠م، يتناول التحقيق الأثري لسوبارة ويتلخص المقال في:

أن التحقيقات التي أجراها قسم الآثار القديمة يبدو منها أن هذه المدينة يعود تاريخها إلى الإمبراطور الشهير أشوكا ملك مغد (بيهار)، حيث عثر المحققون الأثريون هنا في عام ١٨٨١م على لوحة حجرية تذكارية للإمبراطور أشوك، ولا يزال هذا الاسم يطلق على إحدى محطات القطار غير المشهورة، نسبة إلى إحدى القرى القريبة منها. كان الأستاذ بهغوان لال إندر جي اكتشف هنا كتبة حجرية للإمبراطور أشوك، وتقع هذه المدينة الآن على بعد بضعة أميال

من بسين في منطقة بومباي، وعلى ثلاثين ميلا من مدينة بومباي نفسها.

كانت هذه المدينة من مدن الهند القديمة الزاهرة عام ٢٥٠ قبل الميلاد، مما جعلها من المدن السعيدة التي اختارها الإمبراطور أشوك لنصب كتبانه التذكارية. و قد وضعت كتبة سوبارة في متحف الأمير ويلز (غرب الهند). تحتوي هذه الكتبة على عشرة سطور امحت منها أربعة سطور أولى وكان خطها أصل الخط الهندي والحروف الهندية الأخرى، والذي يقول عنه المحقق الأوربي بوشلر إنه جاء من العراق من خلال الرحلات التجارية قبل سبعة أو ثمانية قرون من مولد المسيح.

يقول الدكتور بندارکر:

كانت سوباره ميناء شهيرا في مديرية تهانه، من منطقة بومباي، وقد سميت في المهابهارتا بـ "سوربايكا"، وهي التي سماها بطليموس في جغرافيته سوباره، و كانت مدينة مقدسة وعاصمة أبارنتا.

أما قرية سوباره الحالية فهي على موقع نفس المدينة القديمة الشهيرة، وتقع على الجانب الأيسر من خليج يبدو أنه يلتف ويدور وسط جسر القطار في بسين، ونهر وترنا. ولا تزال الأثار للعمارات والمنازل القديمة ظاهرة في سوبارة القديمة، كما يوجد هنا حوض رام وهو دليل على كونها مقاما مقدسا للهندوس.

و في عام ١٨٨١م عندما اكتشفت اللوحة التذكارية في سوبارة لم يكن فيها إلا ستمئة بيت يسكنها ألفا نسمة تقريبا ما بين برهمني و مسيحي هندي و مسلم. و المسلمون من العرب و الفرس الذي جاءوا قبل ستة قرون للأعمال التجارية و استوطنوا هناك.

يتبين من هذه الخلاصة أن المسلمين كانوا ساكنين هنا أيضا مثل المدن التجارية الأخرى على السواحل في مملكة الكجرات، فإذا كان الدليل يتوفر على آثار هذا العمران قبل الميلاد بقرنين ونصف من خلال الكتبة الحجرية للإمبراطور أشوك، وجغرافية بطليموس، فالدليل على وجودها متوفر أيضا من كتب الرحالين العرب المسلمين بعد ألف عام من المسيح.

الطبيب الزط بين العرب

لقد جاء في أصل الكتاب أن الزط كانوا ساكنين في العراق على عهد الصحابة في القرن الأول الهجري والقرن السابع الميلادي، إلا أنهم وصفوا هناك بصفاتهم العسكرية غير أن هناك دليلا آخر على إنجازاتهم العلمية نجده في أوثق المراجع والمصادر، حيث ذكر الإمام البخاري عام ٢٥٦هـ/ ٨٩٦م، في كتابه "الأدب المفرد" قصة حدثت على عهد الصحابة ﵃، وهي أن عائشة أم المؤمنين ﵂ مرضت مرة، فطلب أبناء أخيها طبيبا من الزط لمعالجتها.

فقد روى أن عائشة ﵂ دبرت أمة لها، فاشتكت عائشة، فسأل بنو أخيها طبيبا من الزط، فقال: إنكم تخبروني عن امرأة مسحورة سحرتها أمة لها، فأخبرت عائشة، قالت: سحرتيني؟ فقالت: نعم، فقالت ولم لا تنجين أبدا، ثم قالت بيعوا من شر العرب ملكة"(١).

الأحذية الملوكية السندية

فقد ورد في موضع من المواضع من الكتاب ذكر أحذية كانت تصنع في كهنبايه، وتصدر من المنصورة إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية في العراق، و

(١) الأدب المفرد، باب بيع الخادم من الأعراب ص ٢٧.

يثبت من كتاب الورع للإمام أحمد بن حنبل (المتوفى عام ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) والذي عثر على مخطوطته حاليا في الجزائر وطبع من مصر عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م أن الأحذية السندية كانت من الجمال والزخرفة بحيث لم يكن يلبسها الثقات من الناس، وكانت لا تجدر إلا بالأمراء وأبنائهم.

ثبت المراجع

١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

٢) تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار الفكر، بيروت.

٣) سبحة المرجان في آثار هندوستان للسيد غلام علي آزاد البلكرامي، تحقيق الدكتور محمد فضل الرحمن الندوي، معهد الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية الهند.

٤) مسند أحمد

٥) صحيح مسلم

٦) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق الدكتور عباس إحسان، دار صادر بيروت.

٧) فتوح البلدان للبلاذري، دار الكتب العلمية، بيروت عام ١٩٩١م

٨) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم الكتب، بيروت.

٩) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لشمس الدين محمد بن أحمد البشاري المقدسي، الطبعة الثانية من مدينة ليدن مطبعة بريل عام ١٩٠٦.

١٠) تحفة الأحباب لأبي حامد الغرناطي، طبع في بريل

١١) جحنامه، لعلي بن حامد أبي بكر الكوفي المترجم بعنوان فتح السند بقلم الأستاذ ن. آ. بلوش، دار طلاس، دمشق، عام ١٩٩١.

١٢) رحلة السيرافي، تحقيق عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة عام١٩٩٩م.

١٣) الأخبار الطوال، لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، تحقيق الدكتور عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، عام ١٩٦٠.

١٤) معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت.

١٥) تاريخ البصرة لنعمان الأعظمي، مكتبة المثنى بغداد

١٦) آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمود القزويني، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت عام ١٩٦٠م.

١٧) كتاب صورة الأرض لأبي القاسم محمد بن حوقل النصيبي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، عام ١٩٩٢م.

١٨) كتاب المسالك والممالك لأبي القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خردازبه، مطبعة بريل عام ١٨٨٩م.

١٩) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري، الصوفي الدمشقي، مكتبة المثنى بغداد، عام ١٩٢٣م.

٢٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن على بن الحسين بن علي المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت، الطبعة الخامسة عام ١٩٧٣م.

٢١) عجائب الهند، بزرك بن شهريار، تحقيق يوسف الشاروني، رياض الريس للكتب والنشر، لندن

٢٢) سواء السبيل في المولد والدخيل، آرنولد

٢٣) تقويم البلدان، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء، الطباعة السلطانية من باريس عام ١٨٤٠م.

٢٤) رحلة ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بابن بطوطة، دار صادر، بيروت.

٢٥) مختصر كتاب البلدان، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، المعروف بابن الفقيه، مطبع بريل، مدينة ليدن، عام ١٣٠٢هـ.

٢٦) الإتقان في علوم القرآن، شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر.

٢٧) مفاتيح العلوم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٢٨) متو شامتر

٢٩) جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني،.

٣٠) تاريخ وصاف بقلم وصاف حضرة الشيرازي

٣١) تاريخ ضياء باراني

٣٢) خزائن الفتوح للأمير خسرو

٣٣) ربيع الأبرار للزمخشري

٣٤) سياست نامه

٣٥) تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولي بيروت.

٣٦) الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي المكرم محمد بن محمد المعروف بابن الأثير، دار صادر، بيروت.

٣٧) تاريخ فارس الأدبي (Literary History of Persia by Edward Brown)

٣٨) الموسوعة الإسلامية

٣٩) الفهرست، محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم، دار المعرفة، بيروت عام ١٩٧٨م.

٤٠) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري

٤١) زبدة الصحائف في سياحة المعارف، توفل آفندي

٤٢) فخر السودان على البيضان، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،

٤٣) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي، دار صادر، بيروت.

٤٤) كتاب البيان و التبيين للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت.

٤٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم المعروف بان أبي أصيبعه، تحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٤٦) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، عام ١٩٥٧م.

٤٧) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة وعبد الله شلبي، منشورات مكتبة المثنى ـ بغداد.

٤٨) مفتاح السعادة للطاشكيري

٤٩) طبقات الأمم، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، مطبعة السعادة، مصر.

٥٠) التعريفات، على بن محمد علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥١) مختصر الدول لأبي فرج

٥٢) طبقات ابن باكويه الشيرازي، ترتيب مسيفان لويس، طبع في باريس عام ١٩١٤م.

٥٣) تاريخ الخلفاء، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

٥٤) صحيح البخاري

٥٥) كتاب الوزراء للجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، عام ١٩٣٨م.

٥٦) أخبار الحكماء

٥٧) القانون المسعودي، لأبي ريحان البيروني، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد دكن، الهند.

٥٨) آئين أكبري

٥٩) تاريخ فرشته،

٦٠) البدء و التاريخ، مطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية،
٦١) الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، عام١٩٦١م.
٦٢) تاريخ ملوك الأرض، طبع في برلن.
٦٣) نهاية الإرب في فنون الأدب للدميري
٦٤) كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل، لمرتضى الزيدي
٦٥) المسلمون في الهند
٦٦) تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، أحمد زين الدين المعبري المليباري، تحقيق محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء بيروت، عام ١٩٨٥م.
٦٧) جامع الحكايات، محمد عوفي
٦٨) تاريخ ابن خلدون، منشورات دار الكتاب اللبناني، للطباعة والنشر، عام ١٩٥٨م.
٦٩) الأعلاق النفيسة، أبو على أحمد بن عمر بن رسته، مطبعة بريل، ليدن.
٧٠) كتاب المسالك والممالك، الاصطخري،
٧١) زين الأخبار للكرديزي طبع في برلن
٧٢) أخبار الأخيار،عبد الحق الدهلوي
٧٣) تاريخ الطاهري، للمير طاهر بن سيد حسن القندهاري
٧٤) الدعوة إلى الإسلام للسير توماس آرنولد ـ ترجمة حسن إبراهيم وزملائه، مصر، عام ١٩٧١م.

٧٥) تاريخ المعصومي للمير محمد معصوم
٧٦) تحفة الكرام للمؤلف علي شير
٧٧) موسوعة الإسلام
٧٨) تاريخ فيروز شاهي، سراج عفيف
٧٩) كتاب الأنساب، أبو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني، تحقيق عبد الله عمر البارودي، مركز الخدجمات والأبحاث الثقافية، دار الجنان،
٨٠) مكاتيب شبلي،
٨١) طبقات ناصري
٨٢) الأدب المفرد، للإمام البخاري، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
٨٣) المعارف، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.
٨٤) تاريخ الهند ـ لألفنستن
٨٥) الموسوعة البريطانية
٨٦) التاريخ القديم لدنكر

محتويات الكتاب